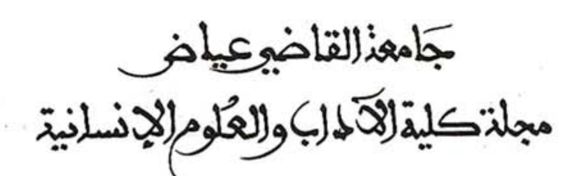


مراكش

خلال العصرين المريني والسعدي

أشغال الملتقى الثاني 1990

العدد 8/1992

جامعة القاضي عياض
مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مراكش
خلال العصرين المريني والسعدي

أشغال الملتقى الثاني 1990

العدد 8/1992

رقم الإيداع القانوني 38 / 1992

تم الطبع بمطبعة إدويسعدن

95، شارع بوغورزلانيا الهاتف : 33 07 43 - 11 45 43 (04) - الفاكس : 94 60 44 (04)

المملكة المغربية

جامعة القاضي عياض

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مراكش

المدير

الأستاذ. د. محمد بوغالي

قيدوم الكلية

الهاتف . 62 19 30 (04) - الفاكس 28 46 30 (04) - ص.ب. س 17

الفهرس

كلمة السيد عميد الجامعة
في الجلسة الافتتاحية للندوة الثانية حول مراكش
خلال مرحلة المرينيين والسعديين 8 نونبر 1990

يسعدني في بداية هذه الكلمة أن أرحب باسمي الخاص وباسم جامعة القاضي عياض ومسؤوليها وأساتذتها وطلبتها بالسادة الأساتذة الباحثين المشاركين في هذه الندوة العلمية الثانية حول المكانة الحضارية والتاريخية لمدينة مراكش معربين للجميع عن اعتزازنا الكبير بما يبذلونه من جهد في سبيل خدمة الثقافة المغربية وإبراز الفعل والعطاء الذي كان لمدينة مراكش ولعلمائها وفقهائها وأدبائها في بلورة وصنع اللحظات المشعة في تاريخ وحضارة المملكة المغربية السعيدة منذ أقدم العصور.

ولا يسعني في هذه العجالة إلا أن أنوه وأهنيء الساهرين على كلية الاداب عموما. و الساهرين على مركز الدراسات والأبحاث حول مراكش بوجه خاص الذين عملوا ويعملون رغم تواضع الامكانيات المتاحة على جمع المادة العلمية والتاريخية المتعلقة بالمدينة من جهة، وعلى تنظيم مثل هذه التظاهرات كإطارات مفيدة للحوار بين الباحثين والمختصين والمهتمين من جهة ثانية.

ومما لاشك فيه أن عقد مثل هذه اللقاءات العلمية سيساهم مساهمة جديدة في إنجاز إحدى الوظائف الموكولة للجامعة ألا وهي وظيفة التعريف بمنطقتها الجغرافية ومركزها الحضري من الزوايا التاريخية والفكرية والحضارية.

أيتها السيدات أيها السادة،

إن المحاور التي تم اختيارها في هذه الندوة العلمية الهامة لكفيلة بإضاءة تفاعل مدينة مراكش كمدينة عريقة مع أهم الأحداث والوقائع التاريخية التي شهدها المغرب

أثناء حقبة المرينيين والسعديين وبالفعل فمدينة مراكش باعتبارها إحدى أهم الحصون والعواصم المغربية قد تأثرت بفترات الرخاء والتقدم والازدهار، فأعطت العلماء والأدباء واحتضنت الإبداع والتجديد، وشهدت الزخرفة المعمارية والعظمة الهندسية في مآثرها التاريخية كما كانت قبلة للمفكرين الذين دوى صيتهم عاليا في العالم الإسلامي إن لم يكن في العالم برمته. ولذلك فلا نبالغ في القول إذا أشرنا إلى أن مدينة مراكش كانت بمثابة إحدى المرايا الأساسية للحضارة المغربية فلقد عكست فترات الصعود والتألق والتطور كما تأثرت بفترات التردد والتراجع فيكفي الزائر الأجنبي اليوم أن يتمعن في مآثرها التاريخية وهندستها المعمارية العريقة ليدرك أنها كانت ولازالت محطة من المحطات الأساسية لصنع التاريخ في منطقة الشمال الإفريقي ومركزا من المراكز المهمة لاتخاذ القرارات الحاسمة في مسيرة البلاد. وها نحن اليوم مطالبون بفهم تاريخها الطويل واستيعاب الأحداث التي ساهمت في اكسابها طابعا خاصا وفريدا كمدينة عريقة وإحدى العواصم العربية الإسلامية التي لازالت شاهدة على العبقرية المغربية الإسلامية وعلى عظمة السلالات التي حكمت المغرب وحافظت على وحدته واستمراريته. إنها لازالت شاهدة كذلك على نفسها كعاصمة إفريقية كان لها حضورها الفعال في العلاقات المغربية الإفريقية على الأصعدة الاقتصادية والتجارية والثقافية والعلمية.

وحتى لا أطيل عليكم، أتمنى لأشغال ندوتكم هاته كامل التوفيق والنجاح. كما أشكر السادة الأساتذة والباحثين الذين تحملوا مشاق السفر والتنقل لإغناء هذه الندوة، شكري موجه كذلك إلى كل الجهات التي ساعدت بهذا القدر أو ذاك على انعقاد هذا الجمع المبارك وأخيرا أتمنى أن نوفق جميعا في أداء المهام المنوطة بنا كل من موقعه، حتى نكون عند حسن ظن عاهلنا الأول جلالة الملك الحسن الثاني أدام الله عزه ونصره.

والله الموفق.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة السيد قيدوم كلية الآداب
في افتتاح الندوة

يسعدني أن أرحب بكم جميعا مرة أخرى في رحاب هذه الكلية التي سنت سنة اللقاء العلمي والتعاون الفكري وجعلته من أكبر اهتماماتها الثقافية. بالامس القريب، بادرت الكلية إلى تنظيم الحلقة الأولى حول مرحلة تاريخ تأسيس مدينة مراكش وذلك انطلاقا من منجزات دولتي المرابطين والموحدين، حيث كانت فرصة لتبادل الآراء وتحديد المعلومات بين الدارسين والمفكرين.

واليوم، نلتقي لافتتاح الحلقة الثانية من تاريخ مراكش حيث سيكون البحث مركزا على فترة المرينيين والسعديين. ولايخفى على أحد ما لهذه الفترة من أهمية تأسيسية لمفهوم الدولة المغربية خصوصا وأن البلاد أصبحت مهددة من الداخل والخارج بأفكار وأطماع كان لزاما على ولات الحكم التصدي لها ومحاربتها على واجهات متعددة. ويكفي دليلا على هذه الأهمية أن نشير إلى تاريخ دولة المرينيين والسعديين كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بتطور الفكر الديني والصوفي بالمغرب كله حيث أصبح العمل العقائدي الإسلامي وسيلة من أهم الوسائل الفعالة للدفاع عن وحدة البلاد وللذود عن مقدساته.

إن تاريخ مدينة مراكش خلال الفترة المذكورة لمن أهم المراحل التي علينا أن نعمق معرفتها وأن نستخلص منها العبر التي ربما نحن في حاجة إليها اليوم للإلمام ببعض مقومات هويتنا الوطنية والعقائدية. ولاشك أن المجموعة الخيرة من الأساتذة والباحثين الملبين دعوة المشاركة في هذه الندوة ستزيد في معرفتنا بتاريخ مراكش أيام المرينيين والسعديين معرفة موضوعية شاملة. كما لاشك في أن الطابع العلمي والقيمة الثقافية لمداخلات السادة المشاركين سيجعل من هذه الندوة لقاء جامعيا في أرقى المستويات وأنفعها.

وبهذه المناسبة الطيبة، أريد أن أتوجه بعبارات الشكر والمودة إلى سيادة عامل صاحب الجلالة على إقليم مراكش الدكتور محمد بالماحي الذي وجدنا فيه مرة أخرى مسؤولا غيورا وجامعيا متواضعا ومحسنا للعلم والثقافة. وإن تشريفه اليوم لافتتاح هذه الندوة لدلالة كافية على وقوفه الصادق إلى جانب كليتنا الفتية.

ومن واجبي أيضا أن أتوجه بعبارات الشكر الخالص إلى السيد رئيس جامعة القاضي عياض أخينا الدكتور محمد الكنديري، الذي رحب بفكرة الندوة ووقف شخصيا على تحقيق الكثير من متطلباتها المادية كما عودنا على ذلك.

كما أتوجه بخالص الشكر إلى كافة أساتذة الكلية الذين برهنوا من خلال تنظيم ندوتنا اليوم عن مدى طموحهم العلمي وغيرتهم المحمودة عن المؤسسة وعراقة المدينة وخصوصا منهم الذين شكلوا اللجنة المنظمة لهذا اللقاء.

كما أتوجه بعبارات الشكر والتقدير إلى جميع الإخوة الأساتذة الآفاقيين الذين بادروا إلى المشاركة في هذه الندوة بما أتاهم الله من ثقافة حقة وعلم نافع، مساهمة منهم في إبراز بعض مقومات العبقرية المراكشية من خلال تاريخها.

وكانت هذه الندوة فرصة نتيقن فيها من جديد أن للكلية مجموعة طيبة من الإخوة والأصدقاء الذين يسارعون للمساهمة في كل ما يرجع عليها بالخير ويقوي حسن سمعتها وإشعاعها الثقافي والعلمي. فلهم منا جميعا صادق المودة ووافر الشكر.

ولابد من التنويه هنا بما قامت به الهيأة الإدارية للكلية التي وقفت على إنجاز الجوانب المادية للندوة، مساهمة منها في تحقيق إشعاع أوسع للمؤسسة.

إن الإخوان والأصدقاء الذين لبوا دعوتنا مشكورين هم في دارهم وبين أهلهم، فجزاهم الله على كريم استجابتهم التي نعتبرها من أهم المكتسبات المعنوية للكلية.

وفقنا الله جميعا لما فيه خير الثقافة والبلاد تحت الرعاية السامية لجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأبقاه مدافعا عن راية العلم النافع، قرير العين بولي العهد

الأمير الجليل سيدي محمد، وبصنوه الأمير مولاي رشيد وبباقي الأمراء، إنه سميع مجيب، والسلام.

وأغتنم فرصة هذه الندوة العلمية لأطلب من سيادة العامل أن ينوب عن أساتذة الكلية وأطرها الإدارية وكذا عن كافة المشاركين في تبليغ السدة العالية بالله عبارات استنكارنا الصريح للحملة التي تقوم بها بعض الأوساط الفرنسية ضد المغرب ومقدساته، متناسية بذلك ما أبدعته العبقرية المغربية خلال التاريخ وماضحت به في سبيل تحرير العالم أجمع.

جامعة القاضي عياض

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مراكش

مركز الدراسات والأبحاث حول مراكش

كلمة اللجنة المنظمة لندوة :

مراكش من منتصف القرن 7 هـ / 13م إلى منتصف القرن 11 هـ 17م

والمرينيون ... السعديون

(الحلقة الثانية)

ألقاها : ذ : حسن جلاب

في 8 نونبر 1990

يسعدني أن ألقي أمام حضرتكم كلمة باسم زملائي أعضاء اللجنة العلمية للمركز، واللجنة المنظمة للندوة.

إن الهدف الأساسي والأسمى في المشروع العلمي الطموح لمركز الدراسات والأبحاث حول مراكش التابع للكلية، هو كتابة التاريخ الحضاري لهذه المدينة العريقة، وذلك بعقد سلسلة من الندوات نتابع فيها هذا التاريخ المجيد، ونتناول جوانبه بالدرس والتحليل.

وقد تمت الخطوة الأولى بعقد الحلقة الأولى منذ سنتين تمحورت حول (مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي)

تلك الندوة التي حققت نجاحا كبيرا، وتوجت بطبع وبحوث ومداخلات التي ألقيت فيها في كتاب، لقي بحمد الله القبول الحسن لدى الباحثين.

وها نحن نخطو خطوة أخرى في تحقيق هذا المشروع بتنظيم الحلقة الثانية، والتي تتركز حول مراكش خلال عهدي المرينيين والسعديين.

ولانحتاج إلى التأكيد على أهمية هذه الفترة التي تمتد زهاء أربعة قرون ذلك بالرغم من انتقال كرسي الحكم إلى فاس، مع مجيء المرينيين فإن الحركة العلمية بالمدينة لم تتأثر بذلك لأن البنيات الأساسية التي أرسى الموحدون دعائمها، وثبتوا أركانها، كانت كفيلة بضمان الاستمرارية والثبات، ولعلها قد تعززت بمجيء كثير من العناصر الأندلسية، وبناء معالم علمية ودينية كمدرسة ابن يوسف ومسجد ابن صالح مما أدى إلى بروز أعلام في مجالات معرفية مختلفة : كابن عبد الملك المراكشي وابن عذاري المراكشي وغيرهما ... وعلى رأس هؤلاء جميعا مفخرة المدينة والمغرب في هذه الفترة ابن البناء العددي المراكشي الذي خصصنا له محورا خاصا بهذه المناسبة احتفاء به، وتنويها بمكانته.

ويسعدنا أن يلتقي في هذا المحور كبار الأساتذة المغاربة المتخصصين في هذه الفترة عامة، وفي شخصية ابن البناء على الخصوص.

أما المرحلة الثانية التي تعالجها الندوة (العصر السعدي) فلا تخفى أهميتها، فمع الدولة السعدية تتوجه الأنظار من جديد إلى مراكش العاصمة، التي عرفت أوج ازدهارها العلمي، ورخائها الاقتصادي الاجتماعي على عهد الخليفة العالم أحمد المنصور الذهبي خاصة بعدما تفتح على حضارة الصحراء وإعاد ربط البلاد بجذورها العميقة، فأعطى التمازج الحضاري بين الشمال والجنوب فكرا أصيلا متميزا مازالت ملامحه ماثلة إلى الآن.

وستعمل الندوة بمداخلاتها المتنوعة المتكاملة على إبرازه وتسليط الأضواء عليه.

أيها السادة :

إن الأمم التي تتوفر على تاريخ مجيد وحافل كأمتنا يحق لها أن تفخر وتزهو به، بقدر ما يجب عليها أن تعمل على إبرازه ودراسته الدراسة العلمية الرصينة، لهذا كان اهتمامنا بمراكش التي عرفت إشعاعا علميا ورقيا حضاريا في القديم والحديث.

إن مشروعنا العلمي هذا، سيبلغ قمته وأوجه ومنتهاه بتنظيم الحلقة الثالثة التي سنتناول فيها (تاريخ مراكش على عهد الأشراف العلويين) إن شاء الله نتمنى أن تتظافر الجهود، وتتوفر الإمكانيات لتكون في مستوى الموضوع العظيم الذي ستعالجه.

ولايفوتني قبل ختام هذه الكلمة الوجيزة أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم مراكش على ما قدمه لنا من مساعدات ستمكن المركز من المضي في تنفيذ مشاريعه ومنها هذه الندوة، والسيد عميد جامعة القاضي عياض الذي نجد لديه دائما الدعم المادي والمعنوي والنصح والتوجيه السديد، والسيد قيدوم كلية الاداب الذي تابع معنى التحضير بتفاصيله ودقائقه وبما يتطلبه من حزم ومثابرة.

كما أوجه الشكر إلى المؤسسات التي ساعدتنا وخاصة اسمنت مراكش وتعاونية الحليب بمراكش، وإلى الزملاء أعضاء اللجنة العلمية للمركز وكل الأساتذة المشاركين

في الندوة من مختلف الكليات المغربية. وأخص بالشكر كذلك السيد محافظ الخزانة العامة بالرباط الذي اقترح علينا تنظيم معرض لأعمال ابن البنا، ومؤلفاته وما كتب عنه، وهو أمر عظيم الأهمية، جليل الفائدة بالنسبة لأساتذة الكلية وطلبتها،

كما أشكر كل السادة الذين لبوا الدعوة بحضور هذا الحفل الافتتاحي. ننتهي بهذا كله أن نكون عند ظن صاحب الجلالة الحسن الثاني أيده الله ونصره، وأقر عينه بولي عهده سيدي محمد وصنوه المولى الرشيد إنه سميع مجيب.

والسلام عليكم ورحمة الله.

النمو الحضري بمدينة مراكش
في عهد المرينيين والسعديين

هوزلي أحمد - جغرافيا -
كلية الآداب
مراكش

لقد تأسست مدينة مراكش بقرار سياسي من طرف المرابطين سنة 462 هـ 1070 م لتكون قاعدة لإمبراطورية ناشئة بمكان يعتبر عقدة مواصلات مهمة بشرق سهل الحوز، مما جعلها حلقة وصل بين أقاليم متباينة الإنتاج ، له أهمية استراتيجية لكنه فقير فلاحيا، وحققت نهضة عمرانية واقتصادية كبيرة في ظرف وجيز، إلا أنه منذ نشأتها ارتبط مصيرها بوظيفتها السياسية الأولى أي تواجد أسرة مالكة تدعم نفوذها الإقتصادي، وتسهر على متانة علاقاتها بمحيطها الإقليمي والوطني وكلما حرمت من هذه الوظيفة تعرضت لركود وتقهقر اقتصادي واجتماعي ينعكس بسرعة على بنيتها العمرانية. وهذا ما سنراه في عرضنا خلال العصرين المريني والسعدي، مطبقا على مستوى تصميمها الحضري وذلك من خلال قراءة بعض البحوث والمراجع التاريخية وتحليل جغرافي حضري لمعطياتها. ونظرا لقلة البحوث التاريخية حول الجوانب الإقتصادية والعمرانية والسكانية بمدينة مراكش فإنني اعتمدت في بعض الاستنتاجات على قواعد جغرافية وحضرية عامة وعلى آراء بعض الزملاء الأساتذة وعلى تحريات محلية. وسأتطرق إليه من خلال أربعة محاور هي :

1 - الوضعية السياسية والإقتصادية بمراكش خلال الحكم المريني.

2 - تقلص نفوذ المدينة وتقهقرها العمراني .

3 - النهوض السياسي والإقتصادي خلال الحكم السعدي.

4 - قراءة للتصميم الحضري لمدينة مراكش في عهد السعدي.

I - مراكش في العهد المريني

انصب اهتمام المرينيين على شمال المغرب وشرقه ولم يهمهم من الجنوب سوى ابادة فلول الموحدين والقضاء على آثارهم وطاردهم القائد أبو علي الملياني إلى تنمل حيث نشر الخراب ونبش القبور. ولما كثرت الخلافات بين زعماء المرينيين وضعفت شوكتهم أتيحت الفرصة لأسرة حاكمة محلية لتتولى حكم مراكش وكل الجنوب المغربي ابتداء من 1353 م هي الأسرة الهنتاتية، لقد بقي زعماؤها مرتبطين بمسقط رأسهم الجبلي، وبهذا صارت المدينة خاضعة لقوى ريفية لكن سرعان ما دب الخلاف بينهم كذلك فضعفوا ولم يستطيعوا فرض نفوذهم على الأعراب الذين عاشوا فسادا في أحواز مراكش ودحروا السكان إلى الجبال واستعاضوا عن الزراعة بنشر الرعي وبذلك قطعوا العلاقات التكاملية القائمة بين الجبل البربري والسهل الذي صار بدويا، وحرمت مراكش من الاتصال بحوضها المغذي لها الذي صار تابعا جزئيا إلى فاس وتوسع نفوذ البرتغاليين انطلاقا من آسفي وأزمور واغاروا على أحواز مراكش وأسروا السكان والمواشي عند أسوار المدينة التي انعدم الأمن داخلها وتحولت أحياؤها إلى دروب لها أبواب تغلق ليلا.

لقد كان عهد المرينيين بمراكش مرحلة انحطاط حضاري وتقلص عمراني وديمغرافي كبير.

II - التدهور العمراني والديمغرافي لمدينة مراكش

بقيت المدينة محافظة على تصميمها المرابطي لبقاء أسوارها وأبوابها ومحاورها الرئيسية على حالها، لكنها فقدت الكثير مما حققته من نمو عمراني وإشعاع حضاري في عهد الموحدين حيث وصفها الإدريسي بقوله " إنها مدينة كبيرة ذات أزقة عريضة وساحات واسعة وبنايات عالية أسواقها عامرة ومساجدها كثيرة " فقد خلبت لب زوارها بجمال قصورها وبساتينها وحيها الملكي القصبة.

لقد كان دخول المرينيين إليها سنة 1269 م بعد حصار وحروب طاحنة ضد الموحدين بداية نكستها العمرانية. ورغم بقائها أهم مدينة إدارية وتجارية بجنوب المغرب وقاعدة عسكرية مهمة فإن نقل العاصمة إلى فاس أصابها بانكماش كبير إذ هجر المدينة جل العائلات الارستقراطية السياسية وكل من كانت له علاقة بالموحدين مخافة على نفسه، كما تركها الكثير من الكتاب والموظفين والتجار واليهود إلى فاس لتقديم خدماتهم إلى الطبقة المحظوظة الجديدة، كما أفنت الحروب الكثير من سكانها وتسرب الخراب إلى كثير من الأحياء وتهدمت القصور وتحولت المدينة إلى مجموعة أحياء ذات طابع ريفي تفصلها مساحات فارغة.

وهكذا ظلت راكدة تجتر ماضيها طيلة ثلاث قرون. ولم تعرف خلالها أية حركة عمرانية مهمة رغم بناء بعض المساجد الصغيرة أهمها مسجد ابن صالح 1321 م ومسجدين صغيرين بحارة الصورة وروض الجنة (روض العروس) الذي وسع في عهد السعديين وصار يعرف بمسجد سيدي بن سليمان وصومعة جامع القطة بحي القصور، ومدرسة بشمال مسجد القصبة اندثرت معالمها، ورغم ظهور بعض الشخصيات مثل ابن البناء وبعض المتصوفة فإن المدينة عرفت ركودا فكريا كذلك، لكن المدينة بدأت تستعيد بعض حيويتها في نهاية القرن 15 م عندما بدأ يفد إليها المهاجرون الأندلسيون من مسلمين ويهود انعكس ذلك على الحركة العمرانية بظهور نواة حي رياض الزيتون الذي استقر به المسلمون بينما استقر اليهود بالملاح القديم الموجود بحي المواسين بين المركز التجاري بوسط المدينة وقصر الحجر والكتبية حيث وجدت الطبقة الحاكمة أيام المرابطين، كما كان هناك جماعة أخرى من اليهود تعيش بحي أسول قرب الأحياء الحرفية بشرق المدينة. وبصفة عامة كانت حصيلة هذه الفترة بمراكش سلبية لأن فقدان الوظيفة السياسية حرم المدينة من اسقاطات اقتصادية مهمة إذ فقد الحرفيون والتجار أفضل زبنائهم، لكن الحركة الاقتصادية لم تمت فقد استطاع الحرفيون التكيف مع الوضع الجديد بالاهتمام أكثر فأكثر بالمنتوجات الموجهة للريفيين والفئات الشعبية بالمدينة، لكن الشروع في بناء مدينة فاس الجديد أدى إلى نزوح الكثير من الحرفيين والعمال المهرة دون رجعة.

لقد أدت كل هذه العوامل إلى تقهقر الحياة الحضرية بمراكش وطغيان المنظر الريفي، خاصة بعد تعرضها لسنوات مجاعة وأوبئة في بداية القرن 16 قضت على الكثير من السكان الحضريين الذين حل محلهم مهاجرون ريفيون.

ويقول ابن بطوطة الذي زارها سنة 1350 م أنه لاحظ وهو يشاهد المدينة من أعلى صومعة الكتبية أن معظمها خرائب.

أما ابن الخطيب الذي مر بها سنة 1359 م فإنه قال عن مآثرها العمرانية " سقط بعضها كالموتى وأصيب الآخر إصابات بليغة كالجرحى " ويستطرد قائلا : إن خراب المدينة يثير الفزع.

ويقول الحسن الوزان الذي زار المدينة في بداية القرن 16 في عهد الوطاسيين " أن ثلثي مساحة المدينة غير مسكون ويمارس السكان الزراعة داخلها ذلك أن البدو خارج أسوارها ينهبون كل شيء ونستطيع أن نقول بصدق أن هذه المدينة قد شاخت قبل الأوان. ويستطرد قائلا في مكان آخر " لقد أصاب الخراب القصبة كذلك فقصر الخليفة لازال مسكونا وكذلك بعض الثكنات العسكرية، لكن بعض المباني صارت ملجأ للحمائم والغربان. وقال عن مسجد الكتبية انه من أجمل المساجد لكنه الآن صار مهملا لأن سكان مراكش لايؤدون به إلا صلاة الجمعة، والمدينة ضئيلة السكان خصوصا بجوار الجامع إذ لايصل إليه الإنسان إلا بعناء بين انقاض الهدم التي تعمر الطريق، ولم يعد يوجد حوله ولا دكان واحد لبيع الكتب. ويذكر مارمول الذي عاش بمراكش، بداية عهد السعديين أنه لايرى الآن بداخل المدينة غير الفقر والفراغ وخراب المساكن الواقع بعضها على البعض الآخر مما كون تلالا يستفيد قطاع الطرق كمخابيء للسطو على المارة، وبعض الدور التي أعيد بناؤها بعيدة الجوار، إنها دور منخفضة وسخة كئيبة المنظر يصعب الاعتقاد بأن هذه المدينة كانت عاصمة امبراطورية من جراء ما أصابها من بؤس وإهمال. والاعتقاد أنها تضم الآن أكثر من ثلاثين ألف ساكن.

ومما يفسر هذا الوضع المزري أن معظم منازل مراكش مبني بالتراب المدكوك وهو ضعيف التماسك ولايحمى بطلاء جير إلا نادرا مما يودي إلى إصابته بأضرار

كبيرة عند هطول الأمطار وهو يتطلب صيانة وترميما مستمرا لحمايته من الانهيار وعندما تهجر هذه الدور أو تحرم من الترميم تتعرض للخراب بسرعة أما الدور المبنية بالآجر فهي قليلة. والمبنية بالحجارة نادرة لصعوبة قطع الحجارة ونحتها ونقلها في ذلك العهد.

III مراكش في عهد السعديين

عندما حل السعديون بمراكش سنة 1524 وجدوها كشبح عاصمة ومدينة تحتضر كما قال لوتورنو، ورغم اتخاذهم لها عاصمة لملكتهم فإن خلافات الأسرة الحاكمة وتحاربهم من أجل الملك أصاب المدينة بخراب كبير. ولم تسترجع مراكش هدوءها إلا في أيام الملك المولى عبد الله الغالب الذي لم يدم حكمه طويلا : 1557 - 1574 م وتمتعت بفترة رخاء وأمن طويلة وفي عهد الملك أحمد المنصور 1578 - 1603 م الذي حقق بطولة وطنية وشهرة عالمية بعد وقعة وادي المخازن وجمع أموالا كثيرة من الغنائم وأموال افتداء الأسرى وغزو السودان والتبادل التجاري والضرائب الثقيلة المفروضة على السكان، مما أعطى سيولة نقدية ساعدت على إنعاش التجارة ومختلف الصنائع والخدمات. لكن لم يكد أحمد المنصور يموت سنة 1603 م 986 هـ حتى دخل أبناؤه في حروب مهلكة أرجعت البلاد إلى أسوأ مما كانت عليه وتمزقت وحدتها السياسية من جديد، وتدهورت أحوال المدينة مرة أخرى من جراء الفتن والمجاعات والأوبئة كما جر عليها دورها كعاصمة سياسية سلسلة من حروب الحصار والنهب والاستباحة.

1 - النهضة العمرانية بمراكش أيام السعديين

أ - عبد الله الغالب : بعد وفاة محمد الشيخ الذي أعاد الحياة إلى حي القصبة تولى بعده ابنه عبد الله الغالب الذي قام بإنجاز أعمال عمرانية مهمة لما وجده من أموال بين يديه بسبب الانتعاش الاقتصادي الذي عرفه المغرب بعد توالي سنوات خصبة واستفادته من خدمات المهاجرين الاندلسيين وبعض الخدام المسيحيين، فابتدأت مراكش تسترجع إشراقها كعاصمة وطنية. فقد أعاد بناء المنشآت العسكرية بالقصبة، وإليه يرجع الفضل في بناء المقبرة السعدية وقبة ضريح سيدي يوسف بن علي. وتم

في عهده ترميم شبكة توزيع المياه والمنشآت العمومية والأسوار والبساتين. كما أمر ببناء ملاح جديد بجوار القصبة عند باب غمات، تجمع فيه كل اليهود الذين كانوا منتشرين بحيين أو أكثر بوسط المدينة لارتفاع عددهم بسبب توافد عدد من اليهود من فاس وغيرها. وكان بمثابة مدينة جديدة مساحتها 18 هـ محاطة بسور ولها مقبرتها الخاصة، تم تخطيطها من طرف مهندس يهودي أوربي وسرعان ما وصل سكانها إلى حوالي 3000 - 4000 نسمة، ضم منشآت صناعية مهمة وفنادق تجارية. وكان الملاح مقرا لعدد من الاوربيين التجار المقيمين والزائرين والنصارى العاملين في خدمة القصر.

لقد بدأت الحياة الحضرية تنتعش من جديد وانفتحت الأحياء التي كانت منكمشة على نفسها، وانتعشت أحياء جامع ابن يوسف من جديد بعد أن جدد المسجد وأضيفت إليه مدرسة، واستقبل حي الكتبية والأحياء الشعبية بشرق المدينة عددا كبيرا من مهاجري الأرياف والمدن واسترجعت الأسواق والحرف حيويتها، ذلك أن استقرار أجهزة الدولة وفر من جديد زبناء لهم أمكانيات مادية كبيرة وحاجيات راقية، كما اغتنت المدينة بخبرات ومهارة المهاجرين الأندلسيين الموريسكيين الذين استقروا خاصة برياض الزيتون والقنارية. وظهرت أحياء جديدة مكان أحياء مخربة وفوق المساحات الفارغة، ملأت الفراغ بين أحياء وسط المدينة وأحياء الأبواب . ومن الأحياء الجديدة التي ظهرت فوق انقاض أحياء سابقة القصور والمواسين. ومن الأحياء الشعبية الجديدة سيدي بوعمرو ولالا مسعودة، ونقل ملجأ المجذومين من جوار ضريح سيدي يوسف بن علي الذي صار قريبا من القصور الملكية الجديدة إلى خارج باب دكالة حيث ظهر لهم حي آخر، هو الحارة، وتكاثر بناء المنازل الكبيرة بالأحياء الأرستقراطية.

ومن أهم مخلفات الملك عبد الله الغالب، جامع المواسين الذي بني مكان مقبرة الحي اليهودي السابق ألحقت به مكتبة وحمام ومراحيض وسقاية لازالت مشهورة إلى اليوم ومارستان بالطالعة قرب مسجد ابن يوسف وقنطرة على واد اسيل، ولهذا يعتبر الملك عبد الله الغالب بحق المؤسس الثالث لمدينة مراكش، إلا أن المدينة لم تنج في عهده من نكبات أهمها انتشار الطاعون في بداية حكمه سنتي 1558 - 1559 الذي

تقضي على قسم من السكان وانتشار فتن بين أفراد الأسرة الحاكمة بعد وفاته.

ب - أحمد المنصور الذهبي : عرفت المدينة استقرارا سياسيا وانتعاشا اقتصاديا وعمرانيا كبيرا في عهده فتوسعت الأحياء الارستقراطية والشعبية لكثرة المهاجرين المتوافدين على المدينة كما أن بناء قصر البديع الذي دام 16 سنة أدى إلى انتعاش الكثير من الحرف والصناعات وجلب العمال المهرة من كل مدن المغرب بل أنعش حتى التجارة الخارجية إذ أن الكثير من مواد البناء مثل الرخام والأدوات المعدنية والزجاج استوردت من الخارج كما أن حاشيته الكبيرة بنت منازل جميلة بأحياء القصبة ورياض الزيتون وجنان بن شكرة....ومع اشتهاره بكثرة أمواله فإنه لم يخلف آثارا عمرانية أخرى مهمة إذ أن بناء قصر البديع استنفد كل أمواله وجهوده. وبنت أمه لالة مسعودة مسجد باب دكالة بملحقاته المهمة : حمام، مرحاض، سقاية، مدرسة. كتاب.

ج - مراكش كعاصمة : استرجعت المدينة دورها كعاصمة وطنية بعد أن فقدته منذ ثلاثة قرون فعرفت انتعاشا اقتصاديا جديدا كان مصدره هذه المرة غنائم وقعة وادي المخازن وذهب السودان وضرائب ثقيلة مفروضة على السكان، وليس غنائم الأندلس كما كان في السابق في عهدي المرابطين والموحدين، وعرفت المدينة في النصف الأخير من القرن 16 نهضة عمرانية واقتصادية واجتماعية فضمت بين جدرانها نفائس العصر واجتذبت أفضل الصناع والمفكرين، ولكن إن حظيت المدينة بمنشآت ومآثر ذات قيمة جمالية ودينية فإن ذلك لم يخدم في شيء التصميم الحضري في مجمله ولم يغير شيئا كثيرا في التوجيه المرابطي أو الموحدي فجاءت فترة السعديين كامتداد اصطناعي للمرحلة المرابطية، فبقي مسجد ابن يوسف هو المسجد الجامع الأكبر وليس مسجد الكتبية الذي كان لايذكر. واستعادت الأسواق والأحياء الشعبية للحرف تألقها، وبقيت لجل الأبواب نفس الأسماء القديمة، كما بقي التصميم العام للمدينة كما كان في العهد المرابطي وبقيت القصبة موحدية ولم يضف إليها قصر البديع شيئا جديدا أكثر من البذخ والأبهة. ويلاحظ أن كل ما جد في نظم إدارة المدينة وتنظيمها كان تقليدا إما لتركيا أو إسبانيا كما يقول السيد كولان وظلت

العناصر الفنية الدخيلة مفتقرة إلى الاندماج والوحدة. فلم يكن هناك تجديد بقدر ما كان تقليد عن الأجانب أو رجوع إلى الماضي. ويقول السيد كاستون دوفيردان كاستنتاج عام لنهضة مراكش في العهد السعدي: " لقد وردت أهم عناصر التجديد من غرناطة على يد المورسكيين واليهود المطرودين من إسبانيا والمسيحيين من تجار وأسرى وجنود وخبراء، فكل ما بدا جميلا وأصيلا بمراكش في عهد السعديين يعود أساسا إلى هؤلاء المهاجرين الذين ينبؤون بالدور المتعاظم للغرب الأوربي الذي بدأت حضارته الناهضة تكتسب الهيمنة العالمية منذ مطلع القرن 16.

2 - مراكش بعد السعديين

لم يكد أحمد المنصور يموت سنة 1603 م حتى تعرضت المدينة لنكبات متتالية كان أولها انتشار الطاعون الذي قضى على حياته وأودى بحياة الكثير من السكان والنخبة الحضرية كما اشتبك أبناؤه في حروب مهلكة للاستئثار بالحكم أصابت السكان والمدينة بالفناء خاصة حي القصبة الذي حوصر واستبيح مرارا فتقلص نفوذ المدينة وتحولت إلى عاصمة إقليمية إذ انفصلت عنها فاس، واستمر مسلسل التدهور والتخريب إلى الفترة الأولى من حكم العلويين حيث تعرضت المدينة مرارا إلى الحصار والنهب والاستباحة فتخربت القصور والدور الكبيرة بمختلف الأحياء خاصة حي القصبة الذي لم ينج فيها من التخريب سوى المقبرة السعدية. ولما حل بمراكش محمد الثالث العلوي كخليفة لأبيه مولاي اسماعيل لم يجد في القصبة بيتا واقفا صالحا يسكنه فنصب فيها الخيام وشرع في ترميمها وإصلاح قصورها ومنشآتها. ولعل أهم ما يرمز إلى هذا المسلسل هو تخريب قصر البديع الذي ينسب إلى المولى إسماعيل، إلا أن الواقع يثبت شيئا آخر كما أشار إلى ذلك السيد بن الشرقي حصري أحمد بقوله : [1] إن القصور التي شيدت بمراكش وغيرها كانت غير متناسقة مع البيئة وأضخم بكثير من مستوى ما تملكه الخاصة بل العامة من مساكن تعاقبت الأسر الحاكمة على التوالي في البداية.

---

[1] في كتابه : ارتسامات ومعطيات تاريخية حول مدينة مراكش : الجزء الثاني

تطغى عليها سمة البداوة فلا تقيم وزنا لما بنى من آثار فاخرة إن لم تكن ناقمة على بانيها عاملة على تخريبها فتبقى تلك المآثر مهملة يتسرب إليها الخراب لعدم الصيانة والترميم، فأولئك البناة الذين تعبوا في تشييد ما شيدوا لم يتركوا بعدهم خلفا في مستواهم ينعم بالإستقرار ويستطيع صيانة هذا التراث والشعب بدوره انسجاما مع طبائع البداوة والقناعة يرى في ذلك الترميم تحديا لشعوره ومضيعة للأموال والجهود.

فقصر البديع الذي فقد وظيفته الملكية بعد السعديين، وأصابه الخراب من انعدام الصيانة وفقدان الوعي الحضاري ونفاذ الموارد المالية ولهشاشة مواد البناء في الجدران والسقوف والمبالغة في إعطاء الأهمية للزخرفة البارزة، فالجدران مبنية بالتراب المدكوك والآجر المتلاصق بالطين والجير والسقوف مسقوفة بالخشب الذي يتآكل بالتراب وتسرب المياه فالهدم يبدأ عادة من السقوف والزليج والرخام ينفصل عن الجدران الترابية بفعل الامتداد والتقلص، ثم تأتي يد الإنسان في غياب الوازع وبدافع الحاجة لتأخذ من الأنقاض ما تستطيع نقله وامتلاكه. فالمولى إسماعيل رأى أنه أولى من غيره للاستحواذ على أعمدة رخامية مستوردة من إيطاليا، ونجد اليوم مخلفات قصر البديع في كثير من المنشآت ليس فقط بمكناس بل في الكثير من مدن المغرب تدخل في تزيين وتمتين بناء الأضرحة والمساجد والدور وأحيانا السقايات والحمامات. أما الآثار الدينية ومرافقها والمنشآت ذات المصلحة العامة فتبقى قائمة لايصيبها التخريب مثل ما يصيب القصور لتعاون عامة الناس في بدل ما يضمن لها الصيانة والترميم كلما دعت الحاجة إلى التفقد والتجديد.

4 - التصميم الحضري لمدينة مراكش في عهد السعديين

أ - السكان والتجهيزات الحضرية

1 - عدد سكان المدينة

أكد الدارسون أن لمدينة مراكش القدرة على استيعاب 100.000 نسمة وقدر

الطوريس عدد سكانها في عهد الموحدين بحوالي 150 ألف نسمة. مع العلم أن البساتين كانت تغطي جزءا كبيرا من مساحتها بالإضافة إلى الساحات والمقابر، كما أن المنازل تحتل مساحة لابأس بها لأنها تحتضن عادة وسطها أحواضا، وجلها يتكون من طابق واحد فكثافة السكان تكون ضعيفة، ولهذا فإن هذا الرقم يبدو مبالغا فيه، وقدر مارمول السكان في عهد السعديين بحوالي 25.000 نسمة ويعلق دوفيردان على ذلك بأنه يمكن أن يكون العدد أكبر من ذلك قليلا بسبب استقرار الأمن طيلة عقود والانتعاش التجاري والصناعي وتوافد المهاجرين الريفيين وجلب العبيد وهذا ما ساعد على تعويض النقص الحاصل في السكان بسبب المجاعات والأوبئة التي عرفتها المدينة في مطلع القرن 16. لقد بدت المدينة لكثير من الزائرين والدارسين أنها اتخذت سمة المدن الكبرى الاسلامية على أنها لم تصل إلى مستوى ما كانت عليه في عهد الملوك الموحدين العظام عندما دعت الحاجة إلى توسيعها ببناء حي القصبة واعتبار قلة المساحة المبنية التي لم تتجاوز آنذاك $\frac{3}{5}$ المساحة الكلية فإنه يمكن تقدير عدد سكانها بحوالي 40.000 نسمة وأذكر على سبيل المقارنة أن أول تعداد رسمي للسكان جرى بمدينة مراكش سنة 1926 وجد عددهم في حدود 72.000 نسمة مع العلم أن مراكش قد توسعت خارج الأسوار بظهور أحياء كليز والمشتى ودوار العسكر وعرفت توافد هجرة مكثفة للأوربيين واليهود والمغاربة الريفيين بصفة خاصة لشدة الطلب على اليد العاملة في البناء والأشغال العمومية في هذه الفترة ولهذا يجب التحفض في قبول هذه الأرقام التي يذكرها المؤرخون والزائرون، لأن تضخيم أرقام السكان مشكلة إحصائية يسقط فيه الجميع.

2 - *محاولة وضع تصميم حضري*

من الصعب وضع تصميم حضري لمدينة مراكش في عهد السعديين لأسباب عديدة منها كون المؤرخين المسلمين لم يهتموا بهذا الجانب. أما التصاميم التي وضعها أجانب وهم تجار وخدام وسفراء زائرون أو متجسسون فإنها تضم أخطاء وغموضا سواء في تخطيطها أو أسمائها، ومع ذلك فإنها تقدم عنصرا ثمينا لتقديم الموضوع، ومن أهمها تصاميم مارمول والطوريس. كما أن المؤرخين والموثقين القدامى لايهتمون

كثيرا بتوطين مدقق لأسماء الأماكن التي تظهر وتختفي دون ما سبب يذكر. أو تنتقل من جهة لأخرى بالمدينة، ولهذا فإنه يصعب تجديد موقع الأحياء بدقة وتخطيط حدودها، خاصة تلك التي ظهرت في عهد السعديين أو اتخذت أسماءها في عهدهم من التي ظهرت قبلهم أو بعدهم. ومن الأحياء التي استمدت أسماءها من شخصيات بارزة أو أحداث وقعت في عهدهم : درب شنتوف، درب ضباشي، رياض الزيتون، درب اسنان، جنان بن شكرا، حمام الذهب.

3 - المنظر الحضري

إن السرعة الكبيرة التي كانت تنمو بها الأحياء والأسواق عندما تصبح المدينة عاصمة ملكية والسرعة الفجائية التي تتدهور بها الأحياء وتندثر الأسر الحضرية وتتراجع أعداد السكان عندما تهجرها الأسر الحاكمة وتفقد أولويتها السياسية، أدى إلى افتقار المدينة إلى تراكم رأسمال حضري وبنية اجتماعية ناضجة تضفي على عناصر المنظر الحضري جمالا وانسجاما، فكان المنظر العام بسيطا أقرب ما يكون إلى قرية ريفية منه إلى مدينة حسنة التنظيم والتسيير وذلك على مستوى السكن الذي يغلب عليه لون التراب البني والطرق الكثيرة الاعوجاج والسكان الذين يرجع معظمهم إلى أصول ريفية قريبة، وقد أبدى ملاحظات في هذا الموضوع كثير من الزائرين والدارسين وذلك حتى بداية القرن العشرين، فقد وصفها الجغرافي الفرنسي جان ديبوا في الأربعينات بقوله : " إن مراكش العاصمة لم تكن سوى قرية ضخمة أو على الأصح تجمع قروي حول سوق كبير يلتقي فيه الريفيون من سكان الجبال والصحراء.

4 - أسوار المدينة

إن الحدود الخارجية للمدينة هي الأسوار التي تحيط بها وكانت تتخذ عند بنائها شكلا شبه سداسي، لكنه كثير النتوءات وأحيانا الاعوجاج إذ قلما يستقيم الجدار على مسافة تزيد على الكيلومتر الواحد لكثرة عمليات الهدم والترميم غير المتبصر التي عرفها، يبلغ طوله 10 كلم أو 20 باعتبار أسوار أكدال وبعض الأسوار الداخلية، وهو

مبني بالطين المدكوك المخلوط بنسب مختلفة من الجير مأخوذ من نفس مكانه، ونظرا لهشاشته فإنه يجري ترميمه باستمرار وقد فقد بعض أهميته أو هالته في عهد السعديين بعد ظهور المدفعية الثقيلة لأنه لم تبق له مناعة كبرى.

وكان بالأسوار في هذه الفترة 15 بابا متعددة الأصول لكن معظمها مرابطي وهي أبواب ايلان، الدباغ، اغمات، الخميس (فاس)، تاغزوت، دكالة، مسوفة، الرخا، المخزن، الشريعة وبابان موحديان احداهما خارجي باب الرب (نفيس) وآخر داخلي باب اكناو وثلاث أبواب سعدية اثنان خارجيان هما باب إيغلي وباب الصالحة وواحد داخلي باب بريمة، ومن الثابت أنه كثيرا ما يقوم بعض الحكام بفتح أبواب جديدة بالأسوار الداخلية أو الخارجية أو إغلاقها حسب نظرتهم الخاصة لمشاكل الأمن العام. ولأهمية الأبواب فإنها كانت تبنى بمواد صلبة وتزود بسقائف تعلوها أبراج وغرف للحراس ومنعطفات لتشديد المراقبة على المارة وتتخذ مكانها عادة عند نهاية طرق قادمة من أقاليم غالبا ما تسمى بإسمها وبداية أزقة داخلية.

5 - *الطرق*

ظلت مراكش محتفظة على مورفولوجية المدينة الإسلامية الإفريقية، لها تصميم شعاعي منتظم نسبيا، فالطرق تتجه من الأبواب نحو وسط المدينة لتلتقي حول جامع ابن يوسف ويبدو أن هذا التصميم منطبق على شبكة طرق الحوز المتجهة نحو السوق القديم : أموروكش الموجود مكان المدينة قبل بنائها بين حدود قبيلتي ايلان وهزميرة.

ويبدو أن شبكة الطرق داخل المدينة لم يوضع لها تصميم مسبق هناك 10 خطوط تتجه من الأبواب نحو المكان المركزي بوسط المدينة على شكل نجمة لكن الطرق التي تقطع المدينة لتربط أبوابها وأطرافها مباشرة قليلة، أما الأزقة الثانوية والثلاثية الدروب فإنها تأخذ كل اتجاه وتتعرج وتتقوس إذ لا هدف لها سوى الوصول للمنازل تتسع وتضيق حسب أهواء جيرانها، ويلاحظ أن هناك محوران رئيسيان يتجنبان وسط المدينة المزدحم احدهما بالغرب يربط بين باب دكالة وباب الرب والآخر

بالشرق بين باب الخميس وباب اغمات، وهناك محور ثالث غير واضح يربط بين باب اكناو وباب اغمات جنوبا، فالتصميم الأولي ظل على حاله كما كان منذ البداية، لكن العناصر الأخرى أي الأحياء والأسواق عرفت تغيرا مع الزمن.

وكانت الطرق غير مرصفة، يكتسحها الغبار صيفا والأوحال شتاء ولا تنظف فتتكدس فوقها الأتربة وتدك بالأقدام فيرتفع مستواها تدريجيا عن مستوى المنازل، ولا تتوفر على قنوات المجاري بل على مطامير تتسرب مياهها القدرة في التربة وتلوث المياه الجوفية.

6 - شبكة الماء الشروب

كانت مدينة مراكش مزودة بما يكفيها من الماء الشروب بواسطة مياه عدد من الخطارات يرجع أصلها إلى قرون تزيد بتزايد الحاجيات وتتقلص بالردم أو الجفاف ينبع جلها من الجنوب والجنوب الشرقي المرتفع بالنسبة لمستوى المدينة أهمها عين البركة والمواسين والقبة وهي ملك للأحباس تزود المساجد والحمامات والمراحيض العامة والسقايات وبعض المنازل الخاصة. بينما تسقى البساتين المخزنية بمياه عيون أخرى : وكان لكل حي سقاية أو أكثر يتزود الناس منها بالماء الشروب، لأن مياه الابار المنزلية تكون غير مستساغة لتلوثها بنسبة ما بالماء القدرة المتسربة من مطمورة المرحاض المنزلي، ولا تستعمل مياهه سوى في التنظيف وسقي الأحواض المنزلية. ويوزع الماء على المرافق العمومية وبعض المنازل بواسطة قواديس فخارية قطرها 15 سم ويتخلل مسيرة الماء نقط للمراقبة تسمى المعدة. ويتولى الإشراف على توزيع المياه ناظر الاحباس الذي يتقاضى بعض الدراهم من المنازل المستفيدة من هذه المياه وهناك عيون أخرى تعتبر ملكا خاصا لأربابها الذين يتقاسمون مياهها المستعملة غالبا في ري البساتين الداخلية.

7 - الأهمية الحضرية للمنشآت الدينية

عملت المنشآت الدينية المهمة التي بناها السعديون على إعادة تنظيم المجال

الحضري وتصنيف الطرق وتوجيه التيارات داخل المدينة بالإضافة إلى قيمتها الروحية والجمالية، فإعادة بناء مسجد ابن يوسف وبناء مدرسته وملحقاتها أعطى قيمة للأحياء المرابطية القديمة المحيطة به : مثل قاعة بن ناهيض وبن صالح وأسول وحارة الصورة ... فعرفت رواجا تجاريا وصناعيا وثقافيا كبيرا كما أن مسجد المواسين أعطى قيمة لحي القصور المجاور الذي صار من الأحياء الارستقراطية وساعد مسجد باب دكالة على دمج غرب المدينة أي باب دكالة والكتبية وغيرها. وكان منطلق حركة عمرانية امتدت إلى سيدي بوعمرو وروض العروس. أما مسجد سيدي بلعباس وقبة ضريحه الذي بني في آخر العهد السعدي فقد كرس مجموعته السكنية كضاحية دينية عرفت فيما بعد باسم الزاوية. أما مسجد بن صالح فقد صار ملتقى طرق قادمة من باب ايلان وباب اغمات استقطب سكانا نشيطين في الحرف معظمهم من المهاجرين الريفيين الذين كونوا أحياء شعبية، كما أن ضريح سيدي يوسف بن علي اجتذب سكن عدد من الناس الذين يستفيدون من الرواج التجاري لباب اغمات وبالإضافة إلى حي المجذومين : الحارة بباب دكالة نرى أنه وجدت ثلاثة أحياء خارج الأسوار بالإضافة إلى إقامات ثانوية ببعض البساتين أهمها الإقامة الملكية ببستان المنارة. وهناك غموض يحيط بوضعية الأحياء المحيطة بضريح سيدي سليمان الجزولي إذ يبدو أنه همش من طرف نفوذ الزوايا رغم التقدير الكبير الذي كان يلقاه لدى السكان.

ب - الأحياء التجارية والصناعية

1- مركب مركزي *للتجارة والحرف*

ينتشر جنوب مسجد بن يوسف مركب للأسواق الحضرية فوق مساحة 20 هـ يتوسطه سوق القيصرية، وتتكون الأسواق غالبا من أزقة بها دكاكين متخصصة في مصنوع أو تجارة معينة، وغالبا ما يقوم التخصص على أساس عائلي أو قبلي حيث أن كل حرفة أو نشاط ينتشر بين جماعة إقليمية خاصة يقصدها المهاجرون الجدد. ولكل بضاعة سوقها أو زقاقها الخاص بها، وكان سوق القيصرية هو أكبر وأهم سوق من حيث المساحة والمحتوى : فهو سوق البضاعة النبيلة (أثواب، ملابس، حلي، ألخ) وقد احتفظ المغرب بهذا الاسم من أيام الرومان، حيث كان يطلق على أهم سوق بالمدينة

السوق القيصري Forum caesarium وهو يلبي طلب أغنياء المدينة وفئاتها الشعبية وسكان الأرياف بقسم واسع من جنوب المغرب. ويليه سوق المصنوعات الجلدية يتمثل في سوق الجلود الخام والمدبوغة وأسواق البلغة والشكارة والأحزمة والسروج واللجام. وكانت الأنشطة والمصنوعات الأخرى التي تلبي الحاجيات المنزلية من خشب وحديد وأغطية وبسط ودوم وفخار وخياطة وصباغة... تحتل حيزا أقل وتنتشر غالبا بالهوامش يبرز من بينها خاصة سوق الحدادين المعروف بالسمارين الموجود بالمدخل الجنوبي للمركب. ويتخلل هذه الأسواق بعض الفنادق الصغرى للعمل وسكن الصناع وأسواق صغيرة للأطعمة كالطالعة. وكانت كل الأنشطة تتم على أساس فردي داخل دكان صغير يجمع غالبا بين عمليتي الإنتاج والبيع به معلم وبضعة صناع من الأطفال واليافعين ترجع ملكيتها إلى الأحباس أحيانا.

2 - *أنشطة الهوامش*

ينتشر بهوامش هذ ا المركب المنشآت الكبرى لتجارة الجملة والمنتوجات الريفية الكبيرة الحجم التي تتطلب مساحات كبيرة تتمثل خاصة في الفنادق، وهي تتكون عادة من طابقين وحصن واسع تشغله الدواب، أو يعقد فوقه عرض تجاري أو بيع بالمزاد العلني، وتحيط به غرف مخزن أو دكان تجارة ويتخصص كل فندق في بضاعة خاصة كالصوف أو الجلد أو التمور أو فواكه جافة أو الزيت ... وتتجمع هذه الفنادق في منتصف بعض المحاور الرئيسية التي تربط بين أحد الأبواب المهمة ومركز المدينة ومن أهمها الموقف الذي ظهر به زقاق يعرف ببين الفنادق على أنه بدأ يظهر في نهاية عهد السعديين أهمية متزايدة لسوق الساحة الكبرى التي بدأت تظهر معالمها وإن لم تتخذ بعد إسمها الحالي جامع الفناء. فبعد أن كانت سوقا لمختلف المنتوجات الريفية الكبيرة الحجم : خشب، حطب، قصب، علف .ومكان لتنفيذ الأحكام وتعليق الرؤوس بدأت تجتذب أنشطة أخرى وتكون معرضا لمختلف البضائع الجديدة والمستعملة وبنيت حولها الفنادق بباب فتوح وفحل الزفريتي ومذخلي درب ضباشي والقصور كما وجد بها الديوانة وهي فندق خاص بالتجار الأجانب يقيمون به لمراقبتهم وإحصاء بضاعتهم وإلى جانب هذا المركز الاقتصادي الذي له أهمية تتجاوز نطاق المدينة أو

الإقليم، نجد محلات أنشطة أخرى موجهة لخدمة سكان المدينة تنتشر بالأحياء السكنية كالبقالة والأفرنة والخياطة والتجارة ... وهناك نمط ثالث من المراكز الإقتصادية هي الأسواق الأسبوعية التي تكون معرضا تجاريا حضريا وريفيا عند أبواب المدينة، أما خارج الأسوار أو داخلها مثل سوقي باب الخميس : أحدهما يعقد بداخل السور، والآخر خارجه خاص بتجارة المواشي والدواب. وقد كان لهذا السوق أهمية كبرى في تزويد المدينة بالمنتوجات الريفية خاصة مواشي اللحوم. كما كان يعقد خارج باب دكالة سوق أسبوعي آخر يوم الثلاثاء خاص بتجارة الحبوب التي ترد خاصة من دكالة والسهول الساحلية. وقد ذكر مارمول أنه كان يعقد بمكان جامع الفنا الحالي سوق أسبوعي يوم الخميس لبيع المواشي والحبوب.

ويلاحظ أن مركز الثقل التجاري والإقتصادي للمدينة أخذ ينتقل تدريجيا من الشمال نحو الجنوب بتزايد السكان والعمران. فبعد أن استقر قرونا بجوانب مسجد ابن يوسف الذي ضاقت ارجاؤه تزحزح جنوبا نحو الرحبة القديمة التي كانت أصلا سوقا للحبوب وبعد إحاطتها بعدد كبير من الأسواق التي ضيقت عليها الخناق، تزحزح المركز نحو ساحة جامع الفناء التي بدأت تتضح مركزية موقعها بين قطبي المدينة : القصر الملكي بالقصبة والمسجد الجامع ابن يوسف وإحاطتها بأحياء جديدة كرياض الزيتون ودرب ضباشي أو متجددة كالقصور والكتبية.

ب - الأحياء السكنية

1 - مساحة سكنية محدودة

بنيت المدينة فوق سهل مستو يميل بدرجة خفيفة 1 % نحو الشمال أي في اتجاه وادي تانسيفت. باستثناء الجهة الشرقية حيث يجري واد ايسيل فإنه لم تكن هناك عقبة طبيعية تفرض على تصميم المدينة تكيفا خاصا كما يلاحظ بالنسبة لفاس مثلا فقد كانت الطرق والأحياء تتوسع حسب متطلبات السكان وأهوائهم بلغت مساحتها 650 هـ لكن المباني لم تشغل سوى مساحة تنحصر بين $\frac{3}{5}$ إلى $\frac{2}{3}$ المساحة الكلية رغم ظهور أحياء جديدة وتوسع أحياء قديمة في العهد الذهبي للسعديين فقد كان بأطراف

المدينة مساحات كبيرة غير مبنية، وجل المساحات الواقعة جنوب خط يمر من باب ايلان إلى باب الرخاء La poterne تشغلها بساتين وبعض القصور. وكان مسجد ابن يوسف بمثابة قلب المدينة يكون قطبا شعبيا يجتذب الأنشطة والسكان امتدت الأسواق والأحياء في الاتجاه الجنوبي الغربي نحو القصر المرابطي بالكتبية لكن نقل المركز الإداري إلى القصبة من طرف الموحدين أوجد قطبا آخر بمسجده الكبير وقصوره وأحيائه وأسواقه وبين هذين القطبين الديني الشعبي من جهة والملكي الإداري من جهة أخرى انتشرت أحياء متباينة على أسس اجتماعية وعرقية وإقليمية غالبا فلليهود حيهم الخاص وكان للسود كذلك أحياؤهم حول القصر الملكي بالقصبة وباب احمر فقد انطبعت الأحياء بطابع قبلي منذ نشأة المدينة حيث تحولت مخيمات ومعسكر كل قبيلة إلى حي. وهذا ما أعطى للكثير من الأحياء أسماء قبلية لازالت ماثلة إلى اليوم درب اشتوكة، عرسة أوزال ودرب تودغة ... وتقوم أحياء المهاجرين عند الأبواب حيث تنتشر مساكنها في غير انتظام بين الفنادق والأسواق، كما ظهرت انويتها خارج الأسوار وتتميز الأحياء الشعبية بتكدس سكاني بينما تبقى أجزاء واسعة من المدينة فارغة أو تشغلها بساتين مما يدل على صعوبة إقامة البناءات الجديدة.

2 - *السكن*

يعتبر السكن من أهم عناصر التصميم الحضري فزيادة على منظره الذي يعكس الذوق والثقافة السائدة فإن توزيعه وكثافته تمثل الكثافة السكانية، وتعكس هندسته وحجمه ومواد بنائه المستوى التقني والتكيف مع الظروف الطبيعية والاقتصادية والتراتب الطبقي الاجتماعي. لقد كان المنزل على نمط الدرب منغلقا لايرتبط بالعالم الخارجي سوى بباب واحد إذ تفتح النوافذ والغرف على ساحة وسطى مربعة غالبا بها أربعة أحواض أو حوض كبير به شجيرات وهذا التصميم أقرب ما يكون إلى تصميم الفيلا الرومانية، يوجد البئر والمطبخ في زاوية والمرحاض في الزاوية المقابلة قرب باب المنزل غالبا. ومهما كانت المسافة بينهما فإن البئر لابد وأن يتلوث بالمياه القذرة المتسربة، مما يدعو إلى ضرورة توفر كل حي على سقاية عمومية للماء الشروب، كانت مساكن عامة الناس مبنية بالتراب المدكوك (تابية) غالبا ما يؤخذ التراب من

مكانها نفسه مما يجعل مستوى ساحتها منخفضا بنصف متر من مستوى الدرب. وقد يخلط التراب مع نسبة من الجير كما تبنى بعض المنازل-بطوب طيني مخلوط بالقش غير مشوي إلا أن هذا كان نادرا. لكن القصور والدور العالية يدخل في بنائها الآجر والحجارة. وتطلى عادة جدران الغرف الداخلية بالجير أو الجبص أما الجدران الخارجية فإنها تبقى دون طلاء محافظة على لونها الترابي البني الذي لايختلف عن جدران القرى مما يعطي للأحياء السكنية منظرا ريفيا، وجل المنازل تتكون من طابق واحد لأن الجدران الترابية والسقوف المكونة من القصب واعمدة خشب الصفصاف أو السرو أو جذوع النخل غالبا لاتصمد لثقل كبير فوقها، ويضم المنزل عائلة أبوية يتعايش بها أجيال، وغالبا ما تقيم كل أسرة زواجية في غرفة واحدة تشترك مع غيرها في بقية المصالح : المطبخ والبئر والباحة وأحيانا قاعة لاستقبال الضيوف. وكثيرا ما تبنى منازل كبيرة من طرف الشخصيات البارزة تدفعهم نظرتهم الضيقة إلى الضرب بعرض الحائط بكل مقومات التخطيط الحضري فيغلقون أزقة بأبنيتهم الجديدة أو يضيقونها كثيرا أو يسقفون الأزقة لبناء غرف فوقها مما يؤدي إلى الإضرار بالطرق وحركة السير والمنظر الحضري.

3 - *تراتب الأحياء وتوزيعها*

لم تكن لجل الأحياء شخصية تاريخية تتميز ببنية اجتماعية ناضجة وحدود حضرية بارزة، فقد كانت تعرف من خلال أزقتها الضيقة المغلقة : الدرب ومعظم سكانها متقاربون من حيث المستوى المعيشي والمهني، فهم غالبا مهاجرون قدامى أو جدد من نفس الإقليم أو يعملون بنفس المهنة، وإن لم تبتر الأحداث التاريخية العتيقة مسار الحياة العادية فإنه يحقق اندماجا ويكتسب شخصية وروحا تحرك السكان بتضامن لمواجهة الأحداث. ومن الصعب تحديد عدد الأحياء بمراكش في عهد السعديين لعدم ضبط الأسماء وحدود الأحياء ولكن يمكن تقدير عددها بحوالي 20 إلى 25 حيا. وتتكون الأحياء الكبيرة مثل درب ضباشي من عدة دروب لكل منها تجهيزاته الخاصة : فران، سقاية، كتاب، دكاكين... وقد يعيش سكان كل درب حياتهم اليومية بمعزل عن بقية الدروب لايلتقون بغيرهم سوى في المناسبات كصلاة الجمعة في المسجد الكبير

أو الذهاب إلى الأسواق الكبرى للحبوب والملابس.

وهناك تشابه عام بين مختلف الأحياء في تصميم طرقها وتجهيزاتها ولاتتمايز سوى من حيث ثروات سكانها المرتبطة بأنشطتهم وبأصول سكانها. ويلاحظ أن الأحياء الشعبية كانت لها الغلبة العددية ذلك أن مراكش كانت دائما مدينة شعبية (ولم تكن بورجوازية كفاس) فالفروق الاجتماعية بين سكانها ضئيلة نسبيا بسبب تخلي الأسر الحاكمة والغنية عنها واستقبالها لسيل لاينقطع من المهاجرين الريفيين.

وتتواجد الأحياء الحضرية القديمة حول جامع ابن يوسف : مثل بناهيض وحارة الصورة وأزبزط أسول ... أما أحياء الفئات الغنية فقد كانت تتواجد بغرب المدينة حول مسجد المواسين والقصور وإلى شمال القصبة : رياض الزيتون أي القرب من القصور الملكية القديمة بالكتبية والجديدة بالقصبة. وتتميز بقلة سكانها لكبر مساحة منازلها المكونة غالبا من طابقين وصمت أزقتها المظلمة لكثرة ما بها من مقاطع مسقوفة (ساباط) مما يقوي الانطباع بالتحفظ والسرية العائلية، وهي أحياء سكنية محضة لاتوجد بها محلات مهنية، وتحظى بعدد من المنشآت العمومية : سقاية، مسجد، حمام، مرحاض عمومي. ويوجد بالجهة الغربية للمدينة كذلك عدد من البساتين التي تحتضن إقامات لشخصيات بارزة لازالت ماثلة إلى اليوم تحت أسماء قديمة وحديثة : عرسة مولاي عبد السلام، المامونية، عرسة مولاي مصطفى، عرسة الحامض، عرسة الكتبية ... ذلك أن الجهة الغربية من المدينة كانت أفضل موقعا وأعدل مناخا، تتلقى هي الأولى الرياح الغربية الملطفة للحرارة والمنظفة للجو.

أما الأحياء الحرفية فقد كانت متباينة من حيث موقعها وأهميتها فهناك قطاعات قوية التخصص بحي الذباغين الممتد على مساحة 40 هـ قرب الأسوار الشرقية ينفصل عن بقية الأحياء بسلسلة من البساتين الصغيرة : عرسة البردعي، جنان بن شكرا، عرسة مولاي بوعزة، عرسة المسفيوي، تتصرف بمساحات واسعة لتجفيف الجلود داخل الأسوار أو خارجها، ومكنه ميل الأرض نحو واد ايسيل من بناء شبكة تصريف محلية لصرف المياه القذرة نحو مجرى واد ايسيل هي الوحيدة من نوعها بمراكش آنذاك ويوجد شماله حي الفخارين بأفرنته الكثيرة وقد كون رمادها أكمة عالية هي كدية

تابحيرت كما تكون عند باب الخميس وباب دكالة عدة تلال من الرماد الذي تخلف من مختلف المنشآت المستعملة لنار الحطب كالحمامات والأفرنة والرماد المنزلي المخلوط بالأتربة والأزبال، كما ينتشر بهذا الجزء الشرقي أنوية حرفية أخرى لصناعة النسيج والحصر والقنب والدوم والزرابي. وقد انتشرت الحرف والمشاغل منذ أيام المرابطين وتعززت أيام المرينيين عندما فقدت المدينة دورها السياسي واضطرت للعيش من عمل أبنائها ويمتد هذا الحزام من باب ايلان إلى باب الخميس (باب فاس) يتوسطه ساحة الموقف التي كانت محطة وصول القوافل وسوقا للشغل يتم فيها التعاقد بين المشغلين وطالبي الشغل المنتظرين بجنباتها، لقد أثبت الزمن موافقة هذا الموقع لهذه الأنشطة فقد كانت الرياح الغربية والشمالية الغربية السائدة تدفع خارج الأسوار الأدخنة والروائح منطقة الجو كما أن القرب من أبواب الأسوار يسهل تزويدها بموادها الخام : حطب، جلود، طين، خشب وغيرها، ويوفر لها مجالا للتوسع خارج الأسوار لنشر الجلود والصوف وسحب خيوط القنب.

وكانت الحرف الأخرى موزعة بشكل نقطي (انوية صغيرة بالمدينة بعضها مجتمع في أسواق صغيرة : كسوق القصابين أو الغسول، الدوم. والصوف والآخر موزع بين المنازل السكنية والأحياء الشرقية، وتوجد المشاغل عادة اما بغرف بالطابق السفلي أو بدكاكين. ويعرف بعض الفنادق التي تشبه في تصميميها فنادق التجارة وهي مخصصة كليا لنشاط حرفة معينة وإقامة صناعها العزاب غالبا. وكان اقتصاد المدينة يعتمد أساسا على هذه الأنشطة الصناعية والتجارية خاصة عندما تفقد وظيفتها السياسية. وتتميز الأحياء الشعبية بالجهة الشرقية بصغر منازلها وقصر جدرانها وسعة أزقتها التي تكون مشمسة كثيرة الحركة تتو الى فيها الدور السكنية والمحلات المهنية، يرتبط سكانها بعلاقات تضامنية قوية. لكن هذا التطبيق لم يكن دائما واضحا إذ تقضي عليه أحيانا عوامل سياسية وعصبية تدفع إلى تصنيف قبلي وجهوي.

ج - البساتين داخل المدينة

لم تعرف المدينة خلال تاريخها الطويل بناء كل مساحتها الداخلية إذ لم يبن منها في أفضل الحالات في العصر الذهبي للموحدين والسعديين سوى $\frac{3}{5}$ إلى $\frac{2}{3}$ على الأكثر فإلى جانب المساحات الكبيرة التي تشغلها المقابر والساحات توجد بساتين كبيرة وصغيرة عمومية وخاصة، فهناك حدائق ملكية وأميرية للنخبة السياسية لازالت أسماؤها تدل على ذلك إلى اليوم : حدائق القصور الملكية بالقصبة، حديقة مولاي عبد السلام، مولاي مصطفى عرسة بن ادريس، وعرسات بعض الحضريين القدامى مثل عرسة قشيش، رياض التلمساني، عرسة الملاك، عرسة البردعي، عرسة ايهيري، عرسة المسفيوي، عرسة مولاي بوعزة ناهيك عن العراسي التي تحولت إلى أحياء منذ قرون مثل عرسة اوزال ورياض العروس ... وتنتشر هذه البساتين بصفة عامة بين مركز المدينة والأسوار وتتركز بصفة خاصة بالجهة الغربية والجنوبية تدعمها بساتين أخرى كبرى خارج الأسوار مثل أكدال وبستان المسرة والمنارة والسملالية.

وكانت كل هذه البساتين تصلها سواقي من خطارات وبها صهاريج تمارس فيها زراعة الخضر والحبوب تحت ظلال أشجار الزيتون والمشمش والحامض والدالية والنخيل وغيرها، مما يدعم معالم المنظر الريفي للمدينة وكانت مساحة هذه البساتين تتسع وتتقلص حسب الأوضاع السياسية والاقتصادية والحركة الديمغرافية، فكثير من الأحياء حلت محل العراسي في وقت الرخاء والتوسع العمراني وأحياء أخرى تحولت إلى أنقاض وحل محلها بساتين خاصة بالجزء الغربي من المدينة : حدائق الكتبية ومقبرتها وأجزاء من العراسي الكبرى عرسة مولاي عبد السلام والمامونية وسيدي غريب والجنان الاخضر التي انتشرت فوق الأحياء المرابطية الأولى.

وعندما تفقد المدينة نفوذها السياسي على ضاحيتها كما حدث في أواخر أيام السعديين فإن الكثير من السواقي المزودة لبساتينها تجف بفعل التخريب المقصود أو عدم انتظام الصيانة فتتحول بعض البساتين إلى أراضي جرداء.

هذه هي معالم الصورة العامة لمراكش في عهد السعديين وهي قريبة الشبه بما وجدت عليه المدينة في مطلع القرن 20 بإضافة بعض الأحياء التي ظهرت في عهد العلويين. فهي مدينة حمراء بجدرانها الترابية وخضراء ببساتينها وحارة بشمسها وحيوية سكانها. تتجاور فيها القصور المبلطة بالرخام والفسيفساء والزليج والجبص المنقوش ومنازل الأغنياء العالية ومنازل العامة البسيطة المنخفضة وأسواق حرفية وتجارية عديدة. استطاعت رغم كل ما تتعرض له من نكبات تجديد حيويتها وتلبية حاجيات سكانها من الحضريين القدامى والمهاجرين الجدد الذين يلتجئون إليها باستمرار سواء في عهود الرخاء لتلبية حاجتها إلى اليد العاملة ويأتون غالبا فرادى أو في خضم الأزمات والنكبات لملء الفراغ الحاصل بين جدرانها وتجديد ديمغرافية وحيوية سكانها، وغالبا ما يأتون عندئذ جماعات أو ملتجئة أو فارة من بؤس الأرياف عندما تتعرض للمجاعات وانعدام الأمن، توفر وسطا خصبا للتحضر والتسلق الاجتماعي والابداع الفكري والمهني وجمع الثروات لما توفره بيئتها من مرونة اجتماعية وحرية شخصية.

ورغم انعدام تصميم حضري وهيئة قوية لإدارة شؤونها وضعف التدخلات القطاعية لإصلاح أحوالها، فقد استطاع سكانها بفعل التجربة والخطأ والحاجة الماسة خلق وسط حضري غني بالإبتكارات العمرانية مما أنتج نموذجا لمدينة مغربية إسلامية ذات شخصية إفريقية خاصة ساهمت في إغناء التراث الحضري المغربي بابتكارات تقنية في بناء القبب والأقواس والسقوف وجلب المياه وإنشاء البساتين والرياض ... تتمحور حول قطبين هما المسجد المركزي وأسواقه التي تتميز بالدوام وعدم الانقطاع، والقصر الملكي الذي يبزغ نجمه بسرعة وقوة ثم لايلبث أن يخبو مخلفا ثغرة كبيرة تعمل المدينة على سدها، مستغلة أحسن استغلال موضعها المنبسط الغني بالمياه والدفء وموقعها الأستراتيجي الممتاز في ملتقى طرق بين أقاليم طبيعية وبشرية متباينة، موفرة منشآتها العديدة لخدمتها وأسواقا للتبادل والتكامل بين اقتصاد السهول والجبال والسواحل والصحراء وشمال وجنوب المغرب.

أهم المراجع

1 - بن الشرقي حصري أحمد : ارتسامات ومعطيات تاريخية حول مدينة مراكش . الجزء الأول - الجزء الثاني . المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش 1986.

2 - حسن الوزان : وصف افريقيا . الشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط 1982.

3 - المجذوبي عبد العزيز : من مسائل التعمر واستعمال المجال في العهدين المرابطي والموحدي : ندوة ملتقى مراكش كلية الآداب جامعة القاضي عياض - مراكش 1988.

4 - الناصري أحمد : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . دار الكتاب الدار البيضاء 1956.

5 - محمد مزين : فاس وباديتها (1549 - 1637) الجزء الأول - الجزء الثاني . منشورات كلية الآداب الرباط 1986.

6 - مطبوعات سياحية متنوعة حول مراكش.

الحضارة المراكشية
على عهد بني مرين

ذ - الشرقي حصري أحمد

هم بطن من بطون زناتة يقطنون بالفضاء الواسع بشرق المغرب الشمالي ما بين الزاب الخارجي وأحواز تلمسان إلى تافيلالت وهم بدو ينتقلون من منطقة إلى أخرى بحثا عن الكلأ والماء قوتهم اللحم واللبن.

كان بنو مرين في صفوف الجيش الموحدي. وكانوا على علم بما آلت إليه الأحوال السياسية والاجتماعية بالمغرب فآنسوا من نفسهم القيام بأمر المغرب وتولي مكانة الموحدين في التسيير السياسي وكانت لهم العصبية المكونة منهم وبني عمومتهم بنو عبد الوادي وبنو وطاس، وبنو يابان إلى آخره، ولم تكن هذه العصبية موحدة الأهداف كما كانت ستبقى قبل المرابطين وفشلت بنو مرين في ضم تلك البطون الأخرى إليها فكانت دويلات إحداها بأغمات وأخرى بسبتة وإمارات أخرى أعلنت عن نفسها فيما سبق بأسماء مختلفة. وقد قضى بنو مرين في حرب بني عمومتهم بتلمسان معظم أيامهم اذ يعتبر ذلك تناقض في الموافق فقد رأى المؤرخون أنهم امضوا اتفاقا مع أبو دبوس الموحدي يقضي بتقسيم المغرب إلى شطرين ثم من جهة أخرى تقدموا إلى ما وراء البحر الإسبان بالجزيرة واحتلال بقع أخرى ثم ان أبو الحسن قرر توحيد المغرب الكبير كما كان أيام الموحدي فذهب إلى تونس فهزم هزيمة شنعاء شجعت ابنه أبو عنان على القيام ضد أبيه وإعلان نفسه ملكا على المغرب وأبوه لازال حيا معارفا به.

والضحية الكبرى هي مدينة مراكش فقد أهملت سياسيا ولم تعلم ما كان مصير الاتفاقية التي أبرمت ما بين الطرفين المريني والموحدي غير أن الإهمال السياسي لم يقض على الحركة الثقافية بمراكش وناحيتها فابن البنا كان من أبرز الوجوه الثقافية بمراكش والهزميري باغمات جعل من زاويته معهدا علميا. وبجبال الأطلس بسكساوة

وبهسكورة وجدت حركة علمية قامت بها السلطة المحلية هناك حيث المركز الأمغاري وبحاحا أيضا وقد برز من بين المثقفين في هذا العصر ابن البنا وأبو زيد الهزميري وابن السكاك وابن خلدون وابن تاروميت وابن عبد الواحد المراكشي وعبد الواحد وابنه عبد الله بسكساوة.

الحياة الاقتصادية

كان اقتصاد المغرب يعتمد على المطر الذي لم يكن مضبوطا فإذا لم ينزل المطر فالمجاعة والاختلال والهجرة ومن ثم نرى قبائل الجنوب يأتي البعض منها إلى الشمال للتمتع بما بقي فيه من كلأ وماء وقد أبرم أبو الحسن اتفاقية مع ميورقة وأبو عنان مع جنوة وصقلية والمدن الايطالية للتجارة الخارجية التي هي عماد الاقتصاد والسيولة.

تأثر الجنوب أكثر من خلو سلطة زمنية موحدة يلتف المواطنون حولها لتحرير المناطق المستعمرة، فاتجه أهل كل منطقة إلى أولياء الزوايا يدعونهم إلى التحرك وفرض سلطاتهم الروحية المؤثرة على من حولهم من القبائل لنبذ الخرافات المبيرة والالتحام تحت راية الجهاد بقيادة المشايخ المتصوفة.

برزت إلى الوجود في القرن العاشر الهجري الطريقة الجزولية المنتمية إلى الشاذلية المنسوبة إلى محمد بن سليمان الجزولي مؤلف كتاب دلائل الخيرات، فتفرغت عن هذه الطريقة معظم الطوائف الدينية بالمغرب، وعنها انبثقت العقيدة الترسيخية لتفضيل أهل البيت على سواهم، وتأهيلهم للأولوية والبرور وتقديم الخدمات لهم في مسار الحياة اليومية ومنها بطبيعة الحال خصوصية التحلي بالإمامة الدينية والزمنية، وتغلغلت هذه النزعة الشريفية في نفوس الناس، فصاروا يتوجهون إلى من ينسب إلى الشرف يطلبون البركة لحل الأزمات الفردية و الجماعية، ودفع الكوارث، والإنقاذ من المصائب، والوساطة في الغفران، والفصل في النزاعات وهكذا حصرت العقل الإنساني ضمن أضيق نطاق ممكن، جاعلة منه أداة التطهير المستسلمة دون مقاومة، ومستعبدة اياه للقواعد والاعراف التقليدية، ومجردة إياه من الإجلال كله ومن

الطاقة الحيوية التاريخية كلها.

بداية الدولة السعدية

وخلال تلك الموجات الفوضوية السياسية - الطوائفية التي عاشها المغرب أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر شق السعديون طريقهم نحو الانفراد بالسلطة مستعينين برضى رؤساء الزوايا بالجنوب ومقدمين بين أيديهم التلمذة والانتماء الشريفي، والنية الحسنة في قيادة الجهاد ضد الكافر المحتل. نالوا ثقة الزاويتين الرئيسيتين باقا، وأفوغال، فاجتمعت حولهم الجموع المهيأة نفسانيا الناقمة على الاحتلال البرتغالي.

توجهت الحملة الأولى التي قادها القائم بأمر الله بزحزحة المحتلين عن قرية تافطنا على الشاطىء الأطلسي بحاجة، فكان هذا الانتصار منطلقا لتركيز النفوذ، تصاعد منقبة الزعامة السعدية.

انضمت إلى القيادة الجهادية قبائل سوس التي أفرزت جيش أهل سوس التي استمرت هيكلته وتنظيماته بمساعدة عسكرية وإدارية للدولة حتى عصر الحماية.

انتقل المركز الرئيسي للحركة من تيديسي بأحواز تارودانت إلى أفوكال بحاجة لترسيخ دعم الزاوية الجزولية وتجنب منافستها. استقر القائم بأمر الله وطاب له المقام بها إلى أن توفى بعد أن عهد بالأمر إلى ابنه الأكبر أبي العباس الأعرج.

تخطت الحركة الزعامة الدينية الجهادية إلى السلطة الزمنية، فأصبح الأعرج سلطانا يمسك بيديه السلطتين تخول له الزحف نحو الشمال ليحتل مدينة مراكش العاصمة العتيقة ذات المجد التاريخي ومهد العراقة في العاصموية ليؤثل من احتلالها سلطته ومناعته ويشعر البرتغاليين وحكام الشمال بأنه أصبح يجسد نظاما شرعيا ودولة قائمة بكل اختصاصتها.

لبث أخوه محمد الشيخ بسوس يصارع الاحتلال الأجنبي، ويجتث رواسبه إلى أن قضى على وجوده بالمنطقة السوسية، فأحرز بتلك الانتصارات زعامة شخصية يعز عليه أن يتنازل عنها لأخيه الأكبر.

العلاقات المغربية الإسبانية
إثر اختطاف خزانة السعديين المراكشية

الأستاذ أحمد شوقي بنبين
كلية الآداب
الرباط

الحديث عن العلاقات المغربية الإسبانية إثر الاستيلاء على الخزانة السعدية في عرض البحر في بداية القرن السادس عشر يدعو إلى الحديث عن هذه العلاقات منذ سقوط غرناطة آخر معقل عربي بالأندلس في أواخر القرن الخامس عشر إلى الاستيلاء على خزانة زيدان السعدي عام 1612 م. وإن ما قام به المسيحيون أثناء هذه الفترة اتجاه المسلمين وتراثهم لم ينحصر فقط في إطار العلاقات بين إسبانيا والمغرب بل كان صراعا بين المسيحية والإسلام، فباسم النصرانية في سبيل استئصال المسلمين والقضاء على حضارتهم وثقافتهم قرر المسيحيون بعد سقوط غرناطة بسنوات معدودات القضاء على ما تبقى من آثار العرب فأقيم حفل ديني في مدينة طليطلة عام 1499 بأمر من مطرانها تم خلاله إحراق مآت الآلاف من المخطوطات جمعوها من غرناطة وارباضها وباقي القواعد الأندلسية لم يستثن منها حسب معظم الروايات إلا ثلاثمائة من كتب الطب وهب بعضها لجامعة القلعة وأودع البعض الآخر في أروقة قصر الاسكوريال وفي بعض المكتبات العامة. وبعد قرن من الزمان عاش فيه المسلمون أو المورسكيون في ظل العبودية ولقوا خلاله مالقوا من ألوان التنكيل والعذاب قررت الدولة الإسبانية بإيعاز من الكنيسة نفيهم نهائيا من الأندلس لأنها كانت تعتبرهم خطرا على الدولة وعلى المسيحية كذلك.[1] ولم يكن هذا الحدث ليزيد في توتر

---

[1] تم هذا على يد الملك فيليب الثالث عام 1609 م.

العلاقات بين اسبانيا والمغرب فقط بل إسبانيا والعالم الإسلامي بأكمله. وبعد ثلاث سنوات من هذا الحادث امتدت أيادي القراصنة الإسبانية إلى خزانة زيدان السعدي في عرض البحر فازدادت العلاقات سوءا بين البلدين ودعا الأمر إلى تدخل عدد من الدول لإصلاح ذات البين الإسبان والمغاربة لكن إسبانيا رفضت كل هذه الوساطات واحتفظت بالخزانة. وسنعرض بإيجاز إلى الظروف التي تم فيها الإستيلاء على خزانة زيدان كما سنشير إلى هذا الحدث في العلاقات الإسبانية المغربية. لسنا بحاجة إلى وصف الحالة السياسية التي كان عليها المغرب في بداية القرن السادس عشر من صراع على الحكم بين الأمراء السعديين فيما بينهم من جهة وبين بعض المتطلعين إلى الحكم من المغاربة من جهة أخرى. ففي هذا المناخ وفي ظل هذا الصراع انتقلت هذه الكنوز من المغرب إلي إسبانيا. فلولا حملة أبيه واسيتلاؤه على مراكش وفرار زيدان منها إلى أكادير، ولولا إلتجاء أخيه المامون إلى الإسبان و تسليم العرائش لهم وانتشار أسطولهم في عرض المحيط الأطلسي لما وقع ولبقيت خزانة زيدان بقصر البديع بمراكش عوض إيداعها أقبية الاسكوريال. ففي سنة 1611 م عينت فرنسا قنصلا لها بالمغرب يدعى J. Philippe de Castellane وكان هذا الدبلوماسي يعرف منطقة المغرب العربي بحيث كان قد أوفده هنري الرابع ملك فرنسا عام 1603 إلى الجزائر ليفاوض إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين وأثناء مقامه بالمغرب ولكفائته الدبلوماسية التي كان يتمتع بها وباعتبار الظروف السياسية التي يعيشها المغرب أنداك استطاع دوكستلان de Castellane أن يتجاوز مهمته الأساسية كقنصل ليقنع زيدان السعدي للتوقيع على معاهدة مهمة بين المغرب وفرنسا على غرار المعاهدة الموقعة بين فرنسا والدولة العثمانية قدم نسخة منها إلى السلطان السعدي. وبموجب هذه المعاهدة يمكن للمغاربة أن يمارسوا التجارة في فرنسا بحيث يمكنهم أن يتاجروا في كل شيء بما في ذلك الأسلحة كما يمكن للفرنسيين أن يتاجروا في المغرب وأن يقيموا به، وتسمح المعاهدة للسلطان المغربي أن يجعل في خدمته ومساعدته الرعايا الفرنسيين المقيمين في مملكته. وعلى إثر هذه المعاهدة أرسل زيدان الفرنسي لويس 13 LOUIS XIII هدية وأطلق سراح الفرنسيين الاسرى بالمغرب. ولما ثار أبو محلى على إثر تسليم العرائش للدولة الإسبانية واستولى على سجلماسة ودرعة ووصل إلى جبال الأطلس المحيط بمراكش احشر زيدان

بالفزع وفقد الأمن فعزم على مغادرة مراكش في اتجاه أكادير عن طريق اسفي مستنجدا بيحيى عبد الله الحاجي ليساعده على استرجاع قاعدة ملكه [2] ولما حل باسفي وجد سفينة القنصل الفرنسي JIPH de Castellan التي تسمى Notre dame de la grade تتهيأ للإقلاع في اتجاه مرسيليا بفرنسا تحمل من بين ما تحمل الفرسين اللذين أهداهما زيدان لملك فرنسا، وبموجب المعاهدة المغربية الفرنسية الموقعة أخيرا طلب من القنصل الفرنسي أن يحمل في سفينة كل أمتعته التي فر بها من بينها التاج والصولجان وخزانة الكتب مقابل ثلاثة ألف مثقال ذهبي 3000 ducats واستأجر سفينة ثانية هولاندية لنفسه وخدمه وحشمه وبعض من بقي معه من الجند المخلصين. وبعد وصول السفينتين معا إلى ميناء أكادير رفض ducastellane إفراغ مركبه قبل أداء الثلاثة الاف مثقال المتفق عليها. وبعد قضاء ستة أيام في انتظار الأداء في de Castellane دوكستلان من ميناء أكادير صبيحة 22 جوان عام 1612 في اتجاه مرسيليا حاملا المكتبة وباقي أمتعة الملك بقصد تسليمها لحاكمها Duc de Guise وفي الخامس من شهر يوليوز دفعت الرياح مركب de Castellane في اتجاه سلا فاعترضته أربع سفن إسبانية من أسطول الجينرال فياردوا Fajardo برءاسة دون ضوان دولار Don Juan de Para واستولت عليه بسهولة ثم قادته إلى إسبانيا [3].

اختطاف هذه الخزانة المهمة ادخل ست دول كبرى في نقاش مرير إن لم أقل في صراع مستمر عقودا من السنين، على الرغم من وساطة وتدخل هذه الدول لم تستجب إسبانيا لمطالبة المغرب باسترجاع الخزانة. وكانت فرنسا أول دولة فتح المغرب الحوار معها باعتبار المركب وصاحبه وربانه فرنسيين ففي صبيحة 23 يونيو 1612 وبمجرد ما علم زيدان بفرار دوكستلان de Castellane في اتجاه فرنسا أقسم على نفسه أن يضع في السجن كل الفرنسيين المقيمين بالمغرب مرغما فرنسا على إعادة المركب إلى أكادير بمجرد حلوله بإحدى الموانىء الفرنسية ولم يعلم زيدان حتى الآن باختطاف المركب من

[2] ولم يلبث ابن عبد الله الحاجي أن توجه إلى مراكش على رأس جند من الشبانات وهشتركة وقتل أي محلي وفتح مراكش وتنازل بعد ذلك عليها لزيدان السعدي.

[3] يعتقد بعض المؤرخين أن القراصنة الإسبان ظنوا أن الصناديق المحملة بالكتب مليئة بالذهب علما وجدوا أنها كتب عرضها على الملك فيليب الثالث.

طرف القراصنة الإسبان. وبدأ حواره مع فرنسا بتوجيه رسالتين إلى الملك الفرنسي وحاكم مرسيليا " دوك دوكيد Duc de Guide " يحملهما سفيره [4] بالأقاليم المتحدة الذين طلب منهم زيدان بحكم صداقتهم للمغرب ووساطتهم لتسهيل مرور سفيره إلى التراب الفرنسي. وفي العاشر من شهر غشت عام 1612 كتبت دولة الأقاليم المتحدة التي تجهل كل شيء عن هذه القضية إلى سفيرها بفرنسا François Van Aerseau تطلب منه مساعدة السفير المغربي في مهمته لدى السلطات الفرنسية وأن يتدخل باسم بلده لدى الملك الفرنسي بأن يعيد السفينة إلى المغرب بمجرد ظهورها في إحدى المراسي الفرنسية. ولما علمت فرنسا باحتجاز السفينة من طرف الإسبان لم تر فائدة في السماح للسفير المغربي بمقابلة الملك الفرنسي قبل الدخول مع إسبانيا في حوار حول هذه القضية. فاضطر السفير المغربي إلى البقاء سنة كاملة بلاهاي [5] La Haye ينتظر هذا اللقاء إلى أن تلقى الأوامر بالعودة إلى المغرب، وفي هذه الأثناء قام الملك الفرنسي لويس Louis XIII 13 بمحاولات لدى العرش الإسباني في سبيل استرجاع السفينة الفرنسية نظرا للعلاقات الطيبة التي تربط بين البلدين، رفض الإسبان طلب الملك الفرنسي باعتبار أن المركب الفرنسي يحمل أمتعة ونفائس بلد هو في صراع مع إسبانيا وقرروا إحالة القضية على العدالة الإسبانية وقد أثبتت محكمة قادس التي بثت في القضية أن سفينة دوكستلان de Castellane لاتحمل وثائق قانونية تمكنها من حمل ما تحمل من أمتعة واعتبرتها عملا من أعمال القرصنة فأصدرت حكما بالإعدام على قائد السفينة ونائبه وأودعت دوكستلان السجن ليعامل معاملة خاصة باعتباره دبلوماسيا فرنسيا وعلى الرغم من إلحاح الأمير فياردو Fayardo على تنفيذ الأحكام الصادرة في حق الرعايا الفرنسيين فإن تدخل السفير الفرنسي Vancelas فانسلاس والضجة الدولية التي أثارتها هذه القضية حالا دون ذلك فبقي الاسرى في السجن ثلاث سنوات أي إلى عام 1615 حيث أطلق سراحهم بأمر من فيليب الثالث وذلك بمناسبة أعراس أمراء القصر الإسباني. أما صناديق الكتب فقد حملت إلى الشبونة

---

[4] السفير هو الجزولي قاضي الملك زيدان بتارودانت

[5] غشت 1612 إلى غشت 1613.

بالبرتغال - وقد كانت تحت النفوذ الإسباني يومئذ - ففهرست هناك فهرسة أولية ثم حملت إلى قصر الاسكوريال بإسبانيا على إثر اقتراح رئيس الدير دوبرالتا Tuan de Peralta وكان عدد الكتب المفهرسة يزيد على أربعة آلاف حسب الوثائق التي اعتمدها دوكستري de Castries على عكس الرواية الشائعة في كتب التاريخ والتي تجعل عدد مؤلفاتها ثلاثة آلاف مخطوط [6].

وبعدما فشلت فرنسا في محاولاتها لدى البلاط الإسباني لاسترجاع الخزانة لجأت إلى وسائل أخرى اقتصادية ودبلوماسية علها تفلح في إقناع السلطان السعدي للتخفيف عن الاسرى الفرنسيين في المغرب فقررت منح السفير المغربي لديها تسهيلات جمركية بالنسبة للسلع الصادرة أو الواردة من المغرب.

ثم كتبت إلى حكومة الدولة العثمانية بموجب المعاهدة المبرمة بين البلدين تطلب منها التدخل لدى المغرب ليخفف من التنكيل بالفرنسيين، وأخيرا كاتبت السلطان السعدي عن طريق أصدقائه في الأقاليم المتحدة مذكرة إياه أن فرنسا ستستمر في مفاوضة إسبانيا في شأن المخطوطات وملتمسة منه إطلاق الفرنسيين الأبرياء ومعاملتهم على غرار معاملته المثالية للموريسكيين الذين نفاهم الإسبان قبل ثلاث سنوات.

لم يقتنع زيدان بمقترحات الحكومة الفرنسية واعتبر تنكيله بالفرنسيين تنكيلا بالمسيحيين الإسبان معتبرا أن الكفر ملة واحدة وأن اختطاف المخطوطات العربية هو امتداد للصراع بين الصليبية والإسلام. وعلى هذاالأساس أجاب زيدان أن الملك الفرنسي لويس 13 قائلا :

---

[6] شاعت هذه الرواية شيوعا كبيرا الشيء الذي جعل صاحب كتاب " وصف تاريخ المغرب " يجعل من الخزانة التي اختطفت خزانتين إحداهما عام 1611 م أثناء مساعدة الأسطول الإسباني للشيخ السعدي وعددها 3000 كتاب، والأخرى هي موضوع بحثنا هذا.

" أنت المسؤول عن هفوات رعاياك، وإذا ما توصلت إلى حل هذا المشكل فستكون آنذاك قد قمت بعمل سلطان مثلك وستبعد عن شخصك تهمة لايقبلها أبدا إنسان في مستواك، وإذا توانيت عن محاولة استرجاع الخزانة فإنك ستتحمل هذه المسؤولية أبدَ الآبدين " [7]. وبعدما تأكد لدى السلطان السعدي أن فرنسا عاجزة عن إقناع الملك الإسباني بإعادة المخطوطات التي أودعت بالاسكوريال مع خطر خروج أي واحد منها بأمر من البابا وبعدما اقتنع أن التهديدات التي كان يوجهها إلى الدولة الإسبانية بمختلف الطرق لم تعن شيئا إضطر إلى المفاوضات المباشرة مع إسبانيا. فاقترح عليها ستين ألف مثقال ذهبي 60.000 ducats مقابل استعادة كتبه وقد أرسلت لهذه المهمة مجموعة من المسيحيين البرتغال المقيمين بالجديدة وباتفاق مع الدولة البرتغالية التي بلغت جهدها في إقناع الملك الإسباني لقبول مقترحات زيدان السعدي. أمام هذا الإلحاح وافق فيليب الثالث على إرجاع الخزانة مقابل شروط يستحيل على زيدان السعدي الموافقة عليها ويتعلق الأمر بإطلاق سراح كل الأسرى الإسبان بالمغرب، ومعلوم أن زيدان لايحكم إلاجزءا من مغرب ذلك الوقت. تكررت محاولات زيدان سنوات معدودات ولكن بدون جدوى إلى أن وافته المنية عام 1037 / 1626 م. وقد استمر خلفاؤه من بعده في مطالبة هذه الخزانة مستعملين الوعد حينا والوعيد حينا آخر حيث قتل أحدهم الراهب الفرنسيسكاني " جوان دل برادو " Juan del Prado الذي اعتبره مسؤولا عن رفض ملك إسبانيا إعادة الكتب وفي عام 1631 قام المولى محمد الإبن والخليفة الثالث لزيدان بمحاولة لاسترجاع الخزانة فأرسل الراهب الأب Perdo d'Alcantera رئيس الطائفة الفرنسيسكانية آنذاك ليفاوض الملك فيليب الرابع مقابل السماح له ببناء كنيسة بمراكش [8] ولما حل هذا الراهب بإسبانيا حاول مقابلة الملك فلم يفلح لكنه حظي بلقاء ممثل البابا بالديار الإسبانية الذي أكد له أن الكنيسة تعتبر إعادة هذه المخطوطات مساندة للمسلمين ورعاية لدينهم وكان من

---

[7] انظر توماسي العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين فرنسا والمغرب ص 19 1842.

[8] معظم المسيحيين الأوربيين المقيمين بالمغرب آنداك ينتمون إلى المذهب الفرنسيسكاني ومما يدل على ذلك أنه بمجرد ما استولى الإسبان على مدينة العرائش بنو فيها كنيسة فرنسسكانية .

الواجب أن تحرق على غرار ماصنع بالآثار الإسلامية إثر سقوط غرناطة قبل قرون من الزمان غير أن التدخلات الدولية وما تحتوي عليه هذه المجموعات من كتب ذات موضوعات تاريخية متعلقة بالوجود العربي بإسبانيا قررنا المحافظة عليها وإيداعها في مكان خاص بالاسكوريال بعيدا عن الكتب المقدسة كمؤلفات القديس أوجستان St Augustin والقديس طوماس St Thomas والقديسة طريز اليسوعية Ste théré de Jesus وغيرهما وبعد فشل الراهب المسيحي الذي عاد إلى مراكش حاملا معه رسالة اعتذار من المسؤولين الإسبان إلى الشريف السعدي اعقبته محاولات أخرى باءت كلها بالفشل الشيء الذي دعا أحد أبناء زيدان المولى عبد الملك إلى التنكيل بالمسيحيين نكالا كبيرا حيث ألقى إلى السباع بكل من رفض منهم التخلي عن المسيحية والدخول في الإسلام ولم تنته المحاولات في سبيل استرجاع هذه الخزانة مع نهاية أسرة السعديين بل استمر المغاربة يلحون على إعادة تراثهم الإسلامي في العهود التالية وظل هذا المشكل يطبع العلاقات المغربية الإسبانية عدة قرون. فلا يتم لقاء دبلوماسي ولاترسل سفارة ولاتوقع معاهدة إلا ويطالب المغرب فيها ليس بمكتبة الاسكوريال فقط بل بكل ما أغفلته محاولة الجهالة والحقد والتعصب من تراث العرب بالأندلس وأول محاولة جديرة بالذكر تمت بعد ذهاب السعديين تلكم التي قام بها السلطان العلوي المولى اسماعيل حيث كتب إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا في قضية الأسرى الإسبانيين بمدينة العرائش يقول : " وذلك ان تعطونا في الخميس نصرانيا من هذه المائة خمسة الاف كتاب مائة كتاب عن كل نصراني من كتب الإسلام الصحيحة المختارة ". وكان صاحب هذه المهمة الوزير ابن عبد الوهاب الغساني الفاسي الذي كانت سفارته الإسبانية عام 1101 / 1689م .

وفي هذا الإطاروضع رحلة الوزير في افتكاك الأسير، وعلى الرغم مما قاله المؤرخون عن فشل هذه المحاولة فإن " دركستري " قد أثبت أن السلطان المغربي قد حصل بالفعل على بعض المخطوطات العربية من الدولة الإسبانية، وقد أعقبت هذه المحاولة محاولات أخرى تمت على الخصوص في عهد السلطان المولى محمد بن عبد الله العلوي حيث كانت مطالبة المخطوطات المغربية من بين أشغال سفارتين اثنين بعثهما السلطان إلى كارلوس الثالث : الأولى سفارة أحمد المهدي الغزال الفاسي التي تمت عام

1179 / 1765 إلى إسبانيا وكتب على إثرها رحلته المشهورة المسماة " نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد " وقد خص قضية مطالبة الكتب بقوله : يأمر ملك إسبانيا بإخراجها من المحل الذي كانت به ودفعت لنا وزدنا على ما صاحبنا من كتب من غرناطة ... إلى أن قال ... وذهبنا إلى هذه الجموع بعد أن قدمنا [9] بثلاثمائة من الأسرى وجعلنا على رأس كل أسير كتابا من كتب الإسلام أنقذها الله من جلاد الكفر [10] " أما السفارة الثانية فهي التي قام بها محمد بن عثمان المكناسي ووضع على إثرها رحلته المعروفة " ال كسير في فكاك الأسير " ذكر فيها اهتمامه باسترجاع الكتب، يقول بعد زيارته لخزانة أسكوريال ومعاينة الكتب : فخرجت من الخزانة بعد أن أوقدت نار الأحزان بفؤادي نارها ونادت يالثار فلم يأخذ أحد ثارها ياليتني لم ارها [11] " .

وإذا استطاع المغرب أن يسترجع بعض تراثه المغتصب إثر محاولات دبلوماسية متعددة فإنه لم يحصل على شيء من مخطوطات الاسكوريال لأن البابا أمر ألا يخرج من هذه الخزانة أي شيء [12] . وقد ذكر ابن عثمان في الاكسير أن الملك كارلوس الثالث قدم له مخطوطات عربية مشفوعة بالاعتذار عن كتب الاسكوريال للسبب السالف الذكر. ولهذا السبب كذلك رفض الكركودي سفير السلطان الحسن الأول إلى إسبانيا زيارة هذه الخزانة على الرغم من إلحاح المسؤولين الإسبان عاى هذه الزيارة. ولم تكن الترجمة العربية [13] لفهرست الغزيري دليلا على امتداد اهتمام المغاربة بتراثهم المخطوط ومطالبتهم به.

---

[9] يقصد الدخول إلى مدينة مراكش
[10] نتيجة الاجتهاد ص 145.
[11] الإكسير ص 144 و 194.
[12] يطبق هذا الأمر حتى على الكتب المكتوبة باللغات الأجنبية
[13] تمت هذه الترجمة باقتراح الأديب المغربي والوزير محمد بن عبد السلام السلوي على عهد السلطان المولى سليمان.

وأخيرا لم يان للمغرب في ظل القوانين المتعارف عليها دوليا والمتعلقة باسترجاع التراث المغتصب في حالة الحرب أن يطالب بهذه الخزانة فبحكم هذه القوانين أعادت فرنسا جزء مهما من المخطوطات والوثائق إلى كل من النمسا والجزائر استولت عليها في ظروف تاريخية معروفة. وبحكم هذه القوانين كذلك طالبت مصر وتطالب الإنجليز بإعادة جزء من تراثها اغتصبته أيام استعمارها لهذا البلد. وإذ ننوه بما قامت به الدولة الإسبانية من أعمال علمية جليلة للحفاظ على هذا التراث فإننا لا نستبعد أن يجد هذا المشكل حله في إطار العلاقات الطيبة المتميزة التي أصبحت تربط بين الجارين الشقيقين هذه الأيام .

مراكش من خلال " المنتقى "
لأحمد بن القاضي

محمد رزوق
كلية الآداب
عين الشق الدار البيضاء

كان من المنتظر أن يخصص ابن القاضي فصلا لمدينة مراكش في المنتقي لمكانة هذه المدينة عند مخدومه أحمد المنصور، أو على الأقل يعطينا وصفا حيا لبعض ما شاهده بالمدينة زمن السلطان المذكور فيفصل القول في أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والادارية، لكننا نجد أنه يعرض عن ذلك، وعوض بالاطراء الكثير لمخدومه وبالاستطرادات الكثيرة التي تكاد تنسينا الموضوع الأصلي لكنه من ناحية أخرى لم يهمل مدينة فاس، فيذكرها باستمرار وفي أكثر من موضع، فيذكر منشآتها، وأولياءها، وعلماءها، بل ويذكر بماضيها المجيد كمدينة كانت في يوم ما عاصمة للأدارسة والمرينيين والوطاسيين، ويغفل عن مراكش كعاصمة للمرابطين والموحدين وسنحاول في هذا العرض الوجيز أن نفصل القول فيما ذكره ابن القاضي حول مراكش وهو قليل، وفيما لم يذكره وهو كثير.

1 - من الناحية المعمارية

هناك حدثان معماريان بارزان في المنتقي :

الحدث الأول : نص وثيقة الوقف المشتمل على عقارات كثيرة أوقفتها أم المنصور عودة بنت أحمد الوزكيتي على المسجد الذي أنشأته بباب دكالة [1] ، وهي وثيقة

[1] المنتقي 1 : 257 - 259

مهمة تعطينا نظرة عن اقتصاد حي من أحياء المدينة ومورفولوجيته، إذ يرد بهذه الوثيقة عدد من أسماء الأشخاص والأماكن، مما يساعدنا - في حالة جمع وثائق من هذا النوع - على دراسة البنية الحضرية للمدينة.

أما المسجد، فهو مسجد عظيم، تقام به صلاة الجمعة، ويعتبر من أهم المساجد في العصر السعدي سواء في مراكش أو فاس على السواء ومما زاد من أهميته أن أم المنصور أمدته بمكتبة عظيمة، أوقفت عليها جملة وافرة من الكتب، وتنافس في اهداء هذه الكتب العلمية إلى هذه المكتبة كل من أحمد المنصور وأبنائه [2] .

الحدث الثاني : قصر البديع

رغم أهمية هذا الأثر المعماري بالمدينة فإن ابن القاضي لم يتعرض له إلا مرتين وبإشارات سريعة جدا [3] ، رغم أن الحدث كانت له مكانة أنذاك، كان من المنتظر أن يتعرض له بتفصيل مثل ما فعل معاصره عبد العزيز الفشتالي [4] ، خاصة أنه بصدد الحديث في كتابه عن " مآثر الخليفة المنصور " فقد تعرض له في الباب الثاني

---

[2] عن تخطيط هذا المسجد من الناحية المعمارية انظر :
- G. Marçais, l'architecture musulmane d'occident, pp. 385 - 386.
- عثمان عثمان اسماعيل : من تاريخ العمارة الدينية في عصر الأشراف السعديين، مقال بمجلة دعوة الحق السنة 19 العدد 5 ، رجب 1398، ماي 1978، ص 72 - 75

[3] المنتقى ، ص 1 : 352 ، 2 : 834 - 836

[4] مناهل الصفا، ص 167 - 181
ومن المصادر الأخرى التي تعرضت له أيضا نذكر :
- محمد الأفراني، نزهة الحادي، ص 103 - 114
- أحمد المقري، نفح الطيب، 6 : 47 - 56
ومن الدراسات نذكر :
- إبراهيم حركات، العمران وفن البناء، في العصر السعدي، مجلة الثقافة المغربية، العدد السادس سنة 1972. - عبد العزيز بنعبد الله، تاريخ المغرب، 2 : 13 - 14
- عبد الهادي التازي، قصر البديع بمراكش، مجلة البحث العلمي العدد 28 ، يوليوز - دجنبر 1978 ، ص 163 - 188.

G. Deverdun, Marrakech 1 : 392
G. Aimel, le palais d'El Badi, un Arch. Ber. III, 1918

وتعرض له في الباب الأخير، الباب السادس والعشرون [5] ، ولعله استشعر ما سيحصل له من إعراضه هذا، خاصة وهو يعلم علم اليقين مكانة قصر البديع بالنسبة للمنصور، فاستدرك الأمر قائلا " ... ولكن ان فسح الله في اجلي اضع - إن شاء الله - تاليفا على ما اشتمل عليه من أنواع البناءات ." [6] .

2 - من الناحية الاجتماعية

يبرز بعض الأحداث الاجتماعية التي بدأت تعرفها المدينة من ذلك وصفه لليلة المولد النبوي يحضره الخليفة، وما يقرأ فيها على التوالي من اي القرآن الكريم وكراسة ابن عباد وقصائد المدح والمقطعات الشعرية، ويفيدنا ابن القاضي تاريخيا أن عادة إحياء ليلة المولد النبوي بالشعراء والانشادات كانت قد انقطعت بالمغرب منذ عهد ابن مرين : إلى أن أحياها المنصور، ويحدد المبالغ التي كان يعطيها المنصور للشعراء بهذه المناسبة [7] .

زيارة المنصور للأولياء، وهناك أيضا يذكر بأنه زار أولياء فاس أول الأمر فيذكر زيارته لدراس بن اسماعيل، والقاضي لأبي بكر بن العربي وغيرهم. أثناء إقامته بفاس [8] ، ثم يأتي بعد ذلك إلى مراكش فلا يذكر إلا ثلاثة هم : أبو العباس السبتي، والقاضي عياض، والإمام السهيلي.

اهتمامه بشرفاء مراكش : يذكر ابن القاضي أن شريفا من شرفاء مراكش وقف للمنصور في الطريق لكي يعطيه شيئا فأعطاه كسوة وذكر أنه من عادته مع الرجل إعطاؤه كل مرة، ويصرف ما يأخذه في الخمر، ويعود إليه فيعطيه لمنزلته من الشرف [9].

---

[5] المنتقى، 2 : 834
[6] المصدر السابق، 2 : 836
[7] المصدر السابق الباب الرابع، 1 : 367 - 376
[8] المصدر السابق، 1 : 387
[9] المصدر السابق ، 1 : 379

احترامه للطلبة وغضه الطرف عن أعمالهم : " ومن ذلك اتفق له مع بعض أهل الاذاية من الطلبة المستحلين للأعراض، وبذلك لهم عن طاعة الله اعراض، وقد بلغه عنهم من ذلك ما يوجب هضمهم وعقابهم، بل ما يذهب رؤوسهم ورقابهم، فعاملهم بإحسان ومنح وأنواع عطايا ..." [10]. لكن ابن القاضي لايذكر ما هي أنواع هذه الأعمال المريبة والتي تستحق كل هذا العقاب غير عبارة (المستحلين للأعراض)، وهي عبارة ترمز إلى السلوك الأخلاقي لهؤلاء، مما يشير إلى أن خللا اجتماعيا قد وقع بالفعل خاصة ضمن هذه الفئة التي كان لديها مكانة خاصة لدى العامة، ولكن ابن القاضي كعادته لايورد اسبابا معينة لذلك، فلعل ذلك راجع أساسا إلى ما عرفته هذه الفئة من ثراء نتيجة ازدياد مداخيلها، وكذا دخول عناصر طارئة إلى مراكش من أندلسيين وأوربيين يهود وغيرهم.

كثر الحديث في المنتقي عن العطايا التي يقدمها المنصور للفقراء والمساكين، إلى الحد الذي يجعل المرء يتساءل : هل عرفت المدينة فئات اجتماعية فقيرة إلى هذا الحد، أم أن ابن القاضي يستخدم هذا الأسلوب لإبراز سخاء مخدومه. فعلى كل حال هذا يناقض ما يتحدث عنه ابن القاضي نفسه عن المدينة وتراثها، إلا أن تكون هذه الأمور موجودة بالفعل لكنها تصرف في غير الوجهة التي يجب أن تصرف فيها وهذا ما لم يصرح به.

3 - من الناحية الاقتصادية

من خلال الإشارات الواردة المتعددة في المنتقي يشير ابن القاضي إلى التطور الاقتصادي الذي عرفته المدينة، ولكنه يسكت في نفس الوقت عن الوضعية الاقتصادية بمدينة فاس، وهذا على غير عادته. اعتمد المنصور في ارسائه لقواعد النشاط الاقتصادي بالمدينة على ثلاثة عناصر أساسية : الفلاحة والتجارة والصناعة.

---

[10] المصدر السابق، 1 : 384

فقد قام باستغلال الأودية وإنشاء القنوات، وحفر الآبار واستعمال الخطارات، كما قام بتوزيع الأراضي على القبائل المجاورة لمراكش، مما أدى إلى استقرارها بالمنطقة، فكانت النتيجة أن زادت المنتجات الزراعية خاصة الحبوب بمختلف أنواعه كما عرفت المدينة تطورا صناعيا مهما نتيجة توفر رؤوس الأموال وتوفر المواد الأولية، نذكر بالخصوص صناعة الأسلحة، والسكر وقد مارس سكان المدينة عددا من الحرف كالنجارة والخياطة وغير ذلك. أما من الناحية التجارية فهناك عوامل متعددة ساعدت على ازدهار الحركة التجارية بها ومنها :

- موقع المدينة وسط المغرب وتحكمها في الطرق التجارية

- غناها من الناحية الفلاحية مما سهل عملية التبادل

- جبالها تجعل منها قلعة محصنة ضد التدخل الأجنبي

- اتصالها القديم بالسودان الغربي

أما بالنسبة لفاس فهناك عوامل أثرت سلبيا على اقتصادها منها :

- كانت فاس لفترات عديدة تعاني من اختناق اقتصادي بسبب الغزو الايبيري لمدن الشمال، مما حرمها من موانيء كانت تستفيد منها

- قربها من الخطر العثماني بتلمسان

التقلبات السياسية التي عرفتها المدينة جعلت الأمور فيها مضطربة خاصة أن مدينة فاس كانت زمن المنصور تحت ولاية ابنه المامون الذي أساء السيرة وأضر بها مما أدى إلى ضعف إمكانيتها حتى أن المؤرخ المجهول يقول :

"... ودخل السلطان المولى أحمد فوجد البلاد خرابا، خالية الاهرية من الزرع وغيره ..." 11 .

---

11 تاريخ الدولة السعدية ، ص 74

4 - من الناحية العلمية

هناك إشارات فقط تعتبر بمثابة علامات بارزة لمعرفة الوضعية العلمية بمراكش، وهناك أيضا نشير إلى الملاحظة التي سبق أن أبديناها سابقا، فإن القاضي يبدأ أولا بعلماء فاس، فيذكر ما أخذ عنهم وتآلفهم ونشاطهم، لكنه حين الحديث عن المنصور يذكر عددا من علماء مراكش وهم قلة بالنسبة لعلماء فاس، وسنرى فيما بعد الأسباب التي دعت ابن القاضي ينحو هذا المنحى.

الوضعية العلمية بمراكش من خلال المنتقى

استقطبت مراكش علماء وأدباء من مختلف انحاء المغرب، بل ومن المشرق، واستعادت مساجدها نشاطها فتعددت حلقات العلم والتدريس بجامع الشرفاء وباب دكالة وابن يوسف وغيرهم.

وهكذا يشير ابن القاضي إلى توافد عدد من العلماء من مكة والمدينة وبيت المقدس، كما يشير إلى هجرة طائفة من علماء فاس إلى مراكش إما للاستقرار بها نهائيا أو للبقاء بها مدة كالقاضي عبد الواحد الحميدي وهناك ملاحظة أساسية فيما يتعلق بعلماء مراكش في هذه الفترة : فالعلماء كانوا يساهمون في تسيير دواليب الدولة، وكان المنصور يرعاهم ويحرص على الاستفادة منهم، فقد أصبحوا قادة جيوش وكتاب دولة وقضاة هذا بالإضافة إلى دورهم العلمي والاجتماعي المنصب أساسا على تأطير العامة، نذكر من بين هؤلاء المفتي عبد الواحد السجلماسي، وقاضي القضاة بمراكش أبي القاسم الشاطبي والقائد ابراهيم السفياني، والشاعر محمد بن عمر، والأديب محمد بن يعقوب الايسي المراكشي الذي قال في حقه الافراني : " ... كان صدر الأدباء في وقته بمراكش وغيرها بحيث كان الكتاب يرجعون إليه في عويص المكاتبات، ويترافعون إليه في حل المشكلات والمهمات " [12] وقال في وصفه أحمد بابا : " لم الق بالمغرب أثبت ولا أصدق ولا أعرف بطرق العلم منه ..." [13]

---

[12] نزهة الحادي ، ص 168
[13] كفاية المحتاج ، ص 65

هكذا نلاحظ أن المنصور قرب إليه طائفة مهمة من علماء مراكش وأوكل إليهم دقائق الأمور، بل واستأمنهم على أسرار الدولة، بقي لنا أن نتساءل عن الأسباب التي قد تكون دعت ابن القاضي إلى اختزال الأحداث المتعلقة بمراكش بهذه الصورة.

نعتقد أن تركيز ابن القاضي على فاس في المنتقي بصورة أكثر من مراكش يرجع أساسا إلى كونه كان يعتبره بمثابة ورقة دفاع عن مدينة فاس أمام مخدومه أحمد المنصور، ونوضح ذلك في التحليل الآتي لقد ظلت مدينة فاس منذ أواخر العصر المريني، بل وقبله بقليل تعرف نوعا من التدهورإلى أن وصلت إلى حد معين في عهد المنصور وابن القاضي الفاسي الدار لم تكن بطبيعة الحال تروق له هذه الوضعية ولكنه كان أيضا يدرك عدة حقائق كان لابد له من تقديم أوراقه للتخفيف من حدتها :

الواجهة السياسية

حاول المؤلف جهده لإبراز إخلاص المدينة للمنصور فحاول إزالة الضباب الكثيف الذي خيم على علاقة السعديين بها، وذلك من خلال سلسلة التراجم التي عقدها لعلمائها وصلحائها. فلا ننسى أن المدينة حاربتهم طويلا قبل استسلامها ولاننسى موقف علماء فاس من محمد الشيخ المؤسس الحقيقي للدولة السعدية.

وكان ابن القاضي أحد هؤلاء العلماء فحاول أن يبرز إخلاص العلماء له ومن خلالهم إخلاص عامة فاس، ولكنه حاول في نفس الوقت أن يثبت أن المدينة مدينة علم، وأن المغرب كان يتقرر مصيره من خلال هذه المدينة.

الواجهة العلمية

عندما يذكر ابن القاضي مدينة فاس، فإنه يردفها بعبارة : " عمرها الله " ورغم أنه يبدو لأول وهلة أن الدعاء عادي ولايحتاج إلى تأويل، فإننا مع ذلك نعتقد أنه مقصود ويحمل دلالات عميقة، خاصة إذا ما قارناه بالدعاء الذي يردفه بالنسبة لمدينة مراكش عندما يقول " حرسها الله "

فقد كانت فاس بالفعل بحاجة إلى من يعمرها خاصة أن بلاط المنصور استقطب العديد من العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء من فاس مما أثر سلبيا على المدينة الفاسية، كما هاجرت طائفة كبيرة من علماء فاس للتدريس بمساجد مراكش، وهذا ما جعل أحمد بابا يقول : "... فلقد أدى ذلك لذهاب العلم بهذه المدن الغربية التي هي من بلاد العلم من قديم الزمان كفاس وغيرها، حتى صار يتعاطى الاقراء على كراسيها من لايعرف الرسالة أصلا فضلا عن غيرها بل من لم يفتح كتابا للقراءة قط ..." [14] .

---

[14] نيل الابتهاج، 246 - 247.

مدينة مراكش
بمنظار الشعر المريني والسعدي

الدكتور عبد الجواد السقاط
كلية الآداب
المحمدية

لعل طبيعة محاور هذه الندوة العلمية تفرض علينا، أو - على الأقل - توجهنا نحو تلكم النظرة الماضوية التي تستلهم التاريخ وتستنطق الذاكرة، وتمتح أحكامها ومواقفها مما يختزنه التراث المغربي من إفرازات غنية، وعطاءات خصبة متنوعة يستند إليها الباحث للخروج بهيكلة متكاملة تساهم في إضاءة جانب من جوانب المدينة " الحمراء " وفي حقبة معينة هي الممتدة بين القرنين الهجريين السابع والحادي عشر.

ولعلنا في ضوء هذه النظرة، أن نستهل مداخلتنا الموجزة هاته، بالإشارة إلى العلاقة التي تجمع بين الشاعر المغربي وبين المدينة بوجه عام، تلكم العلاقة التي نجدها تمتد عبر اتجاهين اثنين : احدهما يحتضنه البعد الزماني منذ عهد الدولة الإدريسية إلى اليوم، وثانيهما يحتويه البعد المكاني بما أفرزه المبدع المغربي من نصوص حول المدينة، سواء كانت هذه المدينة داخل الحدود المغربية أو خارجها.

فإذا نحن وقفنا عند الاتجاه الأول، طالعتنا نماذج تمتد جذورها في أعماق التاريخ، منذ البواكير الأولى للشعر المغربي في العصر الإدريسي، إذ تقف مثلا على بيتين للشاعر إبراهيم بن محمد الأصيلي [1] يبرز فيهما هذه العلاقة، بما يشوبها من

---

[1] من شعراء المغرب في القرن الرابع الهجري

نفور وتبرم وهو يقول حول مدينة فاس

دخلت فاسا وبي شوق إلى فاس	والجبن يأخذ بالعينين والرأس
فلست ادخل فاسا ما حييت ولو	اعطيت فاسا وما فيها من الناس [2]

وكذلك الأمر لو أننا تتبعنا كل ما أبدعه المغاربة في هذا المجال في العصور المتعاقبة، ولايزالون يبدعون إلى اليوم، مما يزكي هذه العلاقة المتينة التي أسسها أوائل الشعراء المغاربة بينهم وبين المدينة، ومتنها من تعاقبوا بعدهم على ساحة الإبداع بهذه الربوع.

ويبدوا من خلال ما يسعف به البحث من نصوص، ان هذه العلاقة لم تقتصر على الشاعر المغربي ومدينة بعينها، بقدر ما كانت ممتدة الرقعة واسعة المجال، تشمل نخبة من مدن المغرب على اختلاف مواقعها وترامي أماكنها، بل تتجاوز ذلك إلى مدن خارج التراب المغربي، وخاصة منها ما يتميز بطابع إسلامي مقدس، أو طابع حضاري أو تاريخي أو ما إلى هذا وذاك. ولنا في الكثير من المصادر المغربية وغير المغربية ما يدعم هذا الرأي، كما يدعمه في المرحلة الحديثة ما تجود به قريحة بعض شعرائنا وهم يتعاملون مع جملة من المدن الإسلامية والعربية من منطلقات دينية أو سياسية أو غيرها.

وسواء تعلق الأمر بالمستوى الأول أو المستوى الثاني، فإن ما نستطيع الوقوف عليه من أدب المدينة في الشعر المغربي يتميز بشيء من الغزارة غير قليل، كما يتميز بالتنوع الذي يلامس هذه المدينة أو تلك من مختلف اتجاهاتها وجوانبها، حضاريا، وتاريخيا، وعمرانيا، وسياسيا، وعلميا، واجتماعيا...وهي المجالات والجوانب التي لايسمح الوقت المحدود لهذه المداخلة باستعراض نماذج منها، وإنما نكتفي بالإحالة على مظانها من كتب التاريخ والتراجم والرحلات وما إليها.

---

[2] البيان المغربي في أخبار المغرب لابن عذاري المراكشي ج 1 تحقيق و مراجعة ج . س . كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة بيروت ص 183.

وانطلاقا من هذا التوجه تقف مدينة مراكش شامخة أبية تقتطع نصيبها من إفرازات الشعراء هذه، وتظفر بحظ غير قليل من عنايتهم بها، واهتمامهم بمعالمها وطقوسها، عبر مختلف مراحل المسيرة الشعرية ببلادنا.

فإذا عادت بنا الذاكرة مثلا إلى عصر الدولة الموحدية، وفيه كانت مراكش قاعدة الملك كما نعلم، وجدنا أحد أمراء هذه الدولة، وهو أبو الربيع سليمان الموحدي [3] يتحدث عن دار له بمراكش فتدعوه المناسبة إلى تمجيد المدينة تمجيدا يجعلها أبرز مدن المعمور، في عبارة مجازية تجعل من بقاع الارض شخصا، بينما تجعل من مدينة مراكش وجها لهذا الشخص، باعتباره العلامة الدالة، والمقدمة التي تتميز بالأولوية والصدارة يقول :

رعاك الله يا دار الكرام	وجادك بالحيا صوب الغمام
ومتع فيك أعواما طوالا	على نعم وخير مستدام
أرى مراكش الحسناء تزهى	وحق لها على دار السلام
كأن الارض شخص وهي وجه	وأنت بوجهها وضح ابتسام [4]

وإذا تركنا المرحلة المرينية والسعدية إلى القسم الثاني من هذه المداخلة، وقفزنا نحو شعراء العصر العلوي، اكتفينا للتمثيل لذلك بنموذجين اثنين للشاعر محمد بن ادريس العمراوي [5] يتشوق في أحدهما إلى مراكش، تلكم المدينة التي يعز فيها الغريب على حد قوله :

---

[3] مات عام 604 هـ

[4] الوافي بالأدب العربي في المغرب الاقصى لمحمد بن تاويت ج 1 مطبعة النجاح الجديدة، 1402 هـ 1982 م، ص 237.

[5] مات عام 1264هـ.

ألاليت شعري هل ابيتن ليلة	بمراكش حيث الغريب عزيز
وهل اردن من واد صبرة منهلا	وهل يبدون لي رمرم وجليز [6]

بينما يثني في ثانيهما على أهل مراكش، ويكبر فيهم لطفلهم وحسن عشرتهم فيقول :

يا أهل مراكش لله دركم	من جيرة حبهم باد ومختزن
ملكتم القلب بالالطاف وانجزمت	لجمع انسكم الاكدار والحزن [7]

على أن التنويه بمدينة مراكش لم يقتصر على شعراء المغرب وحدهم وإنما تجاوزهم إلى غيرهم من شعراء العربية، وخاصة منهم شعراء الشمال الافريقي والأندلس. فقد نقل العباس بن ابراهيم في اعلامه عن صاحب بغية الملتمس قوله حول الشاعر محمد بن محمد بن باز اليحصبي الاندلسي [8] : " وصل الحضرة الإمامية يعني مراكش في سنة 567 هـ ومدحها بقصائد مطولة ونال من بركتها المباركة، أنشدني منها قصيدة :

نهضوا ليوم الفتح في صولاتهم	بلغوا من الأبطال ألف مـلام
لـم يجتمع لقبيلة أمثالهم	فهم الرجاء لمنجد أو متهم [9]

ويتضح من خلال البيتين ما يحتله أهل مراكش في نظر الشاعر من مكانة وقدر احلهم اياهما ما عرفوا به من بسالة وصمود من أجل إبقاء راية الإسلام خفاقة في ربوع الأندلس.

---

[6] الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام للعباس بن ابراهيم ج 1 المطبعة الملكية، الرباط 1974، ص 13 .
[7] الاعلام، ج 1، ص 27
[8] مات عام 587 هـ
[9] الاعلام، ج 4 المطبعة الملكية، الرباط، 1976م، ص 123

وفي المجال نفسه نقتطف أبياتا من يائية الحسن بن علي بن الفكون القسنطيني [10] في الرحلة من القسنطينة إلى مراكش، حيث ينوه بالمدينة وأهلها فيقول :

وفي مراكش ياويح قلبي	اتى الوادي فطم على القرى
بدور بل شموس بل صباح	بهي في بهي في بهي
اتحن مصارع العشاق لما	سعين به فكم ميت وحي [11]

ولعل ما تحتضنه مدينة مراكش من علماء وأولياء، ومن رجالات فرضوا وجودهم في مجالات شتى، مما جعل هذه المدينة تحتل مكانها في إبداع الشعراء، مغاربة وغير مغاربة، بل تحظى بنصيب غير قليل من الحضور في هذا الإبداع. ويكفينا أن نسوق كشاهد على ذلك نماذج أربعة، أولها لمحمد بن الحسن [12] يمدح أحد علمائها أحمد بن علي السالمي المتوفى عام 1040 هـ فيذكر مراكش باعتبارها مقر الممدوح إذ يقول :

ياأيها المؤتم مراكشا	الم بربع الماجد العالم
الاوحد الصدر الجليل الرضى	مفتي الانام أحمد السالمي [13]

وثانيهما لمحمد بن أحمد بناني المراكشي [14] يستعرض أولياء مراكش في قصيدة ورد ذكر المدينة في مطلعها :

---

10 من شعراء المغرب الأوسط في المائة السادسة وأوائل السابعة
11 الاعلام، ج 3 المطبعة الملكية، الرباط 1975م، ص 140
12 من شعراء المغرب في القرن الحادي عشر الهجري
13 الاعلام، ج 2 المطبعة الملكية، الرباط 1974 م ص 308
14 من شعراء المغرب في أوائل القرن الثالث عشر الهجري

بمراكش الغراء لاحت كواكب بهم يحتمي المكروب من كل شدة [15]

أما ثالثها فلسعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني [16] في مدح القاضي عياض المتوفى عام 544 هـ إذ يقول :

فلولا عياض الغرب ما ذكر اسمه ولاحق منه الدهر للطرف رافق

على ساكن الحمراء مني تحية تروم ضريح العلم ما لاح طارق [17]

أما رابعها فلسليمان بن ابراهيم [18] الذي يمدح والي مظالم المنصور علي بن سليمان التاملي، فيذكر المدينة، بل يدقق أكثر فيذكر الحي الذي كانت تسكنه أسرة الممدوح بها إذ يقول :

بالله إن وطئت مراكشا قدمك وجزت يوما على تلك البساتين

الا تقدم أمرا قد هممت به حتى تحيي سكان المواسين [19]

وإذا نحن خلصنا بعد هذا القسم الأول إلى التعرف على مدينة مراكش بمنظار الشعر المريني والسعدي، استوقفتنا مجالات كثيرة صورها هذا الشعر، نبدأها بالمجال السياسي أولا، إذ من المعلوم تاريخيا أن مدينة مراكش قد أسهمت ولا تزال، إسهامات كبيرة في المجال السياسي هذا، منذ أسسها المرابطون في أواسط القرن الخامس الهجري، واتخذوها عاصمة ملكهم، كما اتخذها الموحدون من بعدهم كذلك، وكما هو الشأن في الفترة السعدية فيما بعد . وإذا كانت الفترة الانتقالية بين تصدع دولة الموحدين وتمركز دولة المرينيين قد أسدلت ذيول الفتنة والاضطراب على مدينة

---

[15] الاعلام، ج 10، المطبعة الملكية، الرباط 1983م، ص 362

[16] من قامى شعراء المغرب الأوسط.

[17] الاعلام، ج 9 المطبعة الملكية، الرباط 1980م، ص 338

[18] من شعراء المغرب في عهد المنصور السعدي

[19] نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي عشر لمحمد الصغير اليفرني تصحيح السيد هوداس، منشورات بردي، الرباط ص 170.

[20] مات عام 776 هـ

مراكش وخاصة في عهد آخر ملوك الموحدين إدريس بن دبوس، فإن الشعر لم يغفل عن تصويره هذه المأساة التي عاشتها مراكش حينذاك، كما جاء في إحدى قصائد الشاعر الأندلسي لسان الدين بن الخطيب [21] وقد وقف على مراكش، واعتبر بما صار إليه أمرها بعد الموحدين :

بلد قد غزاه صرف الليالي	وأباح المصون منه مبيح
أعجمت منه اربع ورسوم	كان قدما بها اللسان الفصيح
كم معان غابت بتلك المغاني	وجمال أخفاه ذاك الضريح [22]

كما لم يفت الشعر في المرحلة المشار إليها أن يعبر عن الفرحة والاعتزاز الذين غمرا قلوب الناس وقد تمكن عبد الحق المريني [23] من فتح مراكش باعتبارها آخر معقل من معاقل الوجود الموحدي حيث يقول الشاعر مالك بن المرحل [24] من قصيدة مشهورة وجهها للأمير أبي مالك عبد الواحد المريني :

بفتح مراكش عم السرور فما	يكابد الغم إلا قلب من ظلما
حبا بها الله مولانا الأمير كما	حبا اباه فاسنى فتحها لهما [25]

ومن يومئذ ومدينة مراكش تمثل مركز الصدارة والاهتمام في السياسة المرينية والسعدية، ولا سيما في عهد المنصور الذهبي [26] إذ كانت حاضرة الملك التي عم صيتها الآفاق، وجليت في حلة الحسن والبهاء كما جاء على لسان الشاعر عبد

---

21 مات عام 776 هـ
22 أزهار الرياض في أخبار عياض لأحمد المقري التلمساني، ج 1 تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، المغرب ص 290.
23 مات عام 685هـ
24 من فحول شعراء المغرب في العصر المريني، مات عام 699 هـ
25 ذكريات مشاهير رجال المغرب لعبد الله جنون، رقم 8 دار الكتاب اللبناني، بيروت ص 23
26 دام ملكه من عام 956هـ إلى حين وفاته عام 1012 هـ

العزيز الفشتالي [27] وهو يتغنى بكونها دار الخلافة التي تفتح صدرها للوافدين، وتوسع لهم في الإقامة والمجلس.

تبدت لنا دار الخلافة بكرة وقد جليت في حلة الحسن والزين

بكرنا بها نرتاد للركب منزلا فقالت لنا أهلا على الرأس والعين [28]

علاوة على أن مراكش كانت في عهد المنصور مركز القرار، ونقطة الانطلاق نحو الفتوحات التي قام بها المنصور وحالفه النصر فيها. وكشاهد على هذا نكتفي بقصيدة للشاعر محمد الهوزالي [29] نظمها في تخليد أحد فتوحات المنصور جاء فيها :

كتائب منصورية قدفت بها مرام نأت عن أرضها ومكانها

إلى أن يقول :

سحائب من مراكش قد اثارها صبا النصر يحدوها حداء عنانها

يؤم بها الصحراء يرتاد أمة سدى أنفت أسادها من عرينها [30]

وفيما يتعلق بالمجال العلمي والأدبي فمن غير منازع أن مدينة مراكش كانت منذ تأسيسها قبلة العلماء والأدباء الذين فرضوا ذاتهم في الساحة العلمية والأدبية بالمغرب، سواء كانوا من أبنائه أو من الوافدين عليه من الأقطار الإسلامية الأخرى، وخاصة منها الأندلس. ولعل نظرة سريعة في بعض المظان والمصادر تسعفنا بالعديد من الأسماء التي لها قيمتها في المجال العلمي والأدبي، والتي نشأت في مدينة

---

[27] من أبرز شعراء العصر السعدي، مات عام 1032هـ
[28] شعر عبد العزيز الفشتالي، جمع وتحقيق ودراسة لنجاة المريني مطبعة المعارف الجديدة الرباط1986م، ص 446
[29] من شعراء العصر السعدي، مات عام 1012 هـ
[30] الوافي بالأدب العربي ج 3 مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء 1984م، ص 672.

مراكش، أو استوطنتها ردحا من الزمن، وهي الظاهرة التي دفعت في أواسط القرن الرابع عشر الهجري أحد أبناء مراكش، وهو العباس بن إبراهيم السملالي، إلى محاولة حصر هذه الأسماء في تصنيف ضخم بلغ عشرة أجزاء هو كتاب " الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام " وهي الظاهرة نفسها التي لاتزال إلى اليوم تدفع باحثا آخر من أبناء مراكش، هو الأستاذ أحمد متفكر، إلى التفكير في وضع ذيل على كتاب الاعلام هذا، يضيف فيه مالم يتيسر لصاحب الاعلام إثباته، أو ما ينتمي إلى فترة لاحقة عن الفترة التي تم فيها صدوره.

وإذا كانت الفترة التاريخية التي تهمنا في هذه المداخلة تقتصر على العهدين المريني والسعدي، فإن من الجدير بالذكر الإشارة إلى العديد من علماء مراكش وأدبائها، سواء منهم الذين أنجبتهم المدينة في هذه الفترة، أو الذين وفدوا عليها واستقروا بها، وخاصة عندما كانت حاضرة الملك في عهد المنصور، الذي كما نعلم لم تكن اهتماماته السياسية لتشغله عن مجالات الثقافة والفكر بل عن المساهمة في إغناء هذه المجالات بإبداعاته الشعرية في أكثر من موضوع .

وإذا جاء على لسان الشاعر العراقي الحديث محمد مهدي الجواهري قوله :

هذي الخلائق أسفار مجسدة ... الملهمون عليها كالعناوين

والملهمون عنده هم علية القوم من رجال العلم والأدب، فإن أدباء مراكش وعلماءها في الفترة المشار إليها، يعتبرون بالفعل كالعناوين التي توحي بما تتضمنه المتون من معلومات ومعارف ويكفي في هذا الإطار أن نشير إلى العالم الأديب أحمد بن البناء العددي [31] الذي دل بنبوغه العلمي على جودة التربة التي نشأ فيها وخصوبة العقل المعرفي الذي درج فيه وتغذى من فيضه ونتاجه، و الذي جاء تضلعه وسعة إطلاعه وإدراكه دليلا على ما كانت عليه مراكش آنذاك من بروز في مجالات علمية

---

[31] مات عام 721 هـ

وأدبية مختلفة، وما كان لها من حضور متميز على أكثر من صعيد، بل ما كان لرجالاتها من نزوع إلى الاغتراف من منابع ثرة يمتزج فيها العلم بالأدب ليصبحا في النهاية وجهين لعملة واحدة، كما تدل على ذلك هذه الأبيات التي قالها ابن البناء في موضوع الغزل، ومع ذلك طغى عليه فيها رصيده المعرفي في مجال الرياضيات خاصة :

خط الغرام على المشوق مثلثا	متساوي الأضلاع خط مبرز
فغدا ينادي ظبية فتانة	فتكت به عمدا بغير تحرز
يا مي إن أرسلت سهما صائبا	من قوس طرف مالها من محرز
تجدي المتيم وسط دائرة الهوى	وفؤاده فيها كنقطة مركز
أضحى كخط ليس يدرك رقة	أو نقطة في الوهم لم تتميز
وإذا يروم الغنج منك قتاله	يلفيه دون تحرف وتحيز [32]

وإلى جانب هذا يتضح من خلال إفرازات هذه العناوين على حد تعبير الجواهري، ان أهل مراكش في الفترة المشار إليها كانوا متعطشين للعلم راغبين في الاستزادة منه، معظمين لأهله وذويه، رافعين من شأنهم ومكانتهم، وكأن ابن البناء لسان حالهم جميعا إذ يردد :

بالعلم يرتفع الفتى	لا بالمروءة و الحسب
قد يكسب المال الفتى	والعلم أفضل ما كسب [33]

أو كأن لسان الحال هذا محمد بن عبد الكريم الهزميري الأغماتي [34] إذ يؤكد على ضرورة الجمع بين دسامة المعرفة وبراعة الإفصاح عنها فيقول :

---

[32] أعلام المغرب العربي لعبد الوهاب بن منصور، ج 4 المطبعة الملكية، الرباط، 1986، ص 268
[33] الاعلام، ج 1 ص 206
[34] مات عام 678 هـ

رأيت العز في أدب وعلم | وفي الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بعلم | إذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا أن تراه | له وجه وليس له لسان
وكم أبصرت من قوم ملاح | لهم صدر وألوان حسان
يعظم شأنهم بصري فلما | سمعت كلامهم صغروا وهانوا
فما شرف الفتى إلا كلام | ولولا العلم ما رفع المكان [35]

على أن هذا الاهتمام بالفكر لم يكن شاذا في الفترة المشار إليها، وإنما كان مسبوقا بمثله في الفترات اللاحقة، مما يجعل العلم والأدب لا قبلة الشيوخ والطاعنين في السن فحسب، بل أيضا قبلة الشباب اليافعين، كما يشهد بذلك أحد مواليد مراكش، ثم أحد نزلائها، وهو محمد الصغير اليفرني [36] إذ يقول :

فقل لشيوخ مراكش هلموا | بإنصاف لتصطحبوا بروض
ولا يحملكم كوني صغيرا | على إنكار مرتبتي وبغضي
فإن العلم نور الله يعطي | إنارته لبعض دون بعض [37]

وهي شهادة لانؤولها ببعض أهل مراكش للعلماء الشباب، كما قد يتوهم، بل باحترامهم وتقديرهم لكل من أهلته مداركه ومؤهلاته لتبوء مركز الصدارة مركز الصدارة والبروز، مهما كان السن التي هو فيها أما الجانب الاجتماعي بدوره، فقد مثله شعر الفترة كذلك، سواء منه ما صدر عن المغاربة انفسهم، أو ما صدر عن غيرهم من شعراء البلاد الاسلامية، وهو شعر في مجمله يكشف النقاب عن المستوى الأخلاقي

---

[35] الاعلام، ج 4 ص 256
[36] مات عام 1140 هـ
[37] الاعلام، ج 6 المطبعة الملكية الرباط، 1977م، ص 52

الذي كان عليه أهل مراكش في الفترة المشار إليها، وما جبلوا عليه من كريم الخصال وفاضل الشيم.

فإذا أوجز محمد بن عبد الملك المراكشي [38] في الثناء على هذه الخصال في قوله :

لله مراكش الحمراء من بلد ... وحبذا أهلها السادات من سكن

إن حلها نازح الأوطان مغترب ... اسلوه بالانس عن أهل وعن وطن

بين الحديث بها أو العيان لها ... ينشأ التحاسد بين العين والأذن [39]

نقول إذ أوجز ابن عبد الملك وهو من شعراء المغرب، وجدنا شاعرا آخر من الأندلس، وهو علي بن موسى العنسي [40] يطنب في تمجيد هذه الخصال، سواء منها ما فطر عليه أهل مراكش من مروءة وسماح، أو ما أعتادوه من احترام الضيف وتوقيره، والسعي في خدمته وتلبية مطالبه، والوفاء له والتحسر على فراقه مشيرا إلى أهل مراكش بلفظ الفتية :

قم هاتها لاح الصباح ... ما العيش إلا الاصطباح

مع فتية ما دأبهم ... إلا المروءة و السماح

جربتهم فوجدتهم ... ما للمنى عنهم براح

يثنيهم نحو الصبا ... ثغر المثاني والمراح

ما نادموا شخصا فكا ... ن لهم بخدمته استراح

---

[38] مات عام 703 هـ
[39] الاعلام، ج 4، ص 332
[40] مات عام 685 هـ

بل يعرفون مكانه ... فله إذا شاء اقتراح

هم يتعبون وضيفهم ... ما دام عندهم يراح

ما ان يملون النزيـ ... ـل وبالرضى منه السراح

يدعونه باجل ما ... يدعى به الحر الصراح

حتى إذا ما بان كد ... ر عيشهم منه انتزاح

فعلى مثالهم يبا ... ح لي المدامع والنواح[41]

ولئن كان الشاهدان المعروضان يعكسان تقريظ الشعراء لشيم المراكشيين وأخلاقهم، فلا مانع من أن نعرض هنا شاهدا آخر لا يقف وقفة الواصف المتأمل، بل وإنما يقف وقفة الممارس الذي يعكس بسلوكه هذا التقريظ أو الذي نعتبره وجها من وجوه التطبيق لمثل هذا النوع من التقريظ، وهو شاهد ناخذه من شعر أحد أبناء مراكش في الفترة المشار إليها، وهو أحمد بن علي المليانى [42] الذي يطرح بين أيدينا نمطا سلوكيا لا يحركه الزهو والافتخار، بقدر ما يصدر عن نفس نقية المخبر والجوهر، تواقة إلى أن يتجانس معها غيرها من النفوس في نقاوتها وطهارتها، يقول :

العز ما ضربت عليه قبابي ... والفضل ما اشتملت عليه ثيابي

والزهر ما أهداه غصن يراعتي ... والمسك ما أبداه نقش كتابي

والمجد يمنع أن يزاحم موردي ... والعزم يابى أن يسام جنابي

فإذا بلوت صنيعة جازيتها ... بجميل شكري أو جزيل ثوابي

وإذا عقدت مودة اجريتها ... مجرى طعامي من دمي وشرابي

وإذا طلبت من الفراقد والسهى ... ثارا فأوشك أن أنال طلابي[43]

---

41 الاعلام، ج 9 ص 162

42 البيتان من قصيدة للشاعر عبد العزيز بناني، من شعراء القرن الرابع عشر الهجري، انظر القصيدة في الاعلام، ج 1 ص 35

43 مات عام 715 هـ

وإذا كانت مدينة مراكش، كما أسلفنا، تعرف بعلمائها وأدبائها وتكون إحدى المحطات الهامة في مسيرة الفكر المغربي، فإنها إلى جانب ذلك تعتبر محطة بارزة في المجال الصوفي لما تحتضنه من الأولياء الصالحين تشد إليهم الرحال وتلقى بين أيديهم الرغائب وخاصة منهم الرجال السبعة الذين قيل فيهم وفي المدينة التي لحدوا فيها :

لقد فخرت مراكش بأئمة ... فكانت بهم عذراء واسطة العقد

هم السبعة الأقطاب والأنجم التي ... بها يستضا من حالك الجهل والجحد [44]

ولئن تكاثرت الأمداح والتوسلات التي قيلت في أولياء مراكش، وخاصة في الفترة المشار إليها، فإن من الجدير بالإشارة أنها أمداح وتوسلات لم تقتصر على الشعراء المغاربة وحدهم، بل تجاوزتهم إلى غيرهم من شعراء الإسلام ولاسيما أهل الأندلس، منهم الذين نكتفي بإيراد نموذجين اثنين مما أبدعوه في هذا المضمار، أحدهما للشاعر ابن زمرك [45] مثنيا على القاضي عياض أحد الرجال السبعة، وصاحب " الشفا " إذ يقول من قصيدة :

وجسر ركاب للصبا قد ونت به ... نجائب سحب للتراب نزوعها

تسل سيوف البرق ليدي حداتها ... فتنهل خوفا من سطاها دموعها

تعرضن غربا يبتغين معرسا ... فقلت لها مراكش وربوعها

لتسقي اجداثا بها وضرائحا ... عياض إلى يوم المعاد ضجيعها [46]

أما ثانيهما فللشاعر لسان الدين بن الخطيب، وقد قاله على لسان السلطان الغني بالله بن الأحمر الأندلسي يلتمس من الولي الصالح أبي العباس السبتي، أحد الرجال السبعة، إجابة دعائه في رجوعه إلى ملكه وهو يومئذ مخلوع بفاس، يقول :

---

[44] أعلام المغرب، ج 4 ص 256
[45] ماتو عام 798 هـ
[46] أزهار الرياض، ج 4 ، تحقيق سعيد أحمد أعراب ومحمد بن تاويت، مطبعة فضالة المغرب ص 287

يا ولي الاله أنت جواد	وقصدنا إلى حماك المنيع
راعنا الدهر بالخطوب فجئنا	نرتجي من نداك حسن الصنيع
فمددنا لك الاكف نرجي	عودة العز تحت شمل جميع
قد جعلنا وسيلة تركب الزا	كي وزلفي إلى العليم السميع
كم غريب أسرى إليك فوافى	برضى عاجل وخير سريع [47]

ومن المعلوم أيضا أن مدينة مراكش تعتبر مهد المآثر العمرانية والحضارية المختلفة، تلكم التي تقف شاهدا على عظمة تاريخ المدينة، وسمو مكانتها.

وإذا كانت هذه المآثر تتميز بالكثرة والتعدد، فحسبنا اختصارا، وفي الحقبة المشار إليها، أن نقف عند واحد من هذه المآثر، شغل الشعراء والملهمين في عهده فراحوا يخصونه بأشعارهم، وينطقون بلسانه كلما دعت المناسبة إلى ذلك، ذلكم هو قصر البديع الذي شيده المنصور بمدينة مراكش، فزادها بذلك فخارا واعتزازا، عبر عنهما أحد الشعراء الفترة إذ قال :

كل قصر بعد البديع يذم	فيه طاب الجنى وفيه يشم
منظر رائق وماء نمير	وثرى عاطر وقصر أشم
إن مراكشا به قد تناهت	مفخرا فهي للعلى الدهر تسمو [48]

ولئن كانت الأشعار التي وصفت هذه المعلمة العمرانية خصبة وكثيرة، فإن الكثير منها قد نقش على جهات من هذا القصر تخليدا لقيمته وإعلاء لشأنه، وهو كما أكدنا تخليد لقيمة المدينة كذلك، وإعلاء لشأنها.

---

47 الاعلام، ج 1، ص 297

48 نزهة الحادي، ص 104

وإذا كان الوقت المحدد لهذه المداخلة لا يسعفنا باستعراض الكثير من هذه الأشعار، فربما نكتفي بنموذجين منها، على أن نحيل على مظان الباقي ومصادره، وخاصة منها نزهة الحادي لليفرني [49].

فأما النموذج الأول فنختاره من شعر علي بن منصور الشيظمي [50] وقد نقش على أحد أبواب القصر :

الحسن لفظ وهذا القصر معناه	ياما أميلح مرأه وأسناه
فهو البديع الذي راقت بدائعه	وطابق اسم له فيها مسماه
صرح أقيمت على التقوى دعائمه	ودل منه على التاريخ مغناه
ولاح أيضا وعين الحفظ تكلاه	تاريخه من تمام قل هو الله [51]

وأما النموذج الثاني فلعبد العزيز الفشتالي، وقد كتب على بهو البديع :

لله بهو عز منه نظير	لما غدا كالروض وهو نضير
رصفت نقوش حلاه رصف قلائد	قد نضدتها من النحور الحور
فكأنها والتبر سال خلالها	وشي وفضة تربها كافور
وكأن أرض قراره ديباجة	قد زان حسن طرازها تشجير [52]

ومعلوم ما تضفيه هذه النصوص وأمثالها من قيمة، لا على البديع وحده، ولكن أيضا على المدينة التي تحتضنه

---

49 من صفحة 104 إلى ص 111
50 مات عام 1012 هـ
51 الوافي بالأدب العربي، ج 3 ص 677
52 شعر عبد العزيز الفشتالي، ص 327

وإذا خلصنا في النهاية إلى الجانب الطبيعي، وجدنا شعر الفترة لا يغفل عنه، بل يصور المدينة ذات طبيعة خلابة ومنتزهات أخاذة، إلى درجة جعلت بعض الشعراء ينعتها بالجنة لجمالها وبهائها، كما هو الحال بالنسبة لعبد العزيز الملزوزي [53] الذي يقول :

لمراكش فضل على كل بلدة	وما أبصرت عين لها من مشابه
وما هي الا جنة قد تزخزفت	ولكنها حفت لنا بالمكاره [54]

وإذا كان علينا أن نبحث عن هذه المكاره التي أشار إليها الشاعر دون أن يفصل فيها، ربما توقعنا أن تكون قلة الأمطار فيها، كما صور ذلك ابن خروف [55] وإن كان طرف من تصويره منافيا للحقيقة :

يطوف السحاب بمراكش	طواف الحجيج ببيت الحرم
يروم نزولا فلا يستطيع	لسفك الدماء وهتك الحرم [56]

أو توقعنا أن تكون هذه المكاره عدم الاعتدال في مناخ المدينة إذ هو شديد الحرارة في فصل الصيف، قارس البرودة في فصل الشتاء كما قال الشاعر الأندلسي أبو قاسم محمد بن أيوب الغافقي [57] :

مراكش إن سألت عنها	فإنها في البلاد عار
هواؤها في الشتاء ثلج	وحرها في المصيف نار [58]

---

53 مات عام 697
54 الاعلام، ج 1 ص 67
55 مات عام 609 هـ
56 الاعلام، ج 4 ص 212
57 مات عام 608 هـ
58 الاعلام، ج 1، 228

أو توقعنا أن تكون هذه المكاره أخيرا كثرة الزوابع التي تعرفها المدينة، والتي جعلت عبد الرحمن بن أبي القاسم الشفشاوني [59] يهجوها فيقول في قصيدة يخاطب فيها جماعة من أصدقائه بمراكش :

ما كان ظني وحق الله فرقتكم	لو أن مراكشا كانت تواتيني
أظل في نصب مما أكابد من	نفض الغبار ومن طرد الذبابين

إلى أن يقول :

منوا علي بإطلاقي بفضلكم	هذا العجاج بها قد كاد يعميني
لم يبق في الكيس فلس استعين به	أفنيت مالي في غسل وتصبين [60]

إلا أن هذه المكاره، مهما تنوعت وتعددت، فإنها لا يمكن أن تحجب عنا هذه الجنة التي تتميز بطيب هوائها وساحر طبيعتها، ذلكم السحر الذي يستقطب لها الوافدين والزوار من كل جدب وصوب، والذي يعتبر عنوان امتيازها وشاهد روعتها كما نطقت بذلك أحاسيس الشاعر الأندلسي لسان الدين بن الخطيب وقد أشرف على مراكش :

ماذا أحدث عن بحر سبحت به	من البحار فلا إثم ولا حرج
دحاه مبتدع الأشياء مستويا	ما إن به درك كلا ولا درج
حتى إذا ما المنار الفردلاح لنا	صحت ابشري يا مطايا جاءك الفرج
قربت من عامر دارا ومنزلة	والشاهد العدل هذا الطيب والارج [61]

---

[59] مات عام 993 هـ

[60] جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس، لاحمد بن القاضي، القسم الثاني، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1974م، ص 413.

[61] الاعلام، ج 1، ص 68

وحسبنا في الأخير أن نستلهم نموذجا من شعر الفترة يصور ما يختلج في نفوس المغاربة وغيرهم من أشواق لزيارة مراكش، والتملي بطلعتها البهية الحسناء، التي جعلت محمد الوجدي الغماد [62] أحد شعراء المغرب الشرقي يردد في هذا النموذج ويردد معه كل ما يعشق الطبيعة، ويهيم في بحر جمالها وفتنتها :

جسمي بفاس رهين في معالمها	وليس ينفك عن بلوى يعانيها
ولي بمراكش شوق أكابده	لو أسعد الدهر في مرأى مغانيها [63]

[62] مات عام 1033 هـ
[63] ازهار الرياض، ج 4، ص 303

من الملوك الشعراء
أبو العباس أحمد المنصور السعدي
956 هـ - 1012 هـ

الأستاذة نجاة المريني
كلية الآداب
الرباط

تقديم

تميز العصر السعدي بكثير من الخصائص والمميزات على عدة مستويات، فعلى المستوى السياسي كانت معركة وادي المخازن 986 هـ حدا فاصلا بين طمع الأجانب وتمرد الثائرين، وبين تمكن السلطان عبد الملك السعدي ومن بعده المنصور من إرساء قواعد الحكم من جديد في المغرب، فتحقق الأمن والاستقرار بعد فترات قلائل واضطرابات، وأصبحت مدينة مراكش مقصد سفراء الدول الإسلامية والأجنبية، وعلى المستوى الاقتصادي نشطت الحركة الاقتصادية فكثرت المصانع واتسع نطاق المعاملات التجارية مع الدول الأجنبية، فعم الرخاء والرفاه، وعلى المستوى الحضاري بلغ العمران أوجه في بناء الدولة والقصور، ويعد قصر البديع آية المعمار السعدي روعة ودقة، على المستوى الثقافي والأدبي نجد أن العصر السعدي من العصور المتالقة علما وأدبا وفكرا، وما الانتاجات المتنوعة والكثيرة إلا دليل على نبوغ أبناء الفترة السعدية وتفوقهم في الميدانين الأدبي والفكري.

ولعل الظاهرة المتميزة في نبوغ هؤلاء الابناء هي نبوغ الملوك والأمراء السعديين، فلم يكن الحكم ولا السلطة لتشغلهم عن الدرس والعلم، ولا عن المشاركة في فنون القول شعرا ونثرا.

ومن أبرز الملوك السعديين الذين نالوا شهرة سياسية وعلمية في عصرهم السلطان أبو العباس أحمد المنصور السعدي موضوع هذا البحث.

حياته

هو أبو العباس أحمد المنصور السعدي ابن أبي عبد الله القائم بأمر الله، ولد بفاس سنة 956 هـ أمه من الصالحات وهي مسعودة بنت الشيخ أبي العباس أحمد الوزكيتي، تربى في بيت العز والملك في عفاف وصيانة، وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه من لدن عقدت عليه التمائم [1]. وكان والده المهدي " ينبه على أنه واسطة عقد أولاده " [2] . أما صفاته وأخلاقه فقد تحدث عنها بتفصيل ابن القاضي في كتابه المنتقي المقصور على مآثر الخليفة أبي العباس المنصور، [3] والفشتالي في كتابه مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا حيث يقول عنه : " كان دمث الأخلاق، ميمون النقيبة، حسن السيرة، خدن العافية، محبا للعلماء، ناجح المسعى، جماعا للأموال، مستكثرا من ذخائر الملوك، مؤلفا باقتناء نفيسها، طامح العين إلى كل مرمى بعيد " [4] .

وتتنوع مشارب ثقافة المنصور السعدي فتشمل الأدب واللغة والتاريخ و المنطق والفقه والحديث والرياضيات وغيرها من العلوم، فقد كان مبرزا في كل ميدان معرفي سلك شعابه، وفي ذلك يقول عنه شيخه المنجور " خليفة العلماء وعالم الخلفاء " [5] . ومن شيوخه المنجور (995 هـ) صاحب إجازته الشهيرة، والقاضي الحميدي (ت 1003) والشيخ الجنوي ت 991 وغيرهم من الأعلام الذين كانت لهم إسهامات ومشاركات في الفقه والحديث واللغة والأدب والطب والرياضيات، ولم يكن الملك الطالب ليكتفي بالأخذ عن هؤلاء، بل إن مدارسة العلم واللغة معه قد أفادت شيخه المنجور حيث يقول : " كثيرا

---

1 - 2 نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لليفرني طبعة مجرية ص 72.
3 مخطوط الخزانة الملكية. وقد طبع أخيرا بتحقيق الاستاد رزوق.
4 تحقيق عبد الله كنون ص 17. وانظر الحديث مفصلا عن أخلاقه في نفس المصدر ص 126.
5 فهرست المنجور، تحقيق الدكتور محمد حجي، ص 9.

ما سامرته، وما رأيت أجود من فهمه وأكثر من علمه، أفاد مني وأفاد، لكن ما أفاد أكثر مما استفاد "[6] وينوه الشاعر الفشتالي بمخدومه المنصور في براعته الأدبية فيقول : " وأما منظوماته الفائقة وأدبياته الرائقة فأقول : إن هذا الإمام أيده الله وإن كان في سائر العلوم علما تاتم الهداة به فلا كفن الأدب، فهو الروض الذي لا تزال طيور أفكاره صادحة على ايكه، وشموس إحسانه بازغة من فلكه ... فهو أيده الله أخذ من شرف الشعر باسمه، وتصرف على حكمه، اية في فرضه ونقده وحله وعقده، حسن الاختراع لطيف التوليد ..." [7]. وكما كانت له مشاركة في نظم الشعر وتوليد المعاني فقد كانت له مشاركة في التاليف، من ذلك كتابه في علم السياسة وفي الأدعية المأثورة، [8]. وديوان لأبي العباس أحمد " جمع فيه شعراء أهل البيت النبوي، أتى فيه على أزيد من ألف ترجمة " [9] .

بيعته وخلافته

بويع له بالخلافة سنة 986 هـ إثر الانتصار الكبير الذي حققه الجيش المغربي بقيادته وقيادة أخيه السلطان عبد الملك على النصارى الذين ساندوا المتوكل على الله في معركة وادي المخازن أو معركة الملوك كما هو معروف، وبموت عبد الملك بويع السلطان أحمد المنصور ملكا للمغرب، وقد " اجتمع عليها - أي االبيعة - من حضر هناك من أهل الحل والعقد، ثم لما قفل المنصور من غزوته تلك، ودخل حضرة فاس يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة من السنة المذكورة جددت له البيعة بها، ووافق عليها من لم يحضرها يوم وادي المخازن، ثم بعث إلى مراكش وغيرها من حواضر المغرب وبواديه، فاذعن الكل للطاعة، وسارعوا إلى الدخول فيما دخلت فيه الجماعة " [10] .

---

6 نقل هذا القول عن الشيخ المنجور أحمد بن القاضي في كتابه المنتقى المقصور م خ م ص 6.
7 مناهل الصفا ص 206.
8 مناهل الصفا ص 215 / 217.
9 دليل مؤرخ المغرب الأقصى لابن سودة ص 432.
10 الاستقصا للناصري ج 5 ص 91.

لقد عرف المغرب في عهد المنصور ازدهارا اقتصاديا و عمرانيا و ادبيا، فاصبح محط انظار الدول المختلفة ، تسعى الى عقد الصلات بينها وبينه، والى تبادل الوفود و الزيارات ، وقد اسهبت المصادر التاريخية العربية والاجنبية في الحديث عن هذه الصلات ، وعن مكانة المنصور السعدي كحاكم سياسي ذي نفوذ قوي وكبير [11] وقد امتدت فترة حكمه من سنة 1012 هـ ، فقيل انه مات مسموما من طرف ولد زيدان باشارة من أمه ليستخلص الحكم لنفسه، وقيل انه مات بالوباء الذي انتشر بالمغرب في تلك السنة، فدفن اول الامر بفاس ، ثم نقل جثمانه الى مراكش حيث دفن في قبور الاشراف السعديين، وقد نقش على رخام قبره [12]

هـذا ضـريـــح مـــن غـــدت	بـــه الـمـعـانـــي تـفـتـخـر
احـمـد مـنـصـور الـلـوا	لـكـل مـجـد مـبـتـكـر
يـارحـمـة الـلـه أسـرعـي	بـكـل نـعـمـي تـسـتـمـر
وبـاكـري الـرمـس بـمـا	ء مـن رضـاه مـنـهـمـر
وطـيـبـي ثـراه مـن	نـد كـذكـره الـعـطـر
وافـق تـاريـخ الـوفـا	ة دون تـفـنـيـد ذكـر
مـقـعـد صـدق داره	عـنـد مـلـيـك مـقـتـدر

مصادر شعره

لاشك أن الحديث عن الخليفة ابي العباس احمد المنصور متشعب المسالك متنوع المشارب، في السياسة والاقتصاد والعمران والاجتماع، وغير ذلك وطبيعة الموضوع الذي أريد علاجه بالجانب الأدبي في شخصية الخليفة المنصور، وباسهامه في ميدان

---

[11] انظر تفصيل ذلك في كتاب مناهل الصفا للفشتالي، وفي مخطوط المنتقى المقصور لابن القاضي وفي نزهة الحادي لليفرني، وفي :

- Les sources imédites de l'histoire du Maroc
- Premièr serie dynastie Saâdienne

[12] نزهة الحادي ص 170 الاستقصا ج 5 ص 178.

الشعر كشاعر مبدع يعبر عن خلجات النفس وعن تدفق الشعور، يجالس الشعراء في مجالسه كواحد منهم، يبدي ويعيد بآرائه في الموضوع، ويبيح لنفسه كشاعر ما لايبيحه لها كخليفة حاكم في الأوقات التي كان ينصرف فيها إلى قول الشعر، وإلى مشاركة غيره من الشعراء في قدح الزناد بما تجود به قريحته.

ولم يكتف المنصور بكونه شاعرا متفوقا، بل كان ناقدا ذا حس مرهف، وذوق رفيع، فهو معجب بشعر المتنبي يحفظه عن ظهر قلب، بل إنه يأمر شاعره عبد العزيز الفشتالي بترتيب ديوان المتنبي على طريقة المغاربة، ذلك أنه نظر إلى هذا الديوان نظرة مشفق على بضاعته وغيور على صناعته، فرأى أيده الله عدم ترتيبه، وإغفال تبويبه، وخلو جمعه من ضابط، وعزو موصوله من صلة ورابط، نقصا في إحساسه، وحصرا في لسانه (...) وعلى أن بعض الفضلاء وإن كان قد فوق إلى هذا الغرض نباله، و اشرع إليه نصاله، وجرى في ترتيبه على حسب ما في وسعه ومقدوره، ونظم في قلادة جمعه ما التقطه من فرائده وشذوره، فقل ان وجد في ترتيبه لشعره المشهور، مستقصيا في جمعه لنظمه الذي صححه أئمة المنظوم والمنشور إذ كان اقتصر على ما اصحت عنده روايته، ووقف في الاجتهاد حيث وقفت في مجال الدراية رايته (...) فآثر أيده الله الاتيان في ذلك بالجمع المتناهي، وجبر ما أغفله الساهي، بأن أمر خلد الله سلطانه، ومهد أوطانه، باستقصاء ما اشتملت عليه خزائنه الحافلة العلمية، واحتوت عليه من نسخ هذا الديوان العتيقة المنسوبة المروية، وأشار بتحرير نسخه منها تشتمل على نظمه المروي المجاز، وشعره الذي ليس في صحة رؤيته احتمال ولامجاز، وأمر أيده الله ونصره، وأسعد أصاله وبكره، بترتيبها على حروف المعجم على طريقة المغاربة واصطلاحهم والجري في وضعها على بيانهم وإيضاحهم، ليرتفع بهذا التحرير العجيب عن شعره المروي الشك والارتياب، ويسهل بهذا الترتيب اهتداء المطالع إلى محل الحاجة من الكتاب " 13

---

13 مقدمة ترتيب ديوان المتنبي م خ ح.

فعناية المنصور بترتيب ديوان المتنبي تدل على نحو جديد اتبعه في دراسة هذا الشعر وتوثيقه والتدقيق فيه، ومن ثم فقد امتاز عمل عبد العزيز الفشتالي بأنه قام ب :

- ترتيب ديوان المتنبي على حروف المعجم حسب ترتيب المغاربة.

- تحقيق الأشعار واعتمادا على نسخ أصيلة كثيرة كانت متوفرة عند المنصور السعدي.

- تقديم بعض القصائد بالإشارة إلى مناسباتها.

- إغناء الترتيب بطرر وحواش تؤكد تفوق المغاربة في اللغة والنحو والأدب، وكلها تشير إلى سرقات واردة عند المتنبي، أو إلى أخطاء لغوية أو بلاغية وقع فيها وكان عليه أن يتجنبها، وأهم ما يتميز به هذا الترتيب هو توقيفات المنصور بخطه عند أبيات نالت إعجابه أو استرعت اهتمامه في الغزل أو الحكمة أو الوصف أو في غيرها من المواضيع، فالنسبة إلى هذه الاختيارات في هذا الترتيب المصنوع يؤكد امتيازه بذوق فني رفيع كأديب ناقد في عصره.... ومن توقيعاته قول المتنبي [14] .

إن القتيل مضرجا بدموعه　　　مثل القتيل مضرجا بدمائه

أو قوله :

واظلم أهل الظلم من بات حاسدا　　　لمن بات في نعمائه يتقلب

أو قوله :

وفي النفس حاجات وفيك فطانة　　　سكوتي بيان عندها وخطاب

---

[14] ترتيب ديوان المتنبي م خ ع .

وقبل الحديث عن موضوعات شعر الخليفة المنصور يجمل بنا أن نشير إلى مصادر شعره وأهمها :

- مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا للشاعر المؤرخ عبد العزيز الفشتالي : [15].

في هذا الكتاب نجد مجموعة شعرية هامة للخليفة المنصور في المناسبات المختلفة، ينقل بعضها الفشتالي من تقييد بخط يد الخليفة حيث يقول : " وقد رأيت أن اعول في إثبات ماله من ذلك وترتيبه على تقييد بخطه أيده الله تكلم فيه على بعض مآخذه، والموازنة بين كلام القوم وكلامه " [16].

- المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور لأحمد بن القاضي [17]. وهو يضم أشعاره ومقطعاته التي كان ابن القاضي يثبتها حسب مناسباته خاصة وأنه خصص هذا الكتاب للتاريخ لحياة الخليفة ولأعماله ومنجزاته كما توجد بعض منتخباته الشعرية أيضا في مؤلفي ابن القاضي درة الحجال في غرة أسماء الرجال [18]. وجذوة الاقتباس [19].

- روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس [20] : لأحمد المقري وهو يتضمن أشعارا سعدية كثيرة تتصدرها أشعار الخليفة المنصور ومقطعاته.

---

15 تحقيق الاستاد عبد الله كنون كما قام بتحقيق الجزء الثاني الدكتور عبد الكريم كريم أما الشاعر عبد العزيز الفشتالي فقد تمت بصنع ديوانه وتحليله.

16 مناهل الصفا، تحقيق كنون ص 207

17 مخطوط الغزانة الملكية بالرباط، وقد صدر أخيرا في جزأين بتحقيق الأستاد رزوق.

18 في ثلاثة أجزاء بتحقيق الاستاد الاحمدي أبو النور.

19 في جزأين بتحقيق الأستاد عبد الوهاب بن منصور.

20 بتحقيق الاستاد عبد الوهاب بن منصور صدرت في طبعتين الأولى سنة 1964 والثانية 1983.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب للمقري [21] . وفيه اعتنى المؤلف خديم الحضرة السلطانية المراكشية ابي العباس أحمد المنصور برواية أشعاره وموشحاته خاصة في الجزء السابع من هذا الكتاب.

- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لليفرني [22] . وهو كتاب في تاريخ السعديين إلى عهد المولى إسماعيل، وفيه يورد المؤلف مجموعة من مقطعات الخليفة المنصور وتعليقاته عليها مع شرحه للغامض من توررياتهاومعمياتها، ويشير اليفرني في كثير من الأحيان إلى أنه ينقل عن الفشتالي في كتابه المناهل يقول : " أما نظمه فالسحر الحلال، وأرق من الماء الزلال لتكامل محاسنه وتكاثر بدائعه، وهنا انا اثبت منه قطعا، واجلو عليك منه لمعا " [23] .

أما المصادر الشرقية، فقد اهتم بعضها بانتاج المغاربة في القرن الحادي عشر، وأثبتت منه نماذج متنوعة لشعراء العصر السعدي من هذه المصادر كتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي، وسلافة المصر لابن معصوم، وريحانة الالبا للخفاجي، وغيرها من المؤلفات .

موضوعات شعره

مما يؤسف له أننا لم نعثر على قصائد مطلوبة للملك الشاعر أحمد المنصور، وإنما هي مقطوعات ونتف تتوزع بين مواضيع وأغراض دأب على النظم فيها كفيره من الشعراء، ويرى المقري في روضة الآس أن السبب في ذلك يعود إلى أن " الملوك لاتاتي بالكثير من النظم، وإنما تاتي بالقدر الذي يدل على سلامة طبعها فقط " [24]

---

21 تحقيق الدكتور إحسان عباس، في ثمانية أجزاء.
22 طبعة مجرية، ص 123.
23 نزهة الحادي ص 123 ويظهر أن النص المنقول عنه مفقود.
24 روضة الأسى ط 1 ص 36.

أما موضوعات شعره، فتدور حول المحاور الآتية :

الغزل، الوصف، الموشحات، المساجلات .

الغزل

من الأغراض الشعرية التي برع فيها الخليفة المنصور من خلال مقتطعات كثيرة فهو يبدي شوقه ويكشف عن حرقته ولواعجه في مثل قوله [25] .

تبدى وزند الشوق تقدحه النوى	فتوقد أنفاسي لظاه وتضرم
وهش لتوديعي فاعرضت مشفقا	على كبد حرى وقلب يقسم
ولولا ثواه بالحشا لاهنتها	ولكنها تعزي إليه فتكرم
فاعجب لأساد الشرى كيف تحجم	على أنه ظبي الكناس ويقدم

وكذلك في مثل قوله [26] .

لما نأى المحبوب رق لي الدجى	واتى يعللني برعي كواكبه
اولى غراب البين ودك ياحشا	والبين مزني الصباح كواكبه

والحديث عن الشوق واللوعة يعد من المحاور الأساسية في الغزل، فكثيرا ما يكتوي الشاعر بنار الهجر، ويشعر بمرارة الضياع فتملأ قلبه الحسرة، ويهيم في عالما الخاص مكتوبا بهذا الهجر، شاكيا هذا البعد، مؤملا في الوصال بلغة رصينة كثيرا مايحملها ألوانا بلاغية لتأكيد معاناته النفسية في هذا الشعر.

وكغيره من الشعراء يصف جمال حبيبته، فيتحدث عن قدها وعن مبسمها مستعيرا صوره الشعرية الدقيقة من مظاهر الطبيعة فهو يقول [27] .

---

25 روضة الآس ط 1 ص 52.
26 روضة الآس ط 1 ص 38.
27 روضة الآس ط 1 ص 43.

لا وطـرف عـلـم الـسيـف فقد — فـي قـوام كقنـا الـخـط نـهـد

ووميـض لاح لـمـا بـسـمـت — فـأرتـنـا منـه درا أو بـرد

مـا هـلال الافـق الأحـاسـد — منـك حسنـا وعـلاء وغـيـد

ولـذا عـاش قـلـيـلا نـاحـلا — كيف لايفنني نحولا من حسد ؟

إنه يستمد صفات حبيبته من القاموس الشعري المتداول، في تشبيهاته وصوره، في أخيلته وصفاته، فقوام الحبيبة كقنا الخط، وابتسامتها كوميض البرق انه غير ذلك..

والخليفة المنصور لايتحرج من ذكر أسماء محبوباته، فهو يقول في إحداهن واسمها نسيم [28].

ياهـلا لاطـلـوعـه بـيـن حـجـبـي — وغـزا لاكنـاسـه بـيـن جنـبـي

ان سهـمـا رمـيـت غـادرهـمـا — لوتنـاهـى ما شك آخـر قـلـبـي

ويقول في أخرى واسمها سلاف [29].

واحـور وسنـان الجفـون كأنما — سقي لحظـه من ريق فبه بقرقف

نضى صارمـا لافـل صارم لحظه — تزايـد منـه منـذ سـل تلاطـف

وتكشف غزليات الخليفة المنصور عن إعجابه بالجمال، وعن رغبته في التمتع بهذا الجمال في مثل قوله [30].

---

28 - 29 مناهل الصفا للفشتالي، تحقيق كنون ص 208.
30 مناهل الصفا للفشتالي، تحقيق كنون ص 208.

على جدول غطت علي بشعرها لئلا يرى الشمس الرقيبة لي طرف

فبت ارى جدولى بدر وجهها غريقا ونقطات العبير به كلف

الوصف

وهو من أكثر الفنون الشعرية شيوعا، ومن أخصبها مادة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، فالشاعر العربي وصف الطبيعة الحية والجامدة، ووصف المرأة وبعض العادات والتقاليد، دون أن ينسى الفضائل الخلقية ليتحدث عنها مادحا كل متجل ومتصف بها ... وهكذا فإن الوصف قد عرف ازدهارا كبيرا في العصر السعدي، فهو امتداد للظاهرة من جهة، وهو تطور لها من جهة أخرى، حيث تنافس الشعراء السعديون في وصف المآثر العمرانية وأشهرها قصر البديع بمراكش، وأصبح الوصف عندهم غرضا مستقلا يكشفون فيه عن طاقاتهم الإبداعية، ويصورون فيه ماآلت إليه الحضارة المغربية من حيث العمران والتشييد في قصائد مطولة أو في مقطوعات متوسطة يقول الخليفة المنصور في وصف نهر المسرة بقصر البديع [31].

نهر المسرة أن تسل منه الرحيق الاطيب

الطير فيها تنتقل والغصن فيها يشرب

ويقول في وصف رقيب ملازم [32].

رقيبي كان الأرض مرآة شخصه فإن تولى الطرف مني يراه

مقيم بوجه الوصل حتى كأنما وصالي هلال والسواد صداه

---

[31] روض الأسى ص 46.

[32] روض الأسى ص 36

ويعنى المقري في مؤلفه روضة الآس ينقل مقطعات المنصور الشعرية معلقا عليها في بعض الأحيان، من ذلك قوله [33]. وقال أيده الله : ومن الأبيات المثلثة قولي وقد قطفت وردة من روض المسرة في زمن النرجس :

وافى بها البستان صنوك وردة	يقضي بها لما مطلت وعودا
أهدى البهار محاجرا وأتى بها	في وقته كيما تكون خدودا
فبعثتها مرتادة بنسيمها	تثني من الروض النضير قدودا

وكان الخليفة المنصور معجبا بقصره البديع وبرياضه ومتنزهاته، فنجده يصف في بيتين شعريين روض المسرة والمشتهى في قوله [34].

بستان حسنك أينعت زهراته	ولكم نهيت القلب عنه فما انتهى
وقوام غصنك بالمسرة ينثني	ياحسنه رمانة للمشتهي

ويذيل المقري بيتي المنصور بقوله : " وقعت التورية في كلامه نصره الله بالبديع والمسرة والمشتهى، وهذه الثلاثة من مآثر الملوكية التي لم يخترع مثلها " [35].

وكثيرا ما يميل الخليفة الشاعر في أشعاره الوصفية إلى التورية والجناس في عبارات رقيقة وصور بديعة تنبىء عن عشق الجمال، سواء كان طبيعيا أو مصنوعا، وعن حسن توظيفه لصوره واخيلته بطريقة فنية متميزة وان في مقطوعات قصيرة.

الموشوحات

لعل ظهور فن الموشوحات كان ثورة على القصيدة العربية التقليدية في بنائها وموضوعها، تطور في فترة قصيرة بعد أن ظهر وشاع في بلاد الأندلس، وتعددت

---

33 روض الأسى ص 42
34 - 35 روض الأسى ص 46

تعريفات هذا الفن الذي كان ظهوره تلبية لظروف سياسية واجتماعية معينة، فهو كما يحدد في تعريفه الدكتور عباس الجراري مصطلح على فن مستحدث من فنون الشعر لايتقيد بالشكل التقليدي الذي التزمته القصيدة العربية لبنائها العضوي، يحاول التحرر منه إلى شكل جديد يعتمد تقسيم الهيكل إلى أجزاء يتنوع فيها الوزن وتتعدد القافية [36]. والملاحظ أن هذا الفن انتشر بشكل واسع في بلاد الشرق وفي بلاد المغرب الإسلامي وأصبح الشعراء يكثرون من النظم فيه في أغراض مختلفة، بل أصبح بعضهم يتبارى في ذلك مظهرا براعته وتفوقه على غيره خاصة في الوصف والغزل والخمريات، ومن أشهر الوشاحين الأعمى التطيلي وابن بقي وابن باجة وغيرهم.

أما في المغرب، فقد انصرف الشعراء إلى النظم في هذا القالب الشعري الجديد كما تشير إلى ذلك كثير من المصادر التاريخية، غير أن هذه الموشحات قد ضاعت كما ضاعت مصادرها، ولاشك أن الشاعر المجيد عبد العزيز الفشتالي قد لاحظ ذلك إضافة إلى إهمال كثير من المصادر التاريخية التي كانت تهتم بجمع الموشحات الأندلسية للموشحات المغربية، خاصة في كتاب ابن الخطيب جيش التوشيح الذي ضم خمسا وستين ومائة موشحة لستة عشر شاعرا ليس من بينهم مغربي واحد، فعمل الفشتالي على تأليف كتاب جعله تذييلا لكتاب ابن الخطيب وسماه " مدد الجيش [37]. جمع فيه أكثر من ثلاثمائة موشح لشعراء مغاربة، ومع الأسف الشديد فإن ضياع هذا الكتاب يعد خسارة كبرى لانتاج شعراء مغاربة برزوا في فن التوشيح، وحاول الفشتالي من خلال أشعاره أن يبرز براعتهم وتميزهم في هذا الفن إلى جانب شعراء الاندلس والمغرب ونجد في روضة الآس ونفح الطيب للمقري بعض النماذج القليلة في هذا الفن خاصة في العصر السعدي، من بين هذه الموشحات موشحتان للخليفة المنصور في الغزل [38]. يقول في الموشحة الأولى :

---

[36] موشحات مغربية ص 13

[37] انظر الفصل الخاص بالحديث عن مدد الجيش في كتابنا شعر عبد العزيز الفشتالي، جمع وتحقيق ودراسة، الطبعة الاولى 1986.

[38] انظر روضة الآس ص 56 - 57 نفح الطيب ج 7 ص 72 - 73 المنتقى المقصور م غ م ص 225.

ريان من ماء الصبا	اهيف ممتلىء البرد
كالغصن هزته الصبا	فوق الربى الشهب
قد قلت لما أن سبا	بحسنه لبي
من عينه سل ظبى	وغمدها قلبي
اسرني ماضي الشبا	ارظف مرنح القد

ففي هذه الموشحة يتحدث عن معاناته في تجربة حبه، وعن أمله في وصال حبيبه، وطمعه في قربه، متحسرا في نفس الوقت على هذه الجفوة والقطيعة في قوله :

وقاطعي ظلما ومن	مقره صدري

ثم قوله في مقطع آخر :

قلت له وقد نهد	وجد في حربي
وغلب الظبي الأسد	وفاز بالقلب

المساجلات

من المؤكد أن المجالس الأدبية التي كانت تعقد من حين لآخر في بلاط الخليفة المنصور للمناظرة والمناقشة، والاستماع إلى الأشعار الجديدة في المناسبات أو غيرها، قد فتحت بابا جديدا في الأدب أو بالأحرى أسهمت في توسيع مجاله ودائرته، وخاصة وأننا نعرف بأن العرب منذ القديم كانوا يهتمون بمجالسهم وشعرائهم ينصتون إليهم ويفاضلون بينهم باعتبار الشاعر لسان القبيلة المدافع عنها، كما أن المغاربة منذ عهود المرابطين قد عرفوا بميلهم لعقد هذه المجالس العلمية والأدبية، يترأسها الخليفة أو السلطان ويستدعى لها العلماء والشعراء من كثير من الجهات فكان لها الدور الحاسم في ازدهار الأدب وفي تنافس الشعراء والعلماء على الإجادة كل في ميدانه.

نتج عن هذه المجالس ظهور فن أدبي جديد، فن المساجلات الشعرية وفيه يحاول كل شاعر اظهار براعته في النظم متباريا مع غيره في أكبر مجلس يعقد بحضرة الخليفة المنصور باعتباره شاعرا مبرزا يحتكمون إليه ويثقون بذوقه الفني الرفيع عند إصدار الأحكام، ولم تكن لهذه المجالس أوقات خاصة بل كانت تعقد في كل وقت، في الإقامة والسفر، أو في الخرجات التي كانت مناسبة للتسلية والراحة، ومن أشعار هذه المجالس ما قاله الخليفة المنصور واصفا تمرا صنع بلا نوى [39].

للــــه تــمــــر طـيــــب وافــي عـلـى الـبـشـرى انطوى
يـاحـسـنـــه مـجـتـمـعـا يـحـلـــو لـنـــا بـــلا نـــوى

وقد عارض البيتين الشاعر عبد العزيز الفشتالي بقوله :

أكـــرم بـــه تـمــــرا حــــوى طـيـبـا عـلـــى الـنـشـر طوى
أهــــدى الــهـنـــا لأنـــه تـمــــر أتـــى بـــلا نـــوى

وعارضها كذلك الشاعر المسفيوي قائلا :

يا حـســـن تـمـــر جال في مـــاء نـعـيـــم وارتـــوى
فـأعـجـب لــه قــد بان عنــ ــه إلـفــه بـــلا نـــوى

ويشارك الهوزالي في المعارضة بقوله :

نـاهـيـك مـن تـمـــر عـــلا طـعـمـا وطـيـبـــا وروا
أكـــرم بـــه كـأنـمـــا أخـــلاق مـولـيـــه حـــوى
تـواصـلـــت أهـــــواؤه حـتـــى تـحـمـــاه بـالـنـوى

---

[39] روض الآس ص 47 - 48.

لقد كان المنصور كشاعر يبعث في شعراء مجلسه نفسا جديدا متوقد للمعارضة والمتابعة سواء على مستوى المعاني أو على الأساليب بما كان ينظمه من شعر وإن لم يتجاوز البيتين في أغلب الأحيان، بل لقد كان شعراؤه يتنافسون في معارضة ما يقول الشيء الذي جعل الفشتالي شاعره ومؤرخه يعلق على ذلك، منوها بجودة شعر في الاعتذار عن ترك الوداع ، وقد قدم لذلك الفشتالي قائلا في مناهل الصفا [40] " وفي مقامه أيده الله بمحلته السعيدة على اغمات، صدرت عن جلاله العالي أبيات من نظمه البارع في الاعتذار عن ترك الوداع وهي هذه :

كبدى وزند الشوق يقدحه النوى	فتوقد أنفاسي لظاه وتضرم
وهش لتوديعي فاعرضت مشفقا	على كبد حرى وقلب يقسم
ولولا ثواه في الحشا لاهنتها	ولكنها تعزى إليه فتكرم
فأعجب لآساد الشرى كيف تحجم	على أنه ظبي الكناس ويقدم

فانثال عليها من بالمحلة من كتاب حضرته وشعراء دولته انثيال الهيم على الورد، والنحل على الشهد، وكان أول الحلبة في ذلك الميدان، و أحرزهم لراية السبق يوم الرهان، شيخنا العالم العلامة مفتي الإسلام وعلم الإعلام، أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف أبقاه الله، فقال وأجاد في المقال :

واعجب من ذا طور طبري عندما	تجلى فدك والجنان مقيم
تحمل مني القلب من شرك الهوى	وحل اصطباري وهو من قبل مبرم
وغادرني مضنى حليف صبابة	وقدما بتعذيبي خليق ومغرم
فلله عينا من رآنا وبيننا	رسائل شوق لا تبين وتكتم

---

[40] ص 130 روضة الآس ص 52 - 54.

وقد عارض هذه الأبيات الغزلية الرقيقة التي تدل على حرقة الشاعر ولوعته لفراق حبيبته في ساعة وداع قاسية كثير من الشعراء منهم الهوزالي وعبد العزيز الفشتالي والمسفيوي وأبو عبد الله الفشتالي وغيرهم، ويظهر أن المنصور كان يشجع شعراء مجلسه على معارضة أبياته وينتقدهم أو يبدي إعجابه بهم في توليد معانيهم واختيار أساليبهم، منبها إلى أوجه الخطإ لتصحيحه مما يؤكد فعلا مشاركته الفعلية في السجال والمناقشة والمطارحة.

خصائص شعره

قد يكون من المتعذر الوقوف عند خصائص شعره ومميزاته لأسباب كثيرة من بينها قلة الأشعار التي توجد بين أيدينا، والتي لا يمكن من خلالها إصدار أحكام عامة على شعره، إضافة إلى أن ما وصلنا من هذه الأشعار عبارة عن مقطوعات ونتف في مواضيع ذاتية كالغزل والوصف والمساجلات المختلفة، ومما يدل فإن لهذه المقطوعات مميزات وخصائص لعل أبرزها الواقعية والصدق، فكان يصدر في تعبير عن عواطفه بما يشعر به معربا عما كان يعانيه فعلا في علاقته مع محبوبته مثلا أو في علاقته مع شعراء بلاطه وتنعكس في أشعاره ثقافته الواسعة، وقد لونت عباراته وأشعاره فعنايته بالمحسنات البديعية واللفظية واضحة في أشعاره، وكثيرا ما كان يرى فيها قدرة على الإبداع وتميزا في النظم، بل إنه كان يرى بأن الكلام الخالي من هذه المحسنات غير مستحسن ولا مقبول ، و لربما كان المنصور من شدة و لعه بهذه المحسنات وخوفه من ألا يفهم شعره يلتجيء إلى شرحها وتوضيحها كذيل لها، من ذلك ما نقله المقري في روضته [41] :

وقال نصره الله أيضا في أم آمنة من التعمية أيضا :

من شقائي قنصته وهو خشف	لم أقل فـ إن قلت فات فهمت
املد منه مذ تحلل خصر	وتثنى عن حبه ما عدلت

---

[41] روضة الآس ص 40 أنظر كذلك شروحه وتعليقاته على أشعاره في نفس الكتاب ص 41 - 42.

قال أيده الله : فقولي امد أردت الالف بعمل التشبيه، وتحلل خصر منه انتقاد، أردت بالخصر وسط لفظه منه، وتحلله ان ينحل السكون الذي على النون، وقولي : وتثنى أي الالف من التثنية لا التثني، فتم الاسم بحركاته وعدده، انتهى تفسيره أيده الله بمنه "

فالمنصور إذن يحاول شرحه وتوضيح الغامض فيه كي يقربه من الاذهان بالصورة التي كان يريدها والتي رسمها في ذهنه لموضوعه ومن مميزات شعره أنه كان نموذجا يحتذى به، فشعراء عصره في مساجلاته لهم يحاولون الاتكاء على معانيه وأساليبه كما سبق، ويحاولون استلهام موضوعاته وأفكاره في أشعارهم، مؤكدين تفوقه وتميزه، وفي ذلك يقول المقري : " واما نظمه نصره الله، فالغاية العليا، وستقف من ذلك على ما يسحر الألباب [42] . أما سلامة طبعه وحسن انتقاده فقد تحدث عنهما وزيره وشاعره الفشتالي قائلا " ونجده أيده الله أيضا إذا امتدح بنظم أو رفع إليه الشاعر كلمة يتدبر معانيها ويعرض على محك اختباره مبانيها، فإذا وجد لفظه ينظر إليها النقد بطرف خفي، ليخرجها عن سياج التأدب مع الله، ولو بأقل شيء مما لايقدح في عقيدة، ولا يحدث وصمة في الدين، وتورع عنها وجرح بالبراء من عهدتها، وأمر بنبذها أو إدالتها أو بأسهل منها، وربما أصلحها على قائلها إدا كان زمام القول بيده أيده الله، وهذا أمر لايجاريه في مضماره فرسان هذا الشأن [43] . وهكذا وعلاوة على حسن انقاده ودقته فإننا نلمس من خلال هذا النص تشبعه بثقافته دينية إسلامية، فلا يجمل بالشاعر أن يضمن كلامه ما يسيء إلى الدين ويحرص على ذلك ما أمكن.

وفي مقطوعات المنصور ما يؤكد ذلك، في - رغم معمياتها – تصدر عن شاعر متشبع بتعاليم الإسلام، وبثقافة إسلامية تربأ به ان يستعمل صيغا وتعابير تقدح في العقيدة أو تشينها.

---

[42] روضة الآسي ص 36.

[43] مناهل الصفا ص 137

ويحافظ المنصور على القالب الشعري التقليدي في موضوعاته، فيميل إلى استعمال البحور العروضية الخليلية كالطويل والبسيط والرجز والرمل، كما أنه يميل إلى التوسل بالفن المستحدث في الأندلس والمغرب والذي نال خطوة عند شعراء العدوتين، فاتخذوه قالبا شعريا جديدا لموضوعاتهم المختلفة، يتعلق الأمر بالموشوحات، فالمنصور ينظم على غرارها في التعبير عن المواضيع التي يريد علاجها، ولاشك أن المنصور برع في هذا الفن، وشجع على التوسل به، غير أن ضياع كتاب عبد العزيز الفشتالي " مدد الجيش " اسهم في ضياع كثير من موشحات المنصور على ما يبدو، والمتبقى من هذه الموشوحات موشوحات أوردها المقري في كتابيه روضة الآس، ونفح الطيب كما أورد له موشحة واحدة ابن القاضي في كتابه المتنقى المقصور. وعموما فإن الشاعر المنصور يبقى علما من أعلام الشعر في المغرب في عصره وفي غيره من العصور، وواحدا من الملوك المغاربة المتميزين الذين أغنوا الساحة الشعرية بإنتاجاتهم الإبداعية أو الإنتقادية، وممن شجعوا الحركة الأدبية أدبيا وماديا، فتسابق الشعراء إلى حضرته، وجودوا ما استطاعوا لينالوا رضى ملك الشاعر وتشجيعه ... وتبقى أشعار الخليفة المنصور صورة واضحة لأدب حقبة زمنية متميزة في تاريخ المغرب السياسي والأدبي، وكل ما نأمله مستقبلا أن تكشف الأيام عن المصادر الضائعة التي تضم أشعار الخليفة المنصور وغيره من الشعراء وخاصة أجزاء كتاب مناهل الصفا لنستطيع جمع هذه الأشعار ودراستها دراسة شاملة تتقصى كل النقط والمحاور، وتتدبر كل المعاني والصور ولاشك أن الرصيد الشعري السعدي رصيد هام جدا، لما كان يمثله من حفاظ على اللغة العربية وطابعها، وما كان يمثله من تطور وتجديد في مجال الإبداع الشعري. لقد كان العصر السعدي عصر إشعاع علمي وفكري انعكست آثاره في كل المجالات، وذلك بفضل عناية ملوكه و أمرائه بالعلم والعلماء، وبمشاركتهم في كثير من الأحيان في تطور الفكر والأدب.

مراكش وذهب السودان

الأستاد : محمد مزين
كلية الآداب
فاس

I - تمهيد

1 - في خريف سنة 1583 وصل خبر من لندن إلى مراكش مفاده أن سفينة بريطانية قادمة من المغرب غرقت في نهر الطايمز Tamise وكانت حمولتها هي السكر، لكن الغريب في الأمر أنه بعدما ذاب السكر في الماء ظهرت الحمولة الحقيقية وهي عبارة عن صناديق مملوءة بالذهب، وإذا كان الخبر قد أثار الاستغراب في أوساط العامة في مراكش فإنه لم يثر في أوساط التجار وفي الدوائر الرسمية إلا استياء كبيرا.

فاستغراب العامة كان نتيجة جهلها بخبايا أمور بينما جاء استياء التجار نتيجة انكشاف أمر كانوا على دراية به وهو تهريب الذهب، بل كان بعضهم يساهم فيه. أما استياء الأوساط الرسمية فقد جاء نتيجة ظهور شروخ في سياستها التجارية الخارجية.

2 - في نفس السنة 1583 خرجت من مدينة مراكش حملة عسكرية متجهة إلى بلاد التوات وتيكورارين، لم يفهم عامة الناس أسباب هذه الحملة ولا أهدافها.

3 - أخيرا أخبر أحد الجواسيس الإنجليز الملكة ايليزابيط في تقرير سري مؤرخ بعام 1584 ان بلاد التوات دخلت نهائيا في الايالة الشريفة، كما أخبر بظهور رواج كبير في أسواق الذهب بمدينة مراكش، وبارتفاع سعر المثقال الذهبي من 4 مثاقيل فضة إلى 8 مثاقيل.

إن مثل هذه الأخبار التي تثير عندنا اليوم نوعا من الاستغراب كانت معتادة في البلاطات الأجنبية حيث أن أرشيف لندن (Public Ricord)، وأرشيف لشبونة (Torre de Tombo) وغيرها من أرشيفات الدول التي كانت لها علاقات مع المغرب في القرنين 16 و 17 م مملوءة بالآفة الوثائق التي تحكي للباحثين اليوم عن عصر الذهب بمراكش عبر تقارير الجواسيس والتجار المسيحيين واليهود الذين أقاموا بالمدينة خلال عهد الشرفاء السعديين.

Nickola Morton, Williame Cecile, Edmond Hogan أسماء خلدها المؤرخ الفرنسي H. de Castrie في مجموعته المصادر الدفينة لتاريخ المغرب، كما خلد ارتباط مراكش بالذهب في أذهان الناس حيث تؤكد الوثائق التي أورد نصوصها الكاملة في المجموعة الانجليزية على أن مدينة مراكش كانت سوق الذهب بل برصة مغربية وعالمية في القرن 16 م كانت تؤثر على أثمان الذهب وبالتالي على قيمة العملات وعلى أثمان البضائع المتداولة بالمغرب و السودان وأوربا حتى اقترن اسم مراكش في أذهان السودانيين والأوربيين في ذلك العصر بتجارة الذهب، حيث كانت أنباء وصول قافلة قادمة من السودان أو خارجها من مراكش مناسبة يحضرها التجار المغاربة والأجانب وتتم أيامها التعاقدات المتنوعة بين مختلف فئات التجار الوافدين على المدينة.

ورغم هذا كله فإن اهتمام المؤرخين بالتأريخ لهذه الظاهرة اهتمام محدود، بل إن الدارسين لتاريخ مدينة مراكش أيام الشرفاء السعديين لا يعيرون أي اهتمام لقضايا التجارة والذهب. ويبقى عذرهم عن عدم توفر المصادر غير مقنع، ولو أن واقع المصادر المراكشية والمغربية عامة لا يشجع على مثل هذا النوع من الدراسات.

ولا أطمح في هذا العرض الوجيز التأريخ لتلك الظاهرة لأن مثل هذا العمل يتطلب مجهودا أوسع ووقتا أطول. وسينحصر مجهودي المتواضع في هذا التدخل في القيام بحفريات أولية في هذا الباب، جمع شتات المعلومات المتناثرة هنا وهناك في كتابات العصر.

وستكون منطلقات هذا البحث نابعة من أسئلة بسيطة يكون أساسها الرد على تساؤل محوري هو ما هي مكانة مدينة مراكش الحقيقية في تجارة الذهب خلال القرنين الخامس والسادس عشر الميلاديين ؟ على أن يتم التمهيد لهذا السؤال بالبحث في أخبار علاقة مراكش بتجارة الذهب قبل تلك الفترة

II - أخبار الذهب بمراكش أيام المرابطين والموحدين والمرينيين

إن المتأمل لأخبار الذهب بمراكش إلى حدود عهد بني مرين يخرج بملاحظتين اثنتين :

- أولهما غياب الحديث عن الذهب في جل المصادر المتعلقة بمراكش ما عدا في القليل النادر منها ككتاب البكري وكتاب الادريسي أهو سكوت حذر ومتعمد أم غياب صارخ لكل حركة تجارية تعتمد الذهب كأساس بمراكش أيام الدولتين المرابطية والموحدية بالخصوص ؟ فحسب جاك مونيي وجاستون دوفيردان لا أثر للذهب بمراكش خلال هذه الفترة ولا ذكر لأي مكان لصك العملة الذهبية، وما ذكر في بعض المصادر من إشارات غير مباشرة في الموضوع نادر ومشكوك في صحته.

ومع هذا كله فقد عرفت بالأندلس عملة ذهبية مرابطية كانت تدعى "المرابطي". Moravldis أهي عملة صكت بمراكش وراجت في الأندلس أم هي عملة صكت بالأندلس واستمر ذلك بقشتالة ؟

لا يمكن اليوم الإجابة عن مثل هذا السؤال.

الواضح أن من وراء اختيار موقع مدينة مراكش في التقاء الطرق العابرة لجبال درن، والمارة إلى سوس أو إلى مدينة فاس، الرغبة في الاستفادة من الخطوط التجارية في ذلك العصر. وقد تكون المدينة مركزا للتبادل يجلب التجار من كل النواحي وتروج به عملات مختلفة ومتنوعة ومن هنا صكت أيامها عملة المرابطي. لكن هذا ليس سوى افتراض كل ما تؤكده مصادر العصر هو أن ذهب مراكش ساهم بعد قرن تقريبا أيام

الموحدين في الحركة التجارية العامة الإسلامية بين غرب البحر الأبيض المتوسط والشرق الأقصى ذلك ما أكده المؤرخ الفرنسي بيير فيلار (Villar) الذي فسر انتعاش التجارة في حوض المتوسط الغربي بوصول ذهب السودان عبر مدن مغربية مثل مراكش.

- ثاني الملاحظتين أنه يظهر شبه تناقض حول مكانة مراكش في تجارة الذهب في كتابات الفترة أيام بني مرين، فمن جهة يستشف من مصادر العصر إن مدينة مراكش شاركت في حركة تافيلالت والتوات، حيث ذكر اسم المدينة في الأطلس الكطلاني المؤرخ ب 1375 - 1380 كممر لذهب السودان. ومن جهة ثانية تؤكد نفس المصادر على تراجع المدينة وعلى اضطراب التجارة بها رغم موقعها المتميز بين أشهر الموانىء الذهبية الصحراوية مثل ماسة وسجلماسة وتلمسان وفاس وفكّيك. يظهر أن تجارها قد غادروا على إثر تحول الطرق التجارية عنها حيث تحولت شرقا إلى الممر سجلماسة - فاس (وكان ثمن الذهب بسجلماسة منخفضا.) على إثر عدول التجار الجنوبيين والبرتغاليين عن موانىء الجنوب كآسفي وغيرها، حتى وصفها ابن الخطيب بالمدينة المهجورة المخربة ولم تعد مدينة مراكش إلى الانتعاش إلا أواخر القرن الخامس عشر الميلادي.

الواقع أن تجار الذهب بمراكش عرفت ثلاث مراحل من التطور أيام المرينيين :

- **المرحلة الأولى** : استفادت فيها المدينة من استمرار اتصالها مع بلاد السودان أيام المرابطين والموحدين إلى أوائل القرن الرابع عشر مع بداية عهد بني مرين وقبيل وصول الهنتاتيين إلى الحكم بالمدينة وربما لم تصل أخبار ذلك إلى الأوربيين إلا بعد حين.

- **المرحلة الثانية** : اضطربت الأحوال بجنوب المغرب العربي فتحولت التجارة عن سوس والحوز في اتجاه الموانىء الصحراوية الأمينة كسجلماسة. وقد سعى المرينيون إلى الحفاظ على أمن هذه الطريق باستمرار خصوصا وأن عاصمتهم مدينة فاس أصبحت الحلقة الأساسية في هذه الطريق.

- **المرحلة الثالثة** : وتوافق الفترة التي كثرفيها الطلب على سواحل المغرب الغربية نتيجة وصول البرتغاليين بعد الجنوبيين مع منتصف القرن الخامس عشر الميلادي. وخلال هذه الفترة، وحسب الإحصائيات البرتغالية، وصل إلى آسفي وأزمور مابين سنتين 1491 و 1500، كل سنة 41520 دوبلاس (والدوبلايزن 4,4 غ من الذهب الخالص) أي مايوازي 1826,880 كلغ من الذهب في الصناديق الملكية البرتغالية وحدها. ووصل إلى البرتغال عبر أزمور ما بين 1486 - 1500 أي 15 سنة 6200 دوبلاس أي ما يوازي 242,80 كلغ من الذهب الخالص والواضح من مصادر العصر أن أكبر كمية من هذا الذهب وصلت عبر مدينة مراكش. وقد كانت الزيادة في الطلب نتيجة مباشرة لتواجد تجار أجانب على السواحل المغربية، بينما تزايد العرض في أسواق مراكش وآسفي وأزمور نتيجة رجوع الأمن والاستقرار النسبي لقبائل بني معقل التي كانت تحرس الطريق المؤدي إلى مراكش خلف جبل درن مقابل أرباح يصعب تحديدها، صحيح أن تارودانت كانت تحول كمية كبيرة من الذهب الآتي من السودان نحو ماسة حيث كانت تنظم أسواق كبيرة ومشهورة للذهب والنيلة والسكر ! وكانت المنطقة تدخل تدريجيا في اقتصاد السكر. لكن الكمية من الذهب التي كانت تصل إلى مراكش لتباع بها بقيت مرتفعة.

والخلاصة عن هذه الفترة، أولا ان تاريخ تجارة الذهب بمراكش إلى حدود القرن السادس عشر للميلاد تاريخ لازال يلفه الضباب نظرا لقلة مصادره ثانيا مع ذلك يمكن الجزم بأن مكانة سوق مراكش للذهب في شمال غرب إفريقيا كبيرة رغم المزاحمة التجارية التي كانت تفرضها عليها مدن أخرى كسجلماسة وفاس وماسة خلال القرون 13 - 14 - 15 الميلادية تلك المزاحمة التي قلت مع أواخر القرن 15 وبداية 16م. وربما كان ذلك هو السبب الحقيقي وراء فشل المرينيين الذين راهنوا على تافيلالت وفاس ونجاح الشرفاء السعديين الذين استفادوا من انتعاش جنوب المغرب كله. وهذا ما يصل بنا إلى مستوى الحديث عن المرحلة الثانية التي عرفتها مراكش في طور الذهب. وهي مرحلة ازدهار ظرفي واكبتها ظاهرة ازدهار منتوج تجاري جديد وهو السكر.

III - مراكش والذهب أيام السعديين

الواقع أن المتتبع لما ذكر في مصادر العصر لا يقف على هذه النتيجة مسطرة بهذه البساطة وهذا الوضوح، بل متناثرة في معطيات مبهمة أو مرموزة في ثنايا كتب التراجم أو شباك كتب حولية يصعب فك ألغازها فبعضهم أطلق عليها التجارة البكماء، وبعضهم التجارة الاستراتيجية لغياب ذكرها الواضح في كتب التاريخ.

كل ما هو بارز في هذا التاريخ هو أن وضعية مراكش في شبكة طرق قوافل الذهب لم تستقر نهائيا، فهي مرة مركز جل المبادلات الذهبية لجنوب المغرب ومرة مركز مهمش يضطر إلى اعتماد منتوج آخر للمحافظة على مكانته التجارية، والمتأمل لما عرفته مراكش خلال العصر السعدي يلاحظ بوضوح الارتباط الذي أصبح وثيقا بين منتوجين أساسيين في الأسواق المراكشية، الذهب والسكر، كما يلاحظ ارتباط سوق تجارة المنتوجين بسوق السياسة.

وقبيل وصول السعديين إلى حكم المغرب، أو على الأقل إلى مراكش 1526 وبالضبط خلال المرحلة المتراوحة بين وفاة الجزولي 1465 ومبايعة القائم بأمر الله 1510 بدأ يتأكد بوضوح رجوع الذهب إلى مراكش أو على الأقل إلى الطريق القريبة عبر درعة وسوس. بدليل تعدد النزعات بين الأهالي والبرتغاليين حول موانىء ماسة وأسفي وأزمور وقد ذكر في مختلف المراسلات البرتغالية وصول تجارهم عدة مرات إلى أسفي ابتداء من سنة 1450. ففي عام 1456 أرسل الفونس الخامس سفينة إلى أسفي للتجسس على تجارة المنطقة (مراكش).

ثم إن ذكر الذهب بدأ يبرز في تراجم علماء وأولياء العصر في المنطقة الجنوبية كما أصبح حضور التجار الفاسيين والفيلاليين في أسواق مراكش الهنتاتية ينعش المدينة.

لكن عصر الذهب المراكشي لم يتأكد إلا مع وصول السعديين إلى الحكم، ليستمر بين مد وجزر إلى ما بعد عهد المنصور بعد 1603م أي خلال عهد ارتبط المغرب فيه مع

بلاد السودان عبر مراكش ارتباطا وثيقا. فبين مراسلات أحمد الأعرج إلى السودانيين و حملة المنصور الى كاوو (1590-1591) مرت قصة مراكش مع ذهب السودان عبر مراحل ثلاث: مرحلة الوساطة الثانوية و مرحلة القوافل الحرة ثم اخيرا عصر التجارة الموجهة و المحمية.

VI - الوساطة الثانوية

استمرت مراكش تحاول الابقاء على دورها في جلب التجار السودانيين او المغاربة المتاجرين مع السودان خلال حوالي نصف قرن. تتاقلم مع ما كان يعرفه المغرب من تغييرات سياسية و من اضطرابات اجتماعية و اقتصادية.

فبعد بيعة القائم بامر الله بتيدسي ومحاولة السعديين الاولى إخراج البرتغاليين من موانىء سوس، تعرضت المدينة لهجمة برتغالية فاشلة عام 1515 م و في عام 1526 تعرضت أولا لهجوم سعدي على يدي أحمد الأعرج الذي دخلها وحصنها ثانيا لمحاولة وطاسية يائسة لاسترجاعها. وكان لهذه الحروب أثر بالغ في أسواق المدينة خصوصا ان ازدهار تارودانت وراء جبل درن على أبواب درعة كان قد تأكد مع استقرار محمد الشيخ السعدي بها وتنظيمه لتجارة مربحة مع السودان من جهة ومع الأجانب عبر الموانىء من جهة ثانية. ولم تنتعش من جديد أسواق مراكش إلا بعد أن انتقل محمد الشيخ إليها بعد أن اجلى البرتغاليين عن أكدير وأسفي وأزمور عام 1541 .

الواقع أن مدينة مراكش بقيت محط اهتمام كبير خلال هذه المرحلة، ولا يفهم هذا الاهتمام إلا إذا كانت المدينة تلعب دورا هاما في تجارة الجنوب المغربي المربحة صحيح أننا لازلنا لم نحدد بعد موقع مدينة مراكش في تجارة الذهب خلال هذه المرحلة. كل ما نعرفه هو أن القوافل الآتية من السودان لازالت تتوقف بالمحمدية (تارودانت)، وإن ذكر المدينة في هذه التجارة بقي نادرا في نصوص العصر المتحدثة عن تجار الذهب أو عن القوافل التجارية، فقد ذكرت مراكش مثلا عند المؤرخ البرتغالي دو كويش D. Degoïs في حديثه عن الطريق التجارية إلى المدينة الغربية

بدكالة، كَليز، تارتير، المدينة الغربية وكَليز، تيط ثم المدينة الغربية. كما ذكر التجار اليهود الذين كانوا يستفيدون من تجارة القوافل بين آسفي ومراكش كعائلة زميرو وبلاش وغيرها. وذكر في وثيقة برتغالية مؤرخة بعام 1539 ان السعديين المستقرين بمراكش منعوا تصدير الذهب. وتأكد هذا المنع بمراكش عام 1549 حين استصدر محمد الشيخ فتوى لمنع بيع الذهب للنصارى S . I . H . M . Esp. Ip. 187 فدخل الذهب ضمن لوائح " سلع التهريب " فبدأ الصمت يغطي كل المبادلات المرتبطة بالذهب بمراكش في انتظار عصر جديد.

يظهر إذن أن مدينة مراكش لعبت دورا معينا في تجارة الذهب خلال هذه المرحلة، لم تكن إلا محطة ثانوية أمام المحمدية (تارودانت) وخصوصا أركين ولامينا، الميناء ان اللذان احتلهما البرتغال بجلب الذهب إليهم مع بداية عهد السعديين، فإنها ستصبح محور هذه التجارة بعد ذلك، أيام تجارة القوافل الحرة.

V - عصر القوافل الحرة

ابتداء من عهد السلطان الغالب بأمر الله 1558 - 1574 ورغم السرية المفروضة على تجارة الذهب فإننا نحس بتطور دور مدينة مراكش في تجارة الذهب. فعند استعراض المراسلات المتبادلة بين التجار الأجانب وموكليهم نلمس ذلك بوضوح :

- ففي شهر يونيو من سنة 1561 وصلت إلى انجلترا رسالة من نيكولا مورطون (Nicola - Morton) موجهة إلى وليام سيسيل تشير إلى توفر " كميات كبيرة من الذهب والنحاس من النوع الجيد " بالمغرب وكان مورطون بمراكش.

- وفي نفس السنة يعود ذكر أهمية الذهب المغربي في رسالة لدازفيدو الذي أشار إلى " أرباح طائلة " من الذهب.

- وفي شهر أبريل من سنة 1567 وصل إلى مجلس الملكة إيليزابيت الخاص تقرير من التجار الإنجليز بمراكش جاء فيه أن الانجليز يبيعون بالمغرب " أقمشة مختلفة مقابل العملة الذهبية المغربية. " تؤكد هذه المراسلات على وفرة الذهب ويلح

التجار الانجليز على مؤازرة الملكة لهم. الواقع أن القوافل بدأت من جديد تقصد مراكش لكن ليس بصفة منتظمة مما خلق وضعا تجاريا غير مستقر بأسواق الذهب بمراكش حتى أن اليهود تدخلوا لمنع أداء ثمن البضائع الإنجليزية بالذهب خوفا على مصالحهم مما أثار غضب الانجليز.

والتفسير المنطقي لهذا الوضع يكمن أولا في عدم قيام الدولة السعدية بمراقبة تجارة الذهب واعتمادها على نظام العرض والطلب لتنشيطها فكانت القوافل حرة في تجارتها وفي معاملتها، نادرا ما كان السلطان يتدخل في شؤون التجار.

ثانيا في استمرار مزاحمة الكرافيلا Caravelle للقافلة، كما أكد على ذلك المؤرخ البرتغالي كودينيو.

ثالثا في الصراع القائم في مناطق إنتاج الذهب بين التجار أرباب القوافل والبرتغاليين، ثم بين البرتغاليين والإنجليز في المغرب حول الذهب المغربي السوداني وينتهي هذا النزاع بوصول أول سفير انجليزي إلى مراكش عام 1577 وهو ادموند هوكان Edmond Hogan في محاولة للحصول على امتيازات تجارية وقد استقبله عبد الملك المعتصم ووعده بمنح بريطانيا الحق في اقتناء ملح البارود مقابل الأسلحة، ولم تتحدث الاتفاقية على الذهب لأن الاضطرابات التي عمت جنوب المغرب ومراكش بالذات قللت من عدد القوافل القاصدة مدينة مراكش، فكان على الدولة أن أرادت انقاذ هذه التجارة المربحة تأمين طرقها عسكريا، ذلك ما حاول المنصور السعدي القيام به.

IV - التجارة الموجهة والتهريب

ابتداء من عهد المنصور سيصبح اهتمام الدولة بتجارة الذهب رسميا وفعليا، ويظهر ذلك بوضوح في اهتمام أحمد المنصور بتأكيد ملكية مراكش لملح تغازي وتاودني لضمان بضاعة التبادل مع الأسكيين، فبالرجوع إلى كتاب مناهل الصفا للفشتالي نقف على عدد كبير من المراسلات التي تم تبادلها بين المنصور والأسكية في موضوع هذين المنجمين مباشرة بعد تولية المنصور كاتب اسكيا داود في شأن التنازل

له عن إخراج معدن تغازي فأجابه اسكيا داود بأن " بعث له عشرة الآف ذهبا هدية. فكان سبب المحبة والوصلة بينه وبينه " (ت السودان للسعدي ص 111).

لكن الأمور لم تستمر على هذا المنوال حيث رفض ابن داود اسكيا الحاج محمد بعد وفاة أبيه عام 990 هـ / 1582 م الاعتراف بسلطة المنصور على المعدن،فتدخل هذا الأخير عسكريا بأن أرسل قوة مسلحة قوامها مائتا جندي للسيطرة على تغازي عام 994 هـ / 1586 م، وقام بفرض مثقال على كل حمل وكان قبل ذلك قد أرسل جاسوسا ليراقب تحركات اسكيا. قال الفشتالي : "... رأى أن يبعث من قبله أولا عينا إلى بلاده ليحتال على جلب بعض الأعياص من ولد سكية ...." (ص 121).

ففي هذه الظروف كان عدد القوافل الواصلة إلى مراكش قليل مما زاد من قلق السلطة السعدية وجعلها تفكر في تأمين مصادر الذهب بفرض سلطتها عليها. فكان ذلك سبب تنظيم المنصور من مراكش لعدة حملات عسكرية. فنظمت الحملة الأولى عام 1583 إلى التوات وتيكوارين رغبة في السيطرة على الطريق وتامينها، تم حملة إلى التوات من جديد عام 1584. وقد أدت هذه الحملة الثانية إلى الرفع من ثمن الذهب من 4/1 إلى 8/1 فضة بمراكش. ولم يكن السبب هو ندرة الذهب بل هو سيطرة الدولة على هذه التجارة المربحة، وسنتان بعد ذلك نظمت حملة إلى تغازي (1586) وهي الحملة التي جاءت بعض رفض اسكيا الحاج محمد الاعتراف بملكية السعديين لمنح الملح بتغازي.

ويظهر أن عدد القوافل الواردة على مراكش قد تزايدت خصوصا أن الطلب قد ارتفع في أسواق مراكش نتيجة ازدياد عدد الأجانب بالمدينة. وكانت رغبة الأنجليز الملحة لجمع الذهب وإرساله إلى الملكة إيليزابيط قد اشعلت حمى المعادن الثمينة بأسواق مراكش. فتجاوز الطلب العرض من جديد، فبدأ التفكير بجد في حملة واسعة للسيطرة على كل منابع الذهب بالسودان. فكانت حملة 1590 - 1591 م إلى بلاد كاغو بقيادة جودر. ففي رسالة موجهة من ميلشيور بيطوني M. Petoney إلى ميكال دومورا M. De Moura في يناير 1591 ينصح فيما بيطوني الملك فيليب الثاني بالتدخل عسكريا في أركين قبل أن يستحوذ الملك المغربي (المنصور) على كل طرق التجارة، ويفرض أثمانه على أوربا.

ورغم كل ما كتب في موضوع هذه الحملة الأخيرة حول قلة الذهب الذي وصل نتيجتها إلى مراكش فإن المراسلين الأجانب المقيمين بمراكش يؤكدون على عكس ذلك. فزيادة على ما ذكر في المصادر المغربية (في مناهل الصفا وتاريخ الدولة السعدية وغيرها) عن الذهب الذي رجع به وجود فان المصادر الأجنبية تسجل لنا وصول كميات أخرى، مثلا في رسالة من لورانص مادوك Lawrence Madoc موجهة إلى انطوني داسل Antony Dassel مؤرخة بشهر غشت من سنة 1594، ذكر وصول ثلاثين حمولة من الذهب إلى مراكش. وفي رسالة ثانية لنفس مادوك Madoc إلى داسل Dassel، مؤرخة بشهر شتنبر من نفس السنة يؤكد مادوك على وصول القائد محمود زرگون ومعه ستون قنطارا من الذهب ثم في رسالة أخرى مؤرخة بشهر يوليوز من سنة 1599 من جاسبر طومسون Jasper Tomson إلى ريشار طومسون Richard Tomson جاء ذكر وصول القائد جودر إلى مراكش ومعه كمية من الذهب ".

الواقع أن عدد القوافل التجارية أو العسكرية الآتية من بلاد السودان قد ارتفع حيث أصبحت المنطقة تابعة لمراكش، وفي نفس الوقت كثر عدد الأجانب بالمدينة، يشترون ويبيعون الذهب، فسيطروا على أسواق البلاد مما اظطر معه المنصور إلى إعادة التأكيد على سياسة من سبقوه فأصدر قرارات بمنع تصدير الذهب، لكن التجار لم يكثرتوا بذلك واستمر تصدير الذهب بالتهريب، وكان المنصور قد أحس بخطر العمليات التهريبية التي كان يقوم بها الأجانب منذ سنة 1583 عندما غرقت السفينة الإنجليزية بنهر الطايمز واكتشف أنها كانت تحمل بدل السكر الذهب، وفي نفس السنة وصل تقرير إلى الملكة إيليزابيط، مرفوع إليها من التجار الإنجليز بمراكش، يشتكون فيه من كثرة التهريب في الذهب ويطلبون تنظيم هذه التجارة مع المغرب بتأسيس شركة رسمية للمتاجرة مع مراكش، وتم تأسيس هذه الشركة فعلا تحت تسمية الشركة البربرية Barbary Company. وكان الغرض الأول منها إبعاد التجار الإنجليز أو غيرهم من الذين لاينتمون إلى هذه البشركة من الاستفادة من تجارة الذهب. والواقع أن أسواق الذهب بمراكش قد اضطربت حتى أن بعض الأجانب المقيمين بالمدينة بدأوا يشكون في صحة وصول القوافل المحملة بالذهب إلى مراكش وقد نتج عن ذلك الزيادة في فوضى السوق، حيث أصبح شبه مؤكد أن الذهب الواصل إلى مراكش بعد 1603 خصوصا قد قل

بل إن ذكر وصول الذهب بعد وفاة المنصور قد اختفى من المصادر والمراسلات بالمرة. ولم تذكر المراسلات المعروفة عن الفترة حدث وصول قافلة الاعام 1610 حيث انتشرت أخبار وصول أربعين قنطار من الذهب ثم سنة 1631 أي بعد مرور أكثر من عشرين سنة عندما تاكد وصول قافلة محملة بالذهب إلى مراكش، والواقع أن الظرفية المحلية والدولية، كانت قد تطورت وتغيرت. فالاضطرابات التي عرفها المغرب بعد وفاة المنصور أبعدت عنه القوافل التجارية (يذكر بعض الدارسين أن أكثر من ثلثي القوافل قد اتجه شرقا قاصدا القاهرة عبر وزان، ثم إن إنتاج مناجم الذهب بالسودان قد تقلص بشكل خطير. مما جعل الأوربيين أنفسهم أصبحوا يتجهون بمجهوداتهم الاستعمارية إلى أمريكا. وبذلك يكون طور الذهب المراكشي قد انتهى بعد أن عرف ازدهاره خلال القرن السادس عشر الميلادي.

ويظهر إذن أنه إذا بقيت في الذاكرة المغربية صورة مراكش الذهبية فذلك يرجع أولا إلى أهمية الذهب السوداني الذي كان يباع بأسواقها، ثانيا إلى مسألة السرية التي حاولت الدولة الشريفة أن تفرضها على اخبار هذا المنتوج الاستراتيجي. فتناقلت الرواية الشفوية والمكتوبة تلك الأخبار تحت غطاء سرية مكشوفة إلى أن لصقت بالأذهان.

مصادر البحث

- المصادر الدفينة لتاريخ المغرب (S.I.H.M.)

المجموعة الأولى (1 er Serie) المجموعة السعدية

المجلدات :

- ANGLETERRE I, II, III

- PORTUGAL II, III

- ESPAGNE I

- Jacque Denise Meunier

Le Maroc Saharien des origines à 1670

2 Volumes, Librairie Klincksieck, 1982

- Gaston Deverdun, Marrakech des origines à 1912

- P. Villar or et monnaies dans l'histoire 1450 - 1920

Collect Flammarion, Paris 1982.

- M. Godingha

L'economie de l'empire portugais aux XV et XVI siècle , Paris 1969.

- عبد العزيز الفشتالي : مناهل الصفا. تحقيق ع كريم الرباط 1972.

- المؤرخ المجهول : تاريخ الدولة السعدية التاكمدرتية الرباط Colin 1934.

دار السكة بمراكش في العهد السعدي
التمويل المعدني وتقنيات الصناعة النقدية

الموساوي العجلاوي
شعبة التاريخ

استنتاجات أولية

رسمت المصادر التاريخية الأدبية صورة مفخمة حول الذهب في العهد السعدي، وعلى الخصوص إبان حكم أحمد المنصور السعدي (986 - 1012 هـ/ 1578 - 1603 م) ولا شك أن هناك دواعي ظرفية كانت وراء إبراز صورة الذهب بالشكل الذي وصلتنا عليه من خلال كتابات المؤرخين القدامى [1]. إن البحث الدقيق حول مكونات الإطار التاريخي الذي أنتج هذه الكتابات، يمكن أن يقود إلى الأسباب التي ساهمت في تكوين صورة الذهب المفخمة في العهد السعدي.

إن قضية الذهب بمراكش أواخر القرن العاشر الهجري، على الخصوص ستأخذ أبعادا جديدة إذا ما حاولنا قراءة المصادر التاريخية الأدبية في إطار نقدي من جهة ومن جهة أخرى الاعتماد على الوثائق المتعلقة بدور السكة والصرف أو على نتائج التحاليل المختبرية لقطع النقود المسكوكة [2] ومساهمة في إعطاء بعض عناصر الجواب حول قضية الذهب في عهد أحمد المنصور السعدي، نقدم هذا الموضوع للتعريف بدار السكة أواخر القرن العاشر الهجري ولتفسير بعض القضايا التقنية حول سك النقود في العهد السعدي، انطلاقا من المعلومات التي توفرها الاركيولوجية المختبرية.

---

[1] انظر مثلا ما كتب حول موضوع الذهب عند الفشتالي في مناهل الصفا والافراني في نزهة الحادي.
[2] إن التحاليل المختبرية للقطع النقدية الذهبية على الخصوص، تعطي للمؤرخ معلومات هامة ودقيقة حول جريان النقود وتخفيض العملات وطرق تصفية المعادن وكرونولوجيا السك النقدي.

إن نشر مخطوط حول دار السكة بمراكش أواخر القرن العاشر الهجري سيلقي أضواء جديدة حول حجم وكمية الذهب الوارد إلى مراكش، إن الأمر يتعلق بكتاب " الأصداف المنفضة عن أحكام علم صناعة الدينار والفضة " لأبي العباس أحمد، المدعو، حمدون الجزنائي [3]. وكتاب الأصداف المنفضة يعتبر آخر ما وصل إلينا مكتوبا عن دور السكة في العالم العربي الإسلامي [4]، ويأتي نشر هذا المخطوط ليبين أن الصناعة النقدية كانت إحدى الدعائم المادية للحضارة المغربية منذ قيام الأدارسة. ويحتل المغرب مكان الصدارة داخل الانتاج النصي حول دراسة السكة في العالم العربي، إذ من ضمن أربع مؤلفات معروفة حول السكة، إثنان منها يتعلقان بدور السكة في المغرب.

I - التعريف بكتاب الأصداف المنفضة

ألف كتاب الأصداف، أبو العباس الجزنائي، كما جاء في أول الكتاب : " للفقيه أبي العباس أحمد المدعو حمدون الجزنائي رحمه الله تعالى " أو " يقول الفقير المذنب الجاني أبو العباس أحمد المدعو حمدون الجزنائي .." ويعتقد عبد الحكيم القفصي وخالد بن رمضان أن الجزنائي لم يكن من مشاهير الرجال لأن أحدا لم يترجم له، بل كان مجرد أمين لدار الضرب ، كما كان الحال بالنسبة لزميله ابن بعرة الكاملي، ويكفي تصفح كتاب الأصداف للتأكد من أن الجزنائي كان رجل خبرة وعالما بتقنيات السك النقدي، فهو يحذر مثلا من الإفاضة في اللصاقة عند عمل الحلي لأن ذلك يعتبر غشا، كذلك يظهر تكوين الجزنائي عند حديثه عن صنع الخيوط الذهبية. ورغم غياب المعلومات حول حياة الجزنائي، يسوق المؤلف بعض التواريخ مسهلا بذلك الحصر الزماني لكتابه من خلال الاستشهادات التالية :

---

[3] تم تحقيق هذا المخطوط ونشره بتونس سنة 1988 من لدن عبد الحكيم القفصي وخالد بن رمضان.

[4] إن أول كتاب حول هذا الموضوع يعرف تحت عنوان : " كتاب الجوهرتين المائعتين من الصفراء والبيضاء " من تأليف أبي محمد حسن بن أحمد الهمداني، الكتاب الثاني : " كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية " لمنصور بن بعرة الكاملي ويتطرق إلى مرحلة نهاية الفاطميين وبداية الأيوبيين بمصر، الكتاب الثالث : الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة " لأبي الحسن علي بن يوسف الحكيم وهو كتاب يغطي المرحلة المرينية، ويعطي أيضا معلومات عن النقد في العهد الموحدي.

" ... أو دراهم كالحادثة منتصف شهر ذي القعدة من عام ثمانية وثمانين وتسع مائة ..." (1580 م) .

" ... كما حدث في ثاني عشر شعبان سنة أربع وتسعين وتسع مائة ج ..." (1586 م) .

" ... وقد وقع لي ذلك مع الذميين ثامن وعشرين جمادى الثانية ست وتسعين وتسع مائة " (1588 م).

" ... وإني قد شاهدت بعض كيفية القطع تاسع جمادى الثانية عام سبعة وتسعين وتسع مائة ..." (1589 م).

وبناء على هذه الاستشهادات، ألف الكتاب في فترة أحمد المنصور السعدي (986 - 1012 هـ / 1578 - 1603 م) خصوصا وأن الجزنائي يذكره في الفصل التاسع، فيمكن إذن تحديد كتابة الأصداف المنفضة ما بعد 1589 م وقبل 1603 م.

يقسم الجزنائي كتابه إلى عشرة فصول مع مقدمة وخاتمة، ففي الفصل الأول يؤكد الكاتب على ضرورة المحافظة على السكة من الغش، وعلى تعيين أمين لدار الضرب، الفصل الثاني يتطرق إلى حالات الغش الممكنة التي يمكن أن يرتكبها العاملون بدار السكة أو المتعاملون معها كالتاجر والرهاطي والصيرفي والوقاف، كما يشير الجزنائي إلى مختلف العقوبات المفروضة على المخالفين، وفي الفصل الثالث يتعرض الكاتب إلى المكونات الأخلاقية والمهنية للأمين، ويتطرق كذلك إلى صناعة الخيط الذهبي واللصاقة وإزالة الشوائب عن طريق عملية التشبيب، الفصل الخامس يتمحور حول أشكال اختبار جودة الذهب والفضة ويدور موضوع الفصل السادس حول اختبار السبائك الذهبية والفضية شكلا وجوهرا وفي الفصل السابع يتطرق الجزنائي إلى اختبار السبائك الذهبية والفضية وشروط ذلك لتفادي الغش، أما الفصل الثامن فخصص لعمليات إيقاد نار الفرن والاحتراس من الغش الذي يمكن أن يقوم به الوقاد والفصل التاسع خصص لمراحل طبع الدنانير ويشكل موضوع أهمية دور الأمين محور الفصل الأخير. وفي الخاتمة يبرز الجزنائي دور الأمين والعلاقة الخاصة التي ينبغي أن

تكون قائمة بينه وبين السلطان.

إلى جانب قيمته الوثائقية والتاريخية، يشكل كتاب الأصداف المنفضة أهمية كبيرة من ناحية التعريف بالمستوى التقني الذي كانت تمارس فيه عمليات سك النقود في العهد السعدي.

إن الجزنائي يمدنا بمعلومات تقنية وفيرة عن الطرق المستعملة بدار الضرب بمراكش والتركيز على الأهمية الاجتماعية والاقتصادية للسكة في تعضيد سلطة السلطان، ومما يلاحظ كذلك، وربما هذا راجع لطبيعة السك النقدي على الأقل إلى سنة 997 هـ / 1589 م، إن الجزنائي خصص حوالي نصف كتابه لعمليات صناعة القطع النقدية.

انطلاقا من كتاب الأصداف المنفضة، يتكون الطاقم الإداري التقني لدار الضرب بمراكش من :

* *الأمين أو الناظر* : ومهمته الإشراف الإداري والتقني.

* *عدلان* : يتكلفان بمراقبة الجانب الشرعي لمهام دار السكة.

* *الجراب أو النقاد* : وهو التقني الذي تعهد إليه مهمة تعيير المعدن الموجه للصهر.

* *السباك* : وهو الذي يقوم بصهر المعادن وصبها في قوالب قصد تحويلها إلى سبائك.

* *الخلاص* : ومهمته اختيار الطريقة الملائمة لتصفية المعدن وذلك حسب تركيبه.

* *الطراق* : ومهمته طرق السبائك وتحويلها إلى صفائح مضبوطة السمك.

* *قاطع الصفائح* : وهو الذي يعدها قطعا مدورة مهيئة للضرب.

* *النقاش أو الفتاح* : ومهمته كتابة ونقش خاتم السكة.

* *السكاك أو الطباع* : ويتكلف بعملية طبع القطع النقدية.

* *السواق أو العلاف أو الوقاد* : وهو العامل المكلف بإيقاد نار الفرن وتتمثل كذلك مهمته في مراقبة درجات الحرارة لإنجاح عمليات الصهر والتصفية.

II - التمويل المعدني لدار السكة بمراكش في العهد السعدي

يفتح كتاب الأصداف المنفضة الباب واسعا لطرح تساؤلات حول مصادر التمويل المعدني لدور السكة إبان العهد السعدي.

الذهب : إذا كان الأفراني والفشتالي ينصان على أهمية وصول الذهب السوداني إلى مراكش غداة حملة أحمد المنصور، فإن الرجوع إلى كتاب الجزنائي ومحاولة تقييم تقني لعمليات تصفية الذهب المحول إلى قطع نقدية. تثير عددا من التساؤلات حول حقيقة كمية الذهب الواصلة إلى دار السكة بمراكش. ومقارنة عمليات استخلاص الشوائب من الذهب لدى الهمداني وابن بعرة والحكيم أبي الحسن والجزنائي، قد تمكن من إعطاء بعض عناصر الجواب، إذ أن طريقة تصفية الذهب تختلف حسب المعدن ونوعية تركيبه، وهل الأمر يتعلق بمعدن خام أو بذهب حلي.

الهمداني يصف لنا طريقة لتصفية الذهب تسمى طبخا أو تصعيدا، أما ابن بعرة فيسمي هذه العملية " تعليق " والتي كانت تتناسب مع نوعية الذهب المجلوب من النوبة والمتميز بتواجد نسب كبيرة من الفضة في تركيبه قد تصل إلى 29 %، وتتكرر عملية تصفية الذهب عند ابن بعرة عدة مرات، وهذا ما انعكس عند عمليات السك النقدي إذ أن كل التحليلات المختبرية للنقود الفاطمية كشفت عن تركز الذهب في القطع النقدية من 95 % إلى 99 % أي أن عملية التصفية المعدنية وكما وصفها ابن بعرة تتطلب مراحل متعددة وطويلة نظرا لطبيعة الذهب المستورد إلى مصر الفاطمية.

الحكيم أبو الحسن يقدم ثلاث طرق لتصفية الذهب، اثنان منها تخص الذهب المستورد من إفريقيا السودانية أي الذهب التبر [5] والذي كان ينقسم إلى درجات حسب الجودة، منها ما أطلق عليه الحكيم أبو الحسن اسم " العنتون " وهو الذهب الخشن. أما الطريقة الثالثة فتخص ضرب النقود انطلاقا من ذهب الحلي.

الطرق المستعملة في تصفية المعادن بدار السكة بمراكش تمدنا بمعلومات من نوعية الذهب المستعمل في ضرب النقود، فالجزنائي يركز من خلال كتابه الأصداف المنفضة على طرق تصفية الذهب. وتسمى عنده " بالتراب أو الدواء " ويتم علاج سبائك الذهب الرديء بأن يوضع هذا المعدن في كوجة (كوجل) يصنع من رماد العظم المحروق (عظام المواشي) الممزوج بالطين، وعند انسباك الذهب يرمى عليه الرصاص إلى حين اختفاء الشوائب وعلى الخصوص الفضة والنحاس، وتعاد هذه العملية عدة مرات بدون رصاص، بل يضاف إليه " شلمان " أو " التنكار " حتى يبلغ الذهب نقاء تاما وهذه الطريقة تهدف في شطرها الأول إلى التخلص من الفضة التي لها قابلية الانصهار والاتحاد مع الرصاص والذي يسهل كذلك عملية امتصاصهما من طرف الكوجة المعدة خصيصا لهذا الغرض، فدرجة صهر وانفصام الفضة والرصاص معا لن تتجاوز في أقصى الحدود 500 درجة حرارية، تهدف كذلك عملية إضافة الرصاص إلى تسهيل إذابة النحاس العالق بالذهب، فإذا كانت درجة صهر النحاس تقارب 1084 درجة حرارية وجود الرصاص يخفض هذه النسبة إلى أقل من 950 درجة حرارية، ومن هنا يظهر أن عمليات تصفية الذهب في دار السكة بمراكش كانت محكمة وأنها موجهة بشكل أساسي إلى ذهب مختلط بالفضة والنحاس.

---

[5] الذهب التبر لايقصد به كما هو شائع خطأ الذهب المسحوق بل الذهب الخام الوارد من إفريقيا السودانية وانطلاقا من عدة معاجم غربية، وطرق تصفية الذهب التبر في دور السكة المغربية يتضح أن الذهب التبر لايعني أبدا الذهب المسحوق وهذا المصطلح استعمل إلى جانب عدة مصطلحات للدلالة على أنواع عدة ككلمة الذهب ويقصد بها التبر المصفى أما مصطلح ابريز فيعني الذهب الخالص الجودة.

يركز الجزنائي أيضا على أهمية مراقبة الضرب من كل تزوير وذلك عن طريق الاختبار الجيد للسبائك الواصلة إلى دار الضرب، ويقول في الفصل التاسع : " ان أوتي الأمين بذهب برسم الخلاص أو التشجير لعمل الدنانير منه أو غيرها فإن كان ذهب سبائك رديئة وشاء تصفيته من دخل فيه كبرادة الوشي ونحوها صفاه بالعظم والرصاص.

ويلاحظ من كل هذه الأمثلة أن تصفية الذهب كما يوردها الجزنائي تهدف إلى إزالة الفضة والنحاس على الخصوص، ويعزز قولنا هذا تكرار مفردتين تقنيتين في نص الجزنائي : الترصيص والتنحيس والمقصود بهما نسبة متميزة للرصاص أو النحاس في تركيب الذهب، بل إن الجزنائي يمدنا بطريقة تصفية الذهب من النحاس، وهذا ما يثبت أن الأمر يتعلق بذهب حلي، وليس بالذهب التبر المستورد من السودان.

التحليلات المختبرية لنقود ذهبية مرابطية وموحدية تبين أن نسبة النحاس في ذهب السودان لاتجاوز في أغلب الأحيان 3,5 % وكل نسبة كبيرة من النحاس في تركيب الذهب إنما كانت لعلة تقنية لإعطاء ذهب الحلي صلابة معينة.

إن هذه المعلومات كلها تبين أن " الذهب الردىء " أو ذهب الحلي كان من المصادر الرئيسية لسك النقود في دار السكة بمراكش واحتل هذا الموضوع مكانة مهمة في كتاب الجزنائي الذي يعترف بمعلومات يمكن أن تشكك بالصورة المفخمة للذهب في عهد أحمد المنصور السعدي، إن الأمر يتعلق باعتراف الجزنائي بتزوير دنانير، إذ يقول في الفصل التاسع ما يلي :

" وإني قد شاهدت بعض كيفية القطع تاسع جمادى الثانية عام سبعة وتسعين ومائة (1589 م) ، وذلك أنه خرج من دار السلطان الكبير القدر والشأن، مولانا أبي العباس أحمد بن مولانا أمير المؤمنين مولانا محمد الشيخ الشريف الحسني، دنانير برسم قضاء وطر فأخرجت منها دنانير ونقود مموهة بالذهب مزورة العمل وزنها بالوزن الغربي أو قيمة وربع وسبعة دراهم ونواية .." ولعل هذه الطريقة كانت جارية في سك النقود، إذ نجد الجزنائي يشير في الفصل التاسع، إلى طريقة تصفية الذهب

الذي يحتوي على فضة كما هو الحال بالنسبة للدنانير المموهة.

رغم أن الذهب المختلط أو ذهب الحلي كانت له مكانة مهمة في دار الضرب بمراكش، على الأقل إلى حدود سنة 1589م، فإن الجزنائي يذكر كذلك التبر وهو الإسم الذي يميز الذهب الخام الواصل من إفريقيا السودانية، واجمالا يمكن أن نستخرج مصطلحين لدى الجزنائي تكررا في حديثه عن تصفية الذهب.

- *الذهب الدقات* : وهو المعدن الذي يحمل نسبا من الفضة والنحاس وشوائب أخرى.

- *التبر* : وهو الذهب الذي كان يتطلب طرقا أقل تعقيدا في عمليات التصفية بالمقارنة مع النوع الأول.

الفضة : أظهرت أبحاث أخيرة في ميدان دراسة التاريخ المنجمي والتعديني بالمغرب، أن الإنتاج المعدني للفضة توقف بشكل عام بعد القرن السابع الهجري في معظم المناجم الكبرى، وهكذا أثبتت عمليات تحديد الأعمار بالكاربون 14، في منجم عوام مثلا، توقف النشاط المنجمي أواسط القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، ويكفي التذكير أن المنجميين القدامى قد وصلوا إلى أعماق 200م تحت سطح الأرض، وإن إهمال المنجم ولو لمدة يسيرة يجعل من الصعب إعادة استغلاله في أعماق كبيرة.

بالنسبة لمنجم إيمضر (تدغة) وإن كان فقد أهميته غداة وصول المرابطين إلى المغرب، فإن الإنتاج ظل مستمرا، ربما حتى القرن الثالث عشر الميلادي، أما منجم زكوندور فلم يبق له في القرن الرابع عشر الميلادي سوى ذكريات عن ماضيه المشرق في العهد الموحدي. رغم توقف معظم المناجم الكبرى لا يمكن نفي وجود إنتاج متعثر وضعيف فيما بعد القرن الثالث عشر الميلادي خصوصا في مناجم العدانة بجبل باني، ومنجم أورتي بالأطلس الكبير.

يعطي الحكيم أبو الحسن خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي صورة لتمويل دار السكة بالفضة، فالإنتاج أهمل في كبرى المناجم المغربية، ومعظم الفضة الموجهة لدور السكة تم استيرادها من الأندلس ومن جزيرة سردينية، كما أن إنتاج أوربا من الفضة ابتداءا من القرن الرابع عشر الميلادي دفع الأوربيين إلى استغلال هذا الإنتاج لصرفه مقابل الذهب في المدن المغربية، الشيء الذي كان يدر أرباحا كبيرة على تجار أوربا، إلا أن هذا لايعني أن المغرب كان يعيش أزمة فضة بعد القرن السابع الهجري، فالرصيد المعدني المتولد على الأقل منذ بروز سلطة الأدارسة والخوارج، أعطى المغرب إمكانية سك دراهم بطريقة منتظمة، بل إن الدراهم الموحدية ظلت جارية حتى العهد المريني.

رغم دور السعديين في إعادة الحياة إلى عديد من مناجم النحاس والرصاص فإن إنتاج الفضة لم تكن له أهمية تذكر، ويأتي كتاب الجزنائي ليؤكد لنا ذلك، إذ يسوق عمليات متعددة لتصفية الفضة المعدة لسك الدراهم، فيقول مثلا أن " النقرة ثلاث أصناف جيد ورديء وبينهما " وطريقة تشبيب الفضة كانت تطبق باستمرار في دار السكة بمراكش كما هو الحال سنة 988/1580 م كما أن ذكر الدراهم الأجنبية قد ورد في كتاب الأصداف المنفضة وهذا دليل على أن دراهم سعدية ربما سكت انطلاقا من إعادة صهر نقود فضية أجنبية.

النحاس : إن قيام السعديين بمنطقة الأطلس الصغير أعاد الروح إلى عدد من مناجم النحاس، ونجد إشارات في العديد من النصوص تتمحور حول اهتمام السعديين بمناجم النحاس. إن دخول هذه المادة إلى الأسواق الأوربية في القرن السادس عشر الميلادي، جعل النحاس يكسب قيمة متزايدة خصوصا وأن الطلب عليه كان قويا من الدول الأوربية، هذه القيمة المكتسبة، جعلت النحاس يدخل الدائرة النقدية، ومن هنا نفسر وجود قطع نقدية نحاسية كثيرة في النظام النقدي المغربي ابتداءا من العهد السعدي بالمقارنة مع الفترة الممتدة من القرن الثاني الهجري إلى القرن السابع الهجري.

نذكر على سبيل المثال بعض المناجم التي كانت تزود السعديين بمعدن، النحاس كتزلاغت، إفران وناس، وانسيمي، أدرار وناس، تاوريرت وناس، تاسكالا، تاتاوت، تادلا نوانان.

إن مقارنة بسيطة بين كتابي الدوحة المشتبكة (الثامن الهجري) والأصداف المنفضة (العاشر الهجري) تظهر أن الأول يبين مصادر الذهب والفضة بينما الثاني يؤكد على عمليات تصفية سبائك الذهب والفضة إلى جانب استعمال التبريد بدرجة أقل، وهذا ما يبرز أن مصادر تمويل دار السكة تغيرت نوعيا وكميا ما بين العهد المريني والسعدي وأن هذا الأخير اعتمد بالأساس الرصيد المعدني (السبائك والحلي على الخصوص) لتأمين استمرارية سك النقود. وإذا كانت فترة أحمد المنصور عرفت وصول الذهب إلى المغرب بكمية محسوسة نسبيا عن فترة ما قبل غزو السودان، فإن ذلك لم يظهر له أثر من خلال كتاب الأصداف المنفضة. التحليلات المختبرية للقطع النقدية المسكوكة في عهد أحمد المنصور، وحدها قادرة على الإجابة عن حقيقة كميات الذهب الواردة من إفريقيا السودانية.

III - بعض تقنيات السك النقدي بدار السكة بمراكش خلال العهد السعدي

رغم أن كتاب الجزنائي يتسم بطابع تقني صرف، سنقتصر على جانبين فقط لإبراز المستوى التقني الذي كانت عليه دار السكة بمراكش.

- الجانب الأول المرتبط بعيارالذهب، وإن كان الجزنائي لا يعطي كل التفاصيل عن هذه العملية إلا أنه يقر باستعمال الضج وهي طريقة تمكن من تحديد عيار الذهب ويرجع الفضل إلى الحكيم أبي الحسن في شرح تفاصيل هذه العملية التي كانت تطبق كذلك في دار السكة بمراكش، والطريقة كالتالي :

كان يعمد إلى وزن الجسم الممتحن (الذهب) في الهواء ثم يتم وزنه كذلك في الماء، وبعد ذلك تحفظ نسبة ما بين الوزن في الهواء والوزن في الماء من زيادة الضج أو

نقصانها، وتعاد نفس العملية على ذهب من نفس الوزن وخالص العيار، وتقابل النسب : نسبة الوزن في الهواء / الوزن في الماء للجسم الممتحن إلى نسبة الوزن في الهواء / الوزن في الماء للجسم الخالص من الذهب، فإن تساوت النسبتان فالجسم الممتحن خالص، وإن اختلفتا، فعلى قدر الاختلاف تكون نسبة اختلاط الذهب مع معدن آخر. وقد أمكن مؤخرا (ابتداءا من 1983) تحديد هذه العملية وفهمها جيدا، بل تطبيقيا في دراسة النقود، وهي التي أطلق عليها مصطلح Le volume du flan.

إن هذه الطريقة التي استعملت على الأقل في العهدين المريني والسعدي تأخذ بعين الاعتبار الكثافة (التلزز) المختلفة لكل من الذهب والفضة والنحاس، ذلك أن كثافة الذهب تساوي 19,3 غ / سم^3 وكثافة الفضة 10,52 غ / سم^3 وكثافة النحاس 8,92 غ / سم^3 وعلى هذا فحجم وقطر القطعة النقدية يتضخم كلما قلت نسبته تركز الذهب وارتفاع نسبة الفضة أو النحاس أو هما معا في وزن ثابت. وبهذا لايمكن الاعتماد على الوزن وحده أو اللون لقياس عيار وجودة القطع المضروبة، فالتجارب المختبرية بينت أنه يمكن نقصان نسبة تركز الذهب في قطعة إلى حدود 30 % مع تغير طفيف في اللون، والتجأت العديد من دور الضرب خلال أزمة التمويل بالذهب إلى هذا النوع من السك النقدي. إن استعمال طريقة العيار هذه مكنت السعديين من ضبط عيار السكة.

- الجانب التقني مرتبط بما سماه الجزنائي بالكوجة وهي عبارة عن فخار مكون من الجبس و " أمزاوغ " (طين أحمر) ومن مواد عضوية غالبا ما تكون على شكل عظام محروقة. ويراد من وراء هذه العملية تصفية الفضة والذهب من الرصاص وشرح الجزنائي في الفصل الخامس كيفية صنع الكوجات : "...وهي وعاء صغير يصنع من دقيق عظم ما ذكي أو نحر من ذوات الأربع وأفضله عظم الغنم يحرق ذلك العظم ثم يدرس ناعما بمهراس أو نحوه ثم يغربل ويعجن بطناش وهو أدق وبدله أن فقد أمزاوغ، وقدمت عليه لرطوبة فيها، وقيل تصنع من دقيق العظم المذكور من جبس مدقوقان ثلثهما عظم وثلثاها جبس ."

إن هذه الطريقة استعملت على الأقل في دور السكة المغربية منذ القرن الرابع الهجري، وتحاليلنا على عينات من هذا النوع من " الكواجل " التي عثرنا عليها بمنجم إيمضر (تدغة) أظهر لنا ليس فقط اتقان صنع هذا الفخار المستعمل في تصفية الفضة، بل كذلك إدراك المعدنيين وعلى الخصوص العاملين بدور السكة لخصائص المعادن، فالهدف من إدخال مواد عضوية (العظام) في تركيبة الفخار، وامتصاص الرصاص عن طريق المواد العضوية، وبذلك تنفصم الشوائب عن الفضة، وتحاليلنا المختبرية أظهرت أن نسيج الفخار المستعمل في عمليات تصفية الفضة، قد تأكسد بقوة واكتسب لونا أسودا بعد امتصاصه للرصاص.

إن تحقيق ونشر كتاب الأصداف المنفضة يفتح الباب نحو دراسة علمية لقضايا النقود في العهد السعدي. هذا النص إلى جانب تآليف أخرى حول الصرف النقدي في العهد السعدي والتحاليل المختبرية للقطع النقدية المسكوكة على الخصوص في عهد أحمد المنصور يمكن أن يكشف عن معلومات دقيقة تمكن من رسم الصورة " الحقيقية للذهب الوارد من السودان، وللكتلة المعدنية الذهبية والفضية التي كانت موجودة بالمغرب في هذا العصر.

إن هذه الدراسات المتداخلة الاختصاصات تمكن المؤرخ والباحث من أجوبة خالية نسبيا من الانطباعات والأحكام المتسرعة، ولنا عودة إلى الموضوع.

جوانب من حركة الجهاد
في بداية القرن السادس عشر

الأستاذ
كفناني م الحسن

تهدف هذه المحاولة إلى تسليط الأضواء على بعض جوانب حركة الجهاد التي عاشتها البلاد طيلة القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين من خلال تتبع أخبار بعض المشاركين فيها. وذلك لمحاولة فهم عمقها وميكانزماتها وإدراك مدلولاتها.

لبلوغ هذه الغاية، ارتأينا التذكير بأحداث تاريخية مدققة في مرحلة أولى.

وفي مرحلة ثانية سنحاول الانطلاق من هذه الأحداث لنساهم في بلورة أفكار تساعدنا على فهم مغزى تلكم الأحداث.

إننا لاندعي الإحاطة والشمول بكل ما يتعلق بقضية الجهاد إنما سنحاول جمع المعلومات المتناثرة والإشارة الشاردة في مختلف المصادر التي اهتمت بأخبار بعض القبائل ومنها قبيلة أولاد أبي السباع.

من المعلوم أن نفوذ الدولة الوطاسية كان منحصرا في الشمال ولم يكن يصل إلى جنوب البلاد وذلك في وقت كانت فيه مخاطر البرتغاليين تزداد تفاقما باحتلالهم لثغور متعددة من السواحل. وفي غياب وجود سلطة المخزن في المناطق الصحراوية تحمل السكان مسؤولية الدفاع عن مصالحهم وعقيدتهم ووطنهم. وهكذا انخرطوا في حركة الجهاد التي كان يدعو إليها متصوفون وفقهاء وشرفاء نظرا لما كان

لهم من نفوذ قوي على عامة الناس [1].

وفي هذا الصدد نشطت الطريقة الشاذلية التي كان يرأسها سيدي محمد بن سليمان الجزولي. ومن الجدير بالذكر أن نشير (إلى انضمام) جموع من قبيلة اولاد ابي السباع إلى هذه الحركة ومشاركتها في مقاومة الزحف البرتغالي في مناطق مختلفة من البلاد. وقد حاولنا تتبع أخبار بعض السباعيين المتطوعين في حركة الجهاد.

ونذكر من بينهم سيدي غانم السباعي دفين مراكش قرب ضريح الولي أبي العباس السبتي، وشيخه سيدي عبد الله بن ساسي دفين وادي تانسيفت [2] وهما معا من أتباع محمد الغزواني كما نذكر سيدي علي لمعاشو دفين أفغال بالشياظمة وهو نفس المكان الذي دفن به الجزولي قبل أن ينقله السعديون إلى مراكش، وتجدر الإشارة إلى أن فريقا من هؤلاء السباعيين كانوا من بين المتطوعين الأوائل الذين كانوا يحاربون البرتغاليين بسواحل حاحا والشياظمة، وجبال الأطلس الكبير قبل أن ينتقل إليها محمد القائم بأمر الله السعدي وولده أحمد الأعرج، ومما يدل على ذلك وجود مكان في سكساوة يحمل اسم سيدي غانم كما أن أحد أفخاذ قبيلة سكساوة يحمل اسم أيت سيدي غانم ويستقر حاليا في قرية بولعوان وعلى وادي القهرة أي وادي شيشاوة الأعلى [3] قد قام أحد الباحثين وهو فريدريك دو لاشبيل بتحريات وحفريات في الأطلس الكبير فعثر على مخطوطة تعرف بسيدي عبد المالك بن عامر السباعي وهو

---

[1] Drague Georges - Esquisse d'histoire religieuse Paris, 1951, P. 51.

[2] ابن عسكر محمد الشفشاوني - دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر. ت. محمد حجي دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر - الرباط 1977، ص : 110.
ابن الموقت ، محمد : السعادة الأبدية في التعريف برجال الحضرة المراكشية ط. حجرية - فاس د.ت : 1 / 152

[3] Berque, Jacque - Structures sociales du Haut - Atlas 3 edit Puf, Paris 1978 P. 66 - 201 - 215.

من المتطوعين القادمين من الصحراء وكان يحظ الناس على الجهاد فاستشهد في إحدى المعارك ضد البرتغاليين سنة 1503م باكَدير الذهب ودفن في مكان استشهاده بقبيلة دمسيرة ومعه سلاحه الذي كان عبارة عن شفرة [4].

وتذكر المصادر أن أشياخ قبائل حاحا والشياظمة لما سمعوا بالتفاف أهل سوس حول محمد القائم بأمر الله ذهبوا إلى تدسي سنة 918 هـ - 1513 م ودخلوا في طاعته. وبعدما اطلعوه على أحوال بلادهم طلبوا منه أن يرحل معهم إلى جبال الأطلس الكبير لتكثيف الجهود وتقوية المقاومة وشد عضد المجاهدين هنالك فاستجاب لطلبهم وانتقل معهم إلى أفغال [5].

وبعد سنتين 920 هـ/ 1515 م حملت إلينا المصادر البرتغالية المعاصرة للأحداث [6] أخبار معارك دارت بين البرتغاليين برئاسة Lopo De Bariga وكانوا مدعمين بحشود من رماة الشياظمة وعبدة يتزعمها سيدي بوجمعة أحد عملائهم (400 من الشياظمة و 150 من عبدة) وبين اثني عشر دوارا من أولاد ابي السباع الذين كانوا يرابطون على مقربة من حصني أغبالو واكَلاكَل [7] ومن غير المستبعد أن القوات البرتغالية وحلفاءها لقيت هزائم على يد المسلمين، ويظهر ذلك من خلال الارتباك الذي أصابها وأرغمها على التراجع ومما يؤكد ذلك تاسف سيدي بوجمعة الذي وعد بالانتصار في حملة أخرى. وقد حاولت رسالة حاكم آسفي Nuno Ferlandezde Ataide إلى الملك البرتغالي

---

[4] La Chapelle (Frédéric de) Esquisse d'une histoire du Sahara occidental acte du 7 congrés I.H.E.M Rabat, 1930, Héspéris I.II, 1930, P.75.

[5] الافراني المراكشي، محمد الصغير : نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي تصحيح هوداس، ط. 2، الرباط ص : 16.

[6] S.I.H.M. Portuguaise T.I. P : 764 - 765.
S.I.H.M. Portuguaise T.II. P : 1 - 2.

[7] يوجد اكَلاكَل بقبيلة دمسيرة حسب الخريطة التي وسمها جاك بيرك في كتابه : Structures sociales P 100 أغبالو مكان غير محدد بدقة، أنظر S.I.H.M. Port T.I. P. 765 - 766

إيمانويلي إخفاء الانهزام والتقليل من أهمية المعركة، وإظهار أن الحملة إن لم تكن ناجحة فإنها لم تكن خسارة، وغالبا ما كانت التقارير المرفوعة إلى الملك تخفي انتصارات المسلمين وربما حولتها إلى انهزامات [8] .

ولم تنحصر مشاركة السباعيين في حركة الجهاد في جبال الأطلس، وإنما تعدت ذلك إلى سواحل دكالة. ومن جملة من نزل بها من المتطوعين أحد العلماء المشهورين بتدريس القراءات السبع وهو سيدي أحمد بن رحال السباعي وكان ذلك سنة 914 هـ / 1509 م [9] . ومن المعلوم أن كثيرا من العلماء كانوا يجمعون بين التدريس والجهاد مثلما كان طلبتهم يوفقون بين التحصيل والجهاد.

وتذكر بعض المصادر أنه لما أخلى البرتغاليون مدينة أسفي وأزمور سنة 1542م / 948 هـ على إثر انهزامهم في الجنوب واستيلاء السعديين على ثغر فونتي كان سيدي عبد الله بن ساسي السباعي دفين وادي تانسيفت من جملة الذين قاموا بحماية ثغر أزمور مخافة أن يرجع إليها النصارى وهو الأمر الذي وقع فعلا فقام المسلمون بعمليات لمنع النصارى من الدخول لأزمور فسقط عدد منهم في يد النصارى وكان هذا الرجل من بينهم ولم يطلق سراحه إلا بعد أن افتكه المجاهدون مقابل فدية [10] .

وقد عثرنا على إشارات تؤكد على قيام السباعيين بدور طلائعي في محاربة البرتغاليين في الساقية الحمراء وصحراء شنقيط وقد استشهد سبعة منهم على يد قائد يدعى الشمصعي (Soumida). والشهداء السبعة مدفونون قرب السمارة بجوار سيدي أحمد العروسي. ومازالت بعض أفخاذ القبيلة السباعية تحمل أسماءهم [11] وهم :

---

[8] الوزان الحسن بن محمد الفارسي، وصف إفريقيا ج 1 ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر الرباط 1980 ص : 123 - الهامش رقم 70.

[9] الكانوني محمد بن أحمد العبدي : جواهر الكمال في تراجم الرجال، المطبعة العربية الدار البيضاء 1356 هـ ج 1 ص : 61 - 62.

[10] ابن عسكر، دوحة الناسر، ص : 110.

[11] السباعي، عبد الله بن عبد المعطي : الدفاع وقطع النزاع عن نسب الشرفاء أبناء أبي السباع. المطبعة الاقتصادية الرباط 1940، ص : 42.

1 - محمد البقار

2 - ابنه المختار

3 - عيسى

4 - إبراهيم بوعنكة " إخوة عبد الرحمان الغازي ويدعون الحجاج "

5 - عبد المولى

6 - العباس

7 - محمد الملقب باكَللش " إخوة وهم أبناء عبد الرحمان الغازي ".

ولعل صمود السباعيين في وجه المسيحيين وشدة بأسهم في القتال جعل (De la chapelle) يصرح بأن طرد النصارى كان على يديهم [12] .

قبل أن نقوم باستقراء هذه الأحداث واستنطاقها يجب التذكير بأن هناك دراسات سابقة قام بها كل من الأستاذ محمد حجي ومحمد المنوني [13] ، اهتمت بظاهرة الجهاد و المجاهدين وقضية القومية المغربية وأصولها فأقرت بوجود قومية مغربية مبرزة اسسها و عناصرها من لغة وجنس و دين و أرض . و لم يفتها الاهتمام بانعكاسات حركة الجهاد على المجال الادبي و الثقافي لتخلص الى أن ميدان الفكر كان أحد مظاهر التعبير عن وجود قومية مغربية في العصر السعدي.

---

[12] مصدر الملاحظة 4 ص : 75.

[13] حجي، محمد : القومية المغربية، مجلة دعوة الحق ع. 8 السنة 10 يونيو 1967 ص : 92 - 95.
دعوة الحق. ع. 9 - 10 السنة 10 يوليوز 1967 ص : 139 - 141.
دعوة الحق. ع. 1 - 10 السنة 10 نوفمبر 1967 ص : 88 - 90.
دعوة الحق. ع. 5 - 10 السنة 10 مارس، ابريل 1968 ص : 142 - 145.
محمد المنوني : استقرار كثير من أصول القومية المغربية في الفترة المرينية والوطاسية - مجلة دعوة الحق ع . 8 السنة 11 يونيو، يوليوز 1968 ص : 107 - 111.

و قد ركزت تحليلات الاستاذ حجي بالخصوص على ان الدين لعب دورا كبيرا في مقاومة غزاة النصارى إلا أنه لاينبغي ان يغطي على الحوافز الاخرى وخلص في نهاية المطاف الى ان المنكرين لوجود شعور وطني لدى المغاربة يفسرون ذلك الحماس الشعبي الذي عبر عنه المغاربة خلال مقاومتهم للنصارى بالدفاع عن المصالح الشخصية محاولين بذلك طمس كل وازع قومي. و مما كان يساعدهم على ذلك تبعثر النصوص و تشتت الادلة في مؤلفات ظلت غالبيتها في حيز المخطوط ولم تحظ بعد بالعناية و الدرس من طرف الباحثين و من هنا يبدو جليا أنه كلما تعددت الدراسات و تكاثرت الامثلة و الحجج امكن القيام بتوضيح جميع مظاهر القومية المغربية.

و قد نبه باحث آخر و هو المرحوم جرمان عياش الى ان ما يهم المؤرخ ليس كيفية التعبير عن الاحساس بالشعور القومي من الناحية الادبية او النفسية و انما القيام بتوضيح فعاليته اعتمادا على الافعال [14] .

و اعتبارا لهذه التوجيهات المنهجية و الارهاصات الفكرية حاولنا ان نبدي بعض الملاحظات و نطرح بعض الاسئلة انطلاقا مما رسمناه من احداث في بداية هذا العرض.

1 - ان مناصرة شيوخ قبائل حاحا و الشياظمة للقائم بامر الله كانت تعبر عن ارادتهم في الخضوع لسلطة سياسية كان السكان في حاجة اليها لملء الفراغ و لتسيير العمليات الجهادية وفق تخطيط محكم يضمن توفير شروط الانتصار على العدو . و معنى ذلك التخلص من بيعة الوطاسيين و عقد بيعة جديدة مشروطة بالجهاد اي تحرير البلاد كأولوية و تأسيس دولة قائمة على الجهاد و ليس على العصبية استجابة لمعطيات جديدة داخل إطار ظرفية دولية جديدة أهم مميزاتها هجوم المسيحيينعلى الغرب الاسلامي و السيطرة على التجارة العالمية و اكتشاف قارات جديدة اعتمادا على تقنيات جديدة (و هذا يذكرنا بما سيقع في مطلع القرن العشرين بيعة السلطان عبد الحفيظ).

---

14 Ayach Germain Etudes d'Histoire Marocaine, S.M.E.R. Rabat, 1979, P. 183.

كما ان استجابة القائم بامر الله لهذا المطلب تعتبر خير دليل على الشعور بنفس الرغبة و المسؤولية التي كانت تجد مرجعيتها في ان " درء المخاطر مقدم على جلب المنفعة". هذه المسؤولية الجماعية كانت تتجلى في تحرير الوطن و التي من اجلها جاء الحاحيون و الشظميون لمبايعة القائم بامر الله اسوة بما فعلته قبائل سوس قبلهم.

2 - ما مدلول مقاومة السباعيين للاجانب سواء في فيافي الصحراء او في اعماق الجبال او على طول السواحل وما الحافز وراء انتقالهم من الجنوب الى الشمال للمساهمة في ايقاف الزحف المسيحي في انتظار طرده نهائيا ؟.

3 - ما السر في انسجام الصحراويين القادمين من الجنوب مع إخوانهم المستقرين في قعر الأودية بجبال الأطلس، وكذا المنتشرين على السواحل رغم الاختلاف في اللغة والعادات ونمط العيش، ولعل بصمات ذلك الوئام مازالت مجسدة في شكل الالتفاف حول مزارات وزوايا في مختلف أرجاء البلاد.

إن هناك أسئلة كثيرة، لاتجد جوابها إلا في الاعتراف بوجود شعور وطني لدى المغاربة الذين عاصروا اكتساح البرتغاليين للشواطىء المغربية.

حقا إن هذا الشعور الوطني لايمكن فصله عن الدين، لأن الدين كان عنصر التلاحم والتماسك بين جميع الشرائح الاجتماعية، فقراء وأغنياء، سكان المدن والبوادي، فقهاء وعامة. فكان بمثابة الدم الذي يجري في العروق لتغذية مختلف أعضاء الجسم الواحد. والذين كانوا يذوذون عن حمى الوطن كانوا مدفوعين بغيرتهم الوطنية التي سرعان اصطبغت بطلاء ديني فكانت كلمة جهاد تعبر عن القومية والهوية الإسلامية ووحدة مصيرالسكان و التشبث بأرض الاجداد.

زاوية تامصلوحت خلال القرن السادس عشر

الأستاذ
محمد المازوني

مقدمة عامة

إذا كان التاريخ في مفهومه المتداول هو استحضار للماضي وإعادة تمثله انطلاقا مما ترسب من هذا الماضي في ذهن المؤرخ، فإن المنهجية الحديثة لم تعد تقتنع اليوم بمجرد فحص هذه الترسبات، بل أصبح يفترض في المؤرخ اليوم اتباع منهجية دقيقة لتحليل كل الآثار الباقية عن هذا الماضي، مهما كانت نوعيتها أو مصدرها. فتوسع بذلك مفهوم الوثيقة وتغير منطق وعمل المؤرخ.

دراسة الوثائق في الإطار الاكاديمي

إن هذه الملاحظة لا تلغي فكرة البحث عن الوثائق بمعناها الضيق في بلد نام، لذلك أصبحت هذه العملية (البحث عن الوثائق) ومنهجية التفسير والتاويل وفق المناهج الحديثة هما اكاديميا أكثر منها رغبة ذاتية لتجديد الكتابة التاريخية، وإن كانت العمليتان تتلازمان في الظرف الراهن باعتبار أن التجديد أصبح الآن موكولا إلى باحثين أكادميين لا إلى غيرهم من منظري التاريخ.

وفي هذا السياق تطلع علينا الجامعات المغربية سنويا بعشرات الأبحاث والدراسات التي ترمي إلى تحقيق الأهداف الآنفة الذكر فالكل يبحث عن الوثائق والكل يجهد نفسه لتفسيرها وتأويلها بغاية الوصول إلى فهم مقبول لماضي هذا البلد، متجاوزا في ذلك التأليف التقليدي ومعارضا في الوقت نفسه النظريات التاريخية

الاستعمارية وفق منهج المؤرخ الباحث وبهمة الوطني الغيور.

مجال الزوايا

ولعل من المجالات التي بدأ الاهتمام بها مؤخرا : مجال دراسة الزوايا التي خصها المؤرخون الاستعماريون بعناية خاصة، وبالمقابل غفلها المؤرخون المغاربة القدامى، بحيث لم تشكل أخبارها في كتاباتهم الا نتفا متفرقة جاءت في أغلب الأحيان عارضة.

أمام هذا الفقر تنبه مولفو التراجم ضرورة الاعتناء بالزوايا ورجالاتها واذكارها ... كما أن الزاوية نفسها عوضت ذلك الصمت بتاليف وثائق خاصة بها. وقد تناسبت هذه الوثائق في غالب الأحيان مع أدوار الزاوية. (نماذج ايليغ - الدلاء..) وهناك من الزوايا من زادت وثائقها كما وكيفا بارتباطها بالخارج، كزاوية وزان أو زاوية تامصلوحت (موضوع المداخلة).

وثائق الزاوية وأهميتها بالنسبة لوضعية الزاوية

إن وثائق الزوايا بقدر ما تعكس أدوارها وتأثيرها بقدر ما تعكس كذلك مواقف من الأحداث السياسية ومن مؤسسات الدولة. لذلك يدرك كل مهتم بهذا الصنف من الوثائق أن الزاوية كانت دائمة الحرص على إكساب نفسها استقلالية في مجال نفوذها، وإن كان ذلك على حساب مؤسسة المخزن في أغلب الأحوال، بيد أن هذا الأخير (المخزن) كان دائم التربص بها بمختلف الوسائل - إغرائية كانت أم إكراهية - لهذا نجد أن بعض الزوايا الكبرى ظلت ولفترة طويلة تغازل الجهاز المخزني وتحرص على إبداء تعاطفها حين يكون عوده قويا، ثم تنحرف عنه حين يتراجع.

وهكذا نسجل أن من أهم زوايا القرن التاسع عشر، زاويتا وزان وتامصلوحت ستخرجان عن طوع المخزن لتسقطا في أحضان الحماية الأجنبية، برغبة الاحتفاظ على شخصيتهما الذاتية وفي الوقت نفسه للحفاظ على مصالحهما.

وانطلاقا من محفوظات زاوية تامصلوحت نتبين أهمية هذه الوثائق وكيف أنها لم تكن مجرد محفوظات جامدة بل كانت تعكس مواقف تباينت حسب الظروف التاريخية وحسب علاقتها بالمحيط القبلي والسياسي.

وستكتفي هذه المداخلة بمعالجة وضعية زاوية تامصلوحت خلال المرحلة الأولى، التي تناسب ظهور الدولة السعدية، على أن تعاظم أدوار هذه الزاوية لم يسجل إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وسنعتمد في دراستنا لهذه المرحلة الأولى على بعض الوثائق القليلة، لكنها ذات أهمية خاصة.

ظرفية تأسيس زاوية تامصلوحت

يدخل تأسيس زاوية تامصلوحت (تبعد بحوالي 18 كلم عن مراكش) (مركز تامصلوحت قديم .) في سياق حركة اندماج صوفي كبير شهدها حوز مراكش إبان صعود السعديين الى سدة الحكم.

فقد استطاع السعديون بفضل انتصاراتهم الجهادية ضد البرتغال و السياسية ضد الوطاسيين، ان يكسبوا شيوخ التصوف المشاهير إلى صفهم. وما دامت أصول الحركة السعدية تشترك مع العديد من الشيوخ فيما يخص المنطلقات الجزولية، فإن ذلك ساعد على خلق انسجام فكري واضح بين الطرفين. وإذا علمنا ما كان لأولئك الشيوخ من تأثير على عامة الناس، فإننا نقدر الدعم الذي شكلوه بالنسبة للدولة الناشئة في ظرف أبان فيه الوطاسيون ونوائبهم بمراكش عن عجز واضح لاستقطاب عامة الناس قصد تحريكهم للجهاد ضد التهديدات البرتغالية، التي أصبحت مراكش عاصمة الجنوب تحت رحمتها. تنضاف إلى هذه الوضعية السياسية آثار الأزمات الاقتصادية المتتالية المترتبة عن سنوات الجفاف والطاعون، والتي استمرت منذ سنة 1520 هـ وهي سنة دخول السعديين إلى مراكش. ويمكن أن ندرك علاقة هذه الأزمات

بتقويض الحكم الوطاسي بالجنوب وتراجعه في الشمال.

دور الغزواني الفلاحي

من أبرز هؤلاء الشيوخ نجد عبد الله الغزواني، الذي تخلى عن الوطاسيين بعد أن شاع نجاح السعديين في الجنوب، وكرمز للمساندة سيرحل عن فاس. وبغض النظر عن الطابع المعنوي لحركته، فإن الغزواني كان مقتنعا من عجز الوطاسيين، وسيؤكد ذلك عندما عبأ سكان مراكش لمقاومة حصار الوطاسيين.

إلا أن هذه المساندة لم تكن أثمن ما قدمه الغزواني، إذ نجد أن دوره الاقتصادي ناحية مراكش كان الاهم، لقد كان رجلا محبا للحراثة ولاستخراج المياه، وتأكدت شهرته بفاس وقد شكل مجهوده الفلاحي بالحوز في نظر الكثير عملا سياسيا أكثر منه مجهودا تقنيا مجردا لأن رأيه على الحر اثة والسقي لم تكن تفسره، الدواعي الصوفية بقدر ما تبرزه أزمة البادية المغربية وماخلفته هذه الأزمة من نتائج سلبية على الوضع البشري. لذلك سيضع كل مواهبه الصوفية في خدمة الأرض وإحياء مواتها ومد قنوات السقي... وسيلزم مريديه بهذه الأعمال كشرط أساسي في تربيتهم الصوفية ولن يختار لهم غير المواقع المتضررة كمواضع لتأسيس زواياهم.

في هذه المواضع موضع تامصلوحت المهجور، الذي اوكلت مهمة إنعاشه لأحد أفراد الأسرة الأمغارية الصوفية الشهيرة، وأعني به عبد الله بن حسين مريد الغزواني وانجب أتباعه (محاورته مع الفلاح).

ملابسات تأسيس زاوية تامصلوحت

لقد بين ابن عسكر في دوحته بوضوح ملابسات تأسيس زاوية تامصلوحت والقصد من تعيينها من طرف الغزواني، فهي قرية خالية متعطشة لاماء بها ولا أنيس (دليل على عمارتها القديمة) بها مقام ولي موحدي، ظل مغمورا طيلة العهدين المريني والوطاسي وقد كانت تعاليم الغزواني واضحة : إحياء أرض القرية وعمارتها. وسيمنح الغزواني لتلميذه مقابل ذلك سلطة روحية تمكنه من السيطرة على الموضع وتوفر

لصاحبه الشهرة التي تجلب إليه التعمير.

- الحكم الطير المؤذي، بكل يرمز إليه ذلك من رغبة في الكسب الوافر، الذي ظلت تنشده تلك الجهات.

- الحكم على المرأة العاقر : كرمز للخصوبة والرغبة في التعمير، بعدما أصبحت البلاد بالأوبئة والأمراض التي أتت على العديد من السكان واضحت بادية على معالم البنية السكانية.

لم يخل استقرار عبد الله بن حسين بتامصلوحت من مصاعب بعضها بيئي (مرتبط بهيمنة غابة السدر) والبعض الآخر مرتبط بالتكييف وسط بيئة بشرية غريبة عنه، إذ كانت تهيمن على ناحية تامصلوحت قبيلة سجتانة الجبلية، الذي يشكل منخفض تامصلوحت مجالا حيويا في اقتصادها.

ومن الوسائل الأولى التي اعتمدها عبد الله بن حسين لتعمير المنطقة وتجهيز القبائل المجاورة للإسهام في عمليات اجتثاب الغابة :

- تنازله عن ثلث مداخيل الزاوية.

- خلق تحالفات مع بعض القبائل الأصلية (بني مداس ولدكاكرة) وقبائل عربية (أولاد مطاع).

- إنجازات فلاحية.

- كراماته التي شاعت بين الناس، خصوصا تلك التي تهم الزرع والطير المؤذي والمرأة العاقر.

وهكذا لوحظ أنه في أقل من عقد زمن (بين 1528 - 1538) أصبح مركز تامصلوحت عامرا ولوحظ أن الكثير من سكان الحوز في مراكش شرعوا ينشدون جوار وخدمة الزواية. وهناك قرائن تثبت وجود شكل مبكر للمشاركة بالخمس أو الربع.

وأمام تزايد عدد الوافدين على الزاوية ورغبة الكثير من القبائل للاستفادة من خدمات وكرمات هذا المهندس الفلاحي فرض عبد الله بن حسين على المتعاملين مع الزاوية وظيفا على أزواجهم في الحراثة وحدده في اقساط الخمس والعشر ترجع للزاوية، وبذلك شكلت الزاوية سندها المادي، كما فرض عليهم خدمة الزاوية وممتلكاتها واستصلاح الأراضي باسمها.

وبذلك ظل وفيا لتعاليم شيخه : فالأرض انتعشت وظهرت نتائج ذلك والعمران زاد، وأصبحت مواسم زاوية تامصلوحت أهم مواسم الحوز على الإطلاق. (شهادة ابن عسكر الذي زار الزاوية في إحدى المواسم). بل نافس شيخها سلطان البلاد (الغالب بالله) من حيث السمعة والشهرة، وكان أحد ثلاث عيون زمان الغالب.

وإذا كانت مواهب عبد الله بن حسين الفلاحية هي التي رجعته إلى هذه المكانة، فإنها بالمقابل لاتنفي وجود عوامل أخرى، كانت أقل أهمية :

- سمعة شيخه ومكانته عند هذا الشيخ

- مسلك عبد الله بن حسين الصوفي : حيث مارس التصوف بصورة تلقائية وكان يردد على الدوام " دارنا دار سر وليست دار علم ".

- سمعة أسرته الصوفية .

إن اهتمام الزاوية المصلوحية المبكر بالنشاط الفلاحي لايدل على انحصار وظيفتها الصوفية والتعليمية، إذا كل مصادر القرن العاشر تؤكد على أن مكانة عبد الله بن حسين العلمي كانت متميزة، غير أن محفوظات الزاوية لاتسعفنا معرفة ذلك، لأن الوثائق العقارية والمكاتبات المخزنية ظلت هي الطاغية على هذه المحفوظات.

طبيعة ممتلكات الزاوية

وانطلاقا من هذه الوثائق أمكن تحديد عقارات وممتلكات الزاوية خلال القرن 16، وتم اعتماد وثائق أصلية، أهمها عقد قسمة ممتلكات الزاوية، وبعض الظهائر السعدية التي تخص الزاوية ببعض الامتيازات الإقطاعية.

ميز عقد القسمة المشار إليه بين صنفين من الممتلكات صنف مسقي وآخر بوري. كما قسم الأملاك بين ما أسماه بالزاوية وأملاكها (دون تحديد) وبين قطاعين محددين اسما في نص العقد وهما قطاع السهيب وقطاع تول.

يحتمل أن يكون الصنف الأول من تلك العائدات التي تم تحصيلها من مداخيل ما تكلفت به المناطق المجاورة للزاوية، أما الصنف الثاني فيمكن أن نعتبره ملكا خاصا لشيخ الزاوية.

وتأكد ذلك بمعرفة أن شيخ الزاوية الجديد (أحمد بن عبد الله) ستوكل إليه ممتلكات ما سمي في نص العقد بممتلكات الزاوية " بينما حصل الوريث الثاني (محمد) على قطاعي السهيب وتول دون إضافة (كما واضح في نص العقد).

وقد عززت رسوم الملكية اللاحقة ذلك، وعليه تكون ممتلكات الزاوية متباينة منذ التأسيس فأملاك الزاوية التي لازالت تحت تصرفها إلى الآن لم تطرح في أي لحظة التفويت، عكس ذلك تعرضت ممتلكات الصنف الثاني إلى التفويت في أكثر من مناسبة.

وإذا كان عقد القسمة المشار إليه سلفا وعقود لاحقة لاتعين أملاك الزاوية، فلأن كيانها العقاري لم يكن مستقلا منذ النشأة عن وظائفها المختلفة : فحين منحت الزاوية بعض الاقطاعات من المخزن السعدي وبعده العلوي، لم يكن المقتطع له سوى شيخ الزاوية، كما أن تلك الاقطاعات كانت مشروطة ولم يكن حق التمليك فيها مقطوع به، لأن إحياء الأراضي وإنعاش الآبار المندرسة والعيون الغابرة كلها مهام منوطة بشيخ الزاوية وهو ملزم بها وعليه المحافظة عليها باسم الزاوية.

وبموازاة هذه الامتيازات الممنوحة كان شيخ الزاوية يضم لحسابه الخاص بعض الممتلكات الإضافية (كقطاعي السهيب وتول) التي يستعملها كعنصر للتوازن المادي في حالة تعرض الزاوية لضائقة مالية أو أزمة داخلية أو حين يتحرش بمعالمها المخزن.

وإذا ما أدركنا خصوصية التملك هذه نفهم لماذا وقع تحبيس أغلب أراضي الزاوية، وهو عكس ما يتبادر إلى الذهن من أن التحبيس كان مجرد حيلة ابتدعها الشيوخ للانفلات من تحكم المخزن في مصالح الزاوية.

لقد قدر أحد المهتمين مساحة الاراضي التي كانت في حوزة الزاوية بعد وفاة شيخها المؤسس بحوالي 100 هكتار، أغلبها كان بوريا، وهي مساحة لاتعكس حجم الزاوية، ويحتمل أن تكون مساحة القطاعات الإضافية لأن عقود التمليك كما أشرنا سلفا لاتعين أملاك الزاوية من الصنف الأول

علاقة الزاوية بالمخزن السعدي

شكل موقف الغالب بالله من زاوية تامصلوحت حالة استثنائية في سياسته الدينية، التي كانت أقل حزما من سياسة أبيه، ويمكن أن يعزى هذا التحول إلى انشغال الغالب بالتهديد العثماني، لهذا نجد أن جل الزاوية الكبرى في عهده حافظت على مكانتها، ولم تستثن إلا زاوية تامصلوحت، التي أمر شيخها بإغلاق مقراتها بمراكش والحد من نشاطه رغم شيوع شهرة عبد الله بن حسين ومكانته بين متصوفة العهد الغالبي. لذا وجدنا جل المصادر المغربية تفضل الصمت وتكتفي بالتلميح المجرد حيث تتعرض لموقف الغالب هذا، ويمثل تبرير المهدي الفاسي في الممتع واضح حين ذكر أن عبد الله بن حسين " حين ابتداء أمره، وانتصابه للخلق بعد شيخه بمراكش ثم لما كثرت الجموع عليه وقصد الناس من كل ناحية، أرسل إليه السلطان أبو محمد عبد الله الغالب اما ان تخرج عني أو اخرج عنك فخرج فورا إلى تامصلوحت (ص 58). ويجعل من هذا الحادث السبب الرئيسي في تأسيس زاوية، وهو بذلك يخالف الثابت من الحقائق. وقد ذهب بعض المؤرخين الأجانب بعيدا في تفسير أسباب التضييق بزاوية تامصلوحت حين ربطوا بين حادثة إغلاق زاوية تامصلوحت وبين التهديد العثماني، بان اعتبروا عبد الله بن حسين مواليا للأتراك وهي حقيقة مغايرة لما هو شائع بين المؤرخين.

وحين نبحث عن أقرب الاحتمالات نجد أن مكانة شيخ زاوية تامصلوحت وسمعته بين عامة الناس، فضلا عن تعاظم دور زاويته داخل مراكش، هي من بين الأسباب لهذا التضييق، يضاف إلى ذلك توسم عبد الله بن حسين بالشرف وشهرة أسرته الامغارية بذلك منذ العهد المريني، ونفوذها الواسع في الكثير من مناطق الأطلس الكبير والصحراء، لذلك عجز الغالب بالله في فك هذه الروابط رغم تقييد نشاط الزاوية داخل محيط مراكش، وهو الأمر الذي تنبه إليه أحمد المنصور الذهبي، الذي انفتح على الزاوية من باب المنح والامتيازات. وسيستغل دور الزاوية على النطاق المحلي وكذا مكانتها بين قبائل ايت عطا، بل إنه سهل مد نفوذها داخل الحوز، ولتوضيح خطة المنصور نأخذ نموذج اقطاع تانشاشت الذي يسمح للزاوية بالاستفادة من خطارة قديمة وبعض العيون ومن كل النطاق المزمع سقيه.

يوجد قطاع تانشاشت بعيدا عن مركز الزاوية ومجال نفوذها بالحوز حيث تحاذيه قبيلة أولاد مخلوف (التي يحتمل أن تكون من عرب الرحامنة المستقرين حديثا والملتفين حول اولاد سيدي بوزيد) التي ستعارض لاحقا مد نفوذ زاوية تامصلوحت إلى هذه الجهة، و هو ما شكل عاملا للنزاع، الذي سيفجر في وقت لاحق. وقد تمكن الاقطاع السعدي أن يفك نسبيا روابط الزاوية ببعض القبائل التي ظلت تشكل سندها، كاولاد مطاع. كما نجح في التقليل من وزن الزاوية داخل النطاق الحوزي، دون أن يؤثر ذلك على نفوذها في الأطلس الكبير والصحراء، لأن نية المخزن السعدي كانت ترمي استغلال مكانة الزاوية لأغراض عسكرية واقتصادية، خصوصا وأن اهم سندها خارج الحوز كانت اتحادية أيت عطا، التي أصبحت في وقت لاحق مساندا قويا للدولة السعدية.

ومنذ عهد المنصور ربطت الزاوية مصالحها بأدوارها المخزنية، وسيتجلى ذلك من خلال تعيين المخزن لشيوخ الزاوية واستصدار ظهائر التوقير والاحترام ومنحها حقوقا واسعة للاستفادة من نوبات السقي في كل من قطاعي غيغاية ونفيس، وبالتدريج احتوى المخزن السعدي وبعده العلوي على كل ادوار الزاوية، التي ظلت تراهن على هذه الأدوار ومقابلها المادي (تجلى ذلك بوضوح في عهود زيدان والوليد

وأخيه كروم الحاج الشباني) واستطاعت بفضلها توسيع نطاق ممتلكاتها والتي جعلتها من أغنى زوايا المغرب خلال القرن XIX. وحينما أدركت أن ماكسبته بفضل المخزن أصبح مستهدفا من صاحبه الأصلي آنداك تحولت عنه لتسقط في أحضان الأجانب من خلال الحماية الانجليزية التي فكت وصاية المخزن عليها دون أن تكسبها هامشية أوسع في النفود.

الزاوية المصلوحية والقبائل

تحددت علاقة الزاوية المصلوحية بالمحيط البشري المجاور لها على ضوء ما تأسست من أجله من دوافع صوفية واقتصادية، وقد كانت لدور شيخها المؤسس في المناطق المتأثرة بالجفاف أكبر الأثر في خلق روابط مبكرة بمجموعة من القبائل المحلية، سواء المستقرة اصلا او الوافدة على الحوز في أعقاب استقرار دولة السعديين.

وتأسيس الزاوية بقطاع قبيلة سكتانة كانت له مضاعفات سلبية على علاقات الزاوية بهذه القبيلة القوية، التي تضايقت من سرعة بسط الزاوية لنفوذها داخل هوامشها الشمالية، التي كانت تشكل مجالا حيويا لاقتصادها الجبلي.

ولم تكتف الزاوية ببسط نفوذها داخل الحوز بل تعدته إلى تعزيز مواقع الأمغاريين التقليدية وتقوية روابطها بالقبائل الصحراوية وبعض قبائل الأطلس الكبير الشرقي.

علاقة الزاوية بالمحيط السكتاني

يتوافق موضع زاوية تامصلوحت ومجال قبيلة سكتانة المصمودية، وبحكم انتشارها في الهوامش الشمالية الغربية للأطلس الكبير الغربي وانفتاحها على الحوز ستتأثر هذه القبيلة بتأسيس الزاوية على اطرافها الشمالية، بحيث لم يمض إلا وقت وجيز حتى تطلعت الزاوية لبسط نفوذها داخل أراضي ظلت تعتبرها سكتانة مجالها الاصلي (قطاع اجحارن)، بل إن الزاوية سوف تضم إلى عقاراتها قطاعا (تولي) يعتبر من أغنى الأراضي (مؤهلات مائية + انبساط ..) . وإذا كانت أهداف الزاوية من

هذا التوسع واضحة (إحياء موات الأرض وانعاشها ...) فإن أثرها على القبيلة كان معاكسا، بحيث عارض السكتانيون خطوة الزاوية لما سيترتب عليها من إقرار لعناصر غريبة تنتمي إلى اولاد مطاع، التي شكلت عصبية الزاوية الأولى بالحوز. هذا بغض النظر عن الشهرة التي جلبتها هذه الحظوة لشيخ الزاوية، وطبعا كان ذلك على حساب ولي سكتانة سيدي أبو إبراهيم.

الزاوية وأولاد مطاع

شكلت قبيلة أولاد مطاع عنصرا أساسيا في دعامة الدولة السعدية إلى جانب زرارة والشبانات وأثناء صعود السعديين نحو الشمال رجعت هذه القبيلة نحو محيط الحوز، لتشغل الفراغات الناشئة عن تراجع بعض القبائل المحلية التي ضلت تساند السنتاتيين. وفي سياق هذا التحول نشأت علاقات وثيقة بين قبيلة أولاد مطاع ومؤسس الزاوية، وتعتبر هذه العلاقة من أقدم الصلات التي ربطتها الزاوية.

إذا انطلقنا من الزاوية المحلية لمعرفة أسباب متانة هذه العلاقة نجد أن العامل الاقتصادي هو المفسر، وتتمثل في أن شيخ الزاوية سيتنازل للقبيلة المذكورة عن قطعة زراعية ناحية أمزميز مقابل التزام القبيلة بخدمة الزاوية وحمايتها من التهديدات المحتملة.

إذا تجاوزنا هذا التفسير المحلي، ورغم وجاهته، نجد أن سر متانة تلك العلاقة تفسره بالأساس مصالح مشتركة :

- بالنسبة للزاوية كانت في حاجة ماسة لدعم قبلي لمواجهة تحديات القبائل السكتانية، التي كانت تجاور أولاد مطاع ناحية الشرق، كما أنه من المحتمل أن يكون شيخ الزاوية قد استعان بخدمات اولاد مطاع حين تحرشت بزاويته ومصالحها قبيلة زرارة.

- أما بالنسبة لأولاد مطاع فقد منحتهم الزاوية الحماية المعنوية وسهلت مرورهم نحو الأراضي الشمالية المحيطة بوادي نفيس حيث كان للزاوية بها

نفوذ مبكر.

الزاوية واتحادية ايت عطا

ساد الاعتقاد طويلا بين المؤرخين الفرنسيين ومن سار في ركبهم ان اتحادية ايت عطا، كانت تمارس النهب بمشاركة شيخ زاوية تامصلوحت منذ تشكيلها خلال ق 16 وإلى حدود فرض الحماية على المغرب، وإن سلطة الزاوية عليها كانت قوية، بل ظلت الزاوية هي الوسيط الضروري والمقبول في علاقة هذه الاتحادية بالمخزن.

لن ننكر مكانة الزاوية بين اتحادية ايت عطا، كما أن دورها كوسيط ثابت بالوثائق المخزنية نفسها ... إلا أن ما ألصق بها من تهم هو مجرد دعاوي ملفقة كانت تستهدف الزاوية التي تحولت عن الفرنسيين حيث منحت حماية انجليزية 1893..

ليست هناك وثائق مكتوبة ولا وقائع مضبوطة تمكن من تلمس أصول هذه العلاقة المتميزة بين زاوية توجد بحوز مراكش واتحادية صحراوية. وكل ما جمع من أخبار كان مجرد أخبار مستقاة من بعض المكاتبات الرسمية المتأخرة أو ما اكتنزته ذاكرة سكان آيت عطا من ذكريات، ظل أغلبها ضربا من خيال.

ولهذا جاء دور الزاوية غير واضح بما فيه الكفاية، رغم تأكيدات الكثير من المهتمين أن دادا عطا، مؤسس الحلف الشهير، كان مريدا عن عبد الله بن حسين. ويقر SPILL بذلك بل يؤكد أن عبد الله بن حسين هذا الذي وحد تحت سلطته مجموعة من القبائل البربرية الرحلية (آيت عطا) والتي جمعته واياها مصالح مشتركة، لم يوضحها SPILL على الإطلاق.

وانطلاقا من وثائق متأخرة محفوظة بزوايا مغارية غير زاوية تامصلوحت وكذلك من معلومات ظرفية ق 16، أمكن فهم بعض جوانب هذه العلاقة : فقد تبين أن اتحادية ايت عطا الرحلية كانت تتطلع إلى المراعي الشتوية وبحكم المزاحمة المحتملة فقد لعبت زاوية تامصلوحت دورا أساسيا في تسهيل مرور آيت عطا نحو المناطق الشمالية (الأطلس الكبير الشرقي) بسبب ما كانت تتوفر عليه الزاوية هناك من

سمعة ومكانة لدى القبائل البربرية المتراكمة في الممرات الأطلسية والحقيقة أن السمعة لم تكن مرتبطة بالزاوية نفسها فحسب، بل هناك أيضا زاوية اسول وافوغال الامغاريتين المؤسستين خلال أواسط القرن 15. واللتان حظيتا بمكانة متميزة لدى قبائل الأطلس الكبير الشرقي وتافيلالت.

وسيتوافق هذا الوصول ونمو حلف ايت عطا وانضمام قبائل أخرى إليه، وتعتبر عصبية امغاريي أسول وافوغال كآيت حديدو وآيت يزدي وآيت مرغاد، هي القبائل المالكة للمراعي الغنية بآعالي واد غريس، اي مجالات تطلع ايت عطا.

خاتمة

إن علاقة زاوية تامصلوحت بالقبائل المختلفة مكنتها من اكتساب حصانة قوت من مكانتها أمام تحدي المخزن السعدي زمن ولاية الغالب بالله السعدي، الذي إذا كان قد نجح مؤقتا، في الحد من نشاطها داخل الحوز، فإنه بالمقابل فشل في فك روابطها بالقبائل البعيدة عن الحوز.

لذلك ظلت الزاوية محافظة على مكانتها داخل وخارج الحوز، ولم تتأثر بذلك التضييق، وهذا هو ما أدركه المنصور، حين انفتح عليها قصد استغلالها للتأثير في تلك القبائل التي تواجدت في مجالات كانت ذات حيوية كبرى بالنسبة لاقتصاد الدولة السعدية ، وقد تأكد لاحقا أن تلك القبائل ستقدم خدمات ثمينة للمخزن السعدي بإيعاز من شيوخ الزاوية المصلوحية المتعاقبين، ولنا في استغلال الزاوية في تعبئة آيت عطا خلال حرب المغرب وفرنسا في ق 19 خير ما نستدل به على ذلك.

الصوفي أبو محمد عبد الله الغزواني
وطريقته من خلال كتابه النقطة الأزلية

الأستاذ حسن جلاب
كلية الآداب
مراكش

تعريف بالغزواني

- أبو محمد عبد الله بن عجال الغزواني من غزوان قبيلة من عرب تامسنا، عاش في النصف الثاني من القرن التاسع والأول من القرن 10 سنة 935 هـ

- كان يدرس بمدرسة الوادي من عدوة الأندلس بفاس فسمع بالشيخ أبي الحسن علي بن صالح الأندلسي، وذهب إليه ولازمه أياما فأشار عليه بالاتصال بشيخ الوقت أبي فارس التباع.

- سافر إلى مراكش فلازم شيخه واستعمله في حياطة بستانه، فأظهر في ذلك طاعة وجدية، خدمه عشر سنوات.

- اذن له التباع بفتح زاوية ببني قركار بالهيط.

- ذاع صيته وكثر أتباعه لأنه كان من المنطقة. كان والده يقول عنه : عندي ابن تركته يقرأ العلم سيكون له شأن ، وله من الأتباع عدد ما في صابة الزبيب من حبوب كبيرها حلو وصغيرها حلو).

- تضايق السلطان الوطاسي أبو عبد الله محمد بن الشيخ من شعبيته خاصة وأن الدولة كانت تمر بمرحلة ضعف واضطراب فأمر حاكمه بالهبط بإلقاء القبض عليه.

- سجنه مدة بفاس، قبل أن يسمح له بفتح زاوية له بالمدينة داخل باب الفتوح حتى يكون تحت مراقبة السلطة.

- اصطدم مع أخ السلطان الوطاسي بسبب شقه ساقية من واد اللبن إلى فاس لمساندة الناس على السقي خلال سنة من سنوات الجفاف لذلك غادر فاس إلى مراكش، وناصر الدولة السعدية، ووقف إلى جانبها (ينسب له قوله : " ايايا سلطنة من فاس إلى مراكش " وانتهاء حصار مراكش مبكرة حديدية تحطمت على صدره.)

- رشحه شيخه التباع لخلافته مع وجود عدد من كبار المريدين من أمثال عبد الكريم الفلاح - رحال الكوش - علي بن ابراهيم - سعد بن عبد المنعم . اجتمعوا لدى الفلاح ودار بينهم حوار انتهى باقناعهم بالخضوع له ببعض كراماته، قال (أنا سلطانكم وصاحب سكتكم، عندي تضرب، فمن طبعت درهمه أو ديناره جاز، ومن لا فلا) لهذا يسمى إلى الآن : (مول الطابع).

طريقته الصوفية

شاذلية جزولية تقوم على حب الرسول (ص) والصلاة عليه والمداومة على ذكر الله تعالى، فقد روى الإمام القصار (إن الغزواني كان من كبار المحبين لرسول الله (ص) [1]. وأوصى مريديه وأتباعه بترك الفضول والاشتغال بالدنيا بسلطانها وحكامها وقضائها وحثهم على الاهتمام بالسبحة ولا إله إلا الله محمد رسول الله (ص) [2] .

وهكذا جاءت وظيفته جامعة بين ايات الذكر الحكيم وترديد الصلوات على النبي وكان يربي أتباعه بارجوزة الشريشي (انوار السرائر وسرائر الأنوار)

يتصل الغزواني بالجزولي عند طريق شيخه عبد العزيز التباع واتصال الجزولي بالشاذلي معروف فقد أخذ عن عبد الله محمد أمغار- عن سعيد الهرشاني -

---

[1] إظهار الكمال 327

[2] ممتع الاسماع 45

عن أبي زيد عبد الرحمن الرجراجي - عن أبي الفضل الهندي - عن أحمد عنوس البدوي - عن أحمد القرافي - عن أبي عبد الله محمد المغربي - عن أبي الحسن الشاذلي [3].

الدور التربوي والعلمي

نهض الغزواني كغيره من الصوفية بدور تربوي علمي، إذ تصدر للتدريس وتربية المريدين.

وقد احتفظ ابن عسكر (في دوحة الناشر) بوثيقة مهمة عند دروس الغزواني وعلاقته مع مريديه، إذ نقل عن شيخه أبي محمد عبد الله الهبطي حوارا دار بينه وبين أستاذه الغزواني في حلقة من الحلقات العلمية بزاوية باب فتوح، قال (وكان سيدي أبو محمد الغزواني يربي أصحابه بقصيدة الشيخ الشريشي [4] وكنت أقرأها عليه، فقرأت عليه يعرف ما قول الشريشي.

وللشيخ ايـات لم تكـن له	فما هو إلافي ليالي الهوى يسري
وإذا لم يكن علم لديه بظاهر	ولا باطـن فأضرب به لجج البحر

فقلت له : ما معنى العلم الظاهر والعلم الباطن ؟ فقال اما الظاهر فقد علمت ما هي أصوله وفروعه ؟ واما الباطن فيدرك بالمشاهدة.

فقلت ما المشاهدة فضاقت عليه العبارة، فقلت في نفسي : الآن نقف على حقيقته، فنظر إلي وزفر مع نظرته فصعقت وخر مغشيا علي، فما انتهيت حتى كوشفت بعجائب الملكوت).

وقال الهبطي كذلك : (وكان إذا رأى من تحرك في حلق الذكر أو يقصر في خدمته ضربه بعصا لا تفارقه. وكل من ضربه يفتح الله تعالى عليه في الحال) وعلق

---

[3] الدوحة 3 المواهب القدسية 408.
[4] هي الرائية الصوفية عنوانها (أنوار السرائر وسرائر الانوار)

ابن عسكر على هذا قائلا : (رأيت ضربة فوق حاجب الشيخ سيدي ابي محمد الهبطي هشمت العظم كان ضربه إياها الشيخ الغزواني، وكانت تثور عليه إلى آخر عمره [5].
وكان أبو محمد الهبطي يقول كل ما فتح علي به انما هو من بركة الغزواني.

كانت زوايا بالهبط، فاس، مراكش.

من أشهر مريديه بالهبط : أبو يعقوب يوسف بن الحسن التليدي صاحب الزاوية التليدية بين وزان وشفشاون المتوفى سنة 950 هـ [6].

ومن الدين أخذوا عنه بفاس :

1 - أبو محمد عبد الله الهبطي : من أخص تلامذته، له مؤلفات عديدة ومراسلات مع العلماء، توفى 963 هـ [7].

2 - أبو عبد الله محمد بن علي بن عيسى الزمراني المعروف بالطالب : ناب عن الغزواني في تسيير زاوية فاس، وتكلف باستقبال الطلبة والمريدين، وتعليمهم وإطعامهم، توفى سنة 964 هـ [8].

3 - أبو علي الحسين المصمودي دفين القصر الكبير [9].

ومن تلامذته بزاوية القصور :

1 - أبو محمد عبد الله بن ساسي : مؤسس زاوية جزولية على ضفاف وادي تانسيفت، دفن بها سنة 961 هـ [10].

---

[5] دوحة الناشر 99.
[6] ممتع الأسماع 76 تحفة 35، العاقية 385 - 400.
[7] دوحة الناشر 7 ممتع الاسماع 85 - 88 العاقية 372 - 384
[8] ممتع 68 تحفة 35.
[9] ممتع 93.
[10] دوحة 110 ممتع 82.

2 - عبد الله بن حسين الامغاري مؤسس زاوية تامصلوحت الشهيرة في حوز مراكش بأمر من شيخه الغزواني. وكان مثله يهتم بشق السواقي وفلاحة الأرض، توفى سنة 976 هـ [11].

3 - ابو النعيم رضوان بن عبد الله : درس على الغزواني بمراكش، وبقي بعد وفاته بها زهاء السنة قبل ان يلحق بزاوية شيخه في فاس توفى سنة 991 هـ [12].

وإلى جانب هؤلاء درس على الغزواني عدد كبير من المريدين تفرقوا في كافة أنحاء البلاد. وقد عرف محمد المهدي الفاسي بعدد منهم في ممتع الاسماع وتحفة أهل الصديقية.

وكان الغزواني وصوفية مراكش إلى جانب قصائد التصوف يدرسون الكتب الفقهية والدينية كمختصر الشيخ خليل، والأحياء، والحكم العطائية وشرح ابن عباد لها.

الدور الاجتماعي

تتعاقب على الإنسان حالات يشعر فيها بالخوف من البشر (سلطة، لصوص) أو الطبيعة (كوارث، مرض أو مجاعة) أو يعجز عن تحقيق رغباته (انجاب، عثور على مفقود) فيكون اللجوء إلى الولي هو السبيل الوحيد للتخلص من الخوف ومقاومته أو تحقيق الرغبة، ويصبح الأمر أكثر أهمية عندما تصير هذه الحالات تهم مجتمعا بكامله.

ويكون الاعتماد على الولي مبنيا على اعتقاد راسخ في قدرته الخارقة على الإغاثة والانقاذ بواسطة الكرامة. لهذا حرص المجتمع على أن يكثر أولياءه، منهم من يحمي البلاد او مدنا بعينها أو احياء ودروبا ومداشر.

---

[11] لوحة 105 - 110.

[12] ممتع 89 - 90 صفوة 7 - 8.

وأهم الأدوار التي نهض بها الغزواني :

- الاطعام : لم يكن خاصا بالطلبة والمريدين وإنما يشمل عامة الناس خاصة في وقت المجاعات والأوبئة، فمنذ سنة 922 ظهر ضعف في الإنتاج بسبب الجفاف الذي استمر سنة 923، وتسبب سنتي 926 - 927 فيما سماه صاحب الاستقصا " بالغلاء الكبير " [13]. حتى كادت المدينة تفرغ من السكان سنة 929 وتعاقبت عليها الأوبئة ما بين 927 و 930 هـ فكان الغزواني لا يحتفظ بشيء يذكر من أسباب الدنيا بل كل ما تيسر له دفعه لذوي الحاجات [14] .

التجهيز الفلاحي

لم يكن الإطعام كافيا لتدهور الوضع الاقتصادي بالمغرب في مطلع ق 10 هـ بسبب ضعف الدولة والصراع بين ملوكها والاحتلال البرتغالي والاسبان لبعض المدن، وتردد الأوبئة والمجاعات. فكان لابد من القيام بعمل مضمون النتائج يلبي حاجيات الناس.

فعن أبي عبد الله الدقاق ان شيخه الغزواني كان (دابه الحركة في أسباب الحراثة واستخراج المياه [15] .

وفي ممتع الاسماع أن من عادته (أن يأمر أصحابه بالحراثة والغرس والخدمة وحفر السواقي [16] .

وكان التقليد أن كل من حفر ساقية صنع طعاما للناس (وسيلة للتخفيف من آلامهم في فترة المجاعة) وتشير المصادر إلى الساقية العظيمة التي أخرجها من وادي

---

13 147/4 .
14 السعادة الأبدية 2 / 79.
15 لوحة 97.
16 ممتع 46.

اللبن لم تكن في سواقي السلطان وغيره مثلها [17]. وكانت سببا في خصامه مع أخ السلطان. وجه الغزواني مريديه نحو الاهتمام بالسقي والفلاحة لإطعام المحتاجين ومساعدتهم فكان له الفضل في تعمير بعض المناطق سواء تلك التي لم يكن فيها سكان أصلا، والتي غادرها سكانها منذ العصر الموحدي [18].

ففي الحوز أمر مريديه عبد الله بن ساسي، وعبد الله بن الحسين الأمغاري بفتح زاويتين الأولى على ضفة نهر تانسيفت والثانية بتامصلوحت وادن لأبي يعقوب التليدي بفتح زاويته ببني تليد، يأمرهم بشق السواقي، وتجهيز الأراضي، وحفر الآبار، وإطعام الوافدين.

مؤلفات الغزواني

يضم كتاب (النقطة الأزلية في سر الذات الالهية) آثار الغزواني كلها. لهذا اعتقد بول نويا في حديثه عنه أنه عبارة عن كتابين [19] ففي الكتاب :

- مجموع شعر الغزواني ما يناهز 2400 بيت

- مراسلات مع بعض مشايخ العصر كاللقاني، وللهبطي حول موضوعات صوفية وأجوبة على تساؤلات بعض مريديه في حلقات الذكر والدرس.

- دعواته واوراده

- كلامه من الطريقة والمقامات والتربية والمشيخة.

- سيرته الذاتية وعلاقته بشيخه التباع وشيوخ عصره.

---

17 الاستقصا 4 / 146.
18 Le Haouz de MRK 1/263
19 أضواء على التصوف المغربي من خلال آثار الشيخ عبد الله الغزواني، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى إحسان عباس بمناسبة بلوغه الستين بيروت 1981

توجد منه عدة نسخ بالخزانة العامة بالرباط والخزانة الحسنية وخزانة ابن يوسف، لأنها غير تامة، وتوجد نسخة تامة عند حفدة الشيخ.

شعره : يطرح هذا الشعر عدة اشكالات :

1 - لا يستقيم وزنه دائما غالبا ما يفلت زمام العروض من يد الغزواني فيستمر في شطحاته الصوفية ومناجاته الالهية غير مكترث بعلم الخليل مع العلم أنه كان يسمي هذا الانتاج شعرا، في قوله :

وهذه قصيدة، من قصائدي وقلت قصيدة

2 - تكثر فيه الضرورات الشعرية التي تدفع بالشاعر إلى التضحية باللغة، وخاصة في القافية.

3 - المزج بين الكلام العربي الفصيح والدارج في بعض النصوص، وخاصة معها الاراجيز.

4 - كثافة المصطلح الصوفي وغموضه : فقد جاءت النصوص غنية من حيث مضمونها وعميقة من حيث دلالتها، تكثر فيها المصطلحات، مما طبعها بطابع الغموض أحيانا ، ولعل هذا ما جعل القدماء يقولون (بأن كلام الغزواني غامض لا يفهمه إلا من فتح الله عليه) وهو السبب الذي دفع الغزواني إلى شرح بعض قصائده بنفسه.

5 - طول بعض النصوص وتنوع موضوعاتها (ارجورة في 490 بيتا وأخرى في 776 بيتا) وقصر أخرى إذ لا تتعدى سبعة أو تسعة أبيات، فهل يرجع سبب ذلك إلى أن الغزواني كان رجل فكر وتصوف ولم يكن شاعرا وإنما اقتسم ميدان الشعر لأسباب ذكر بعضها في مقدمة قصيدة (مسائل الأنوار وتحفة مناقب الأخيار) عندما قال بأنه نظمها للمريدين والذاكرين (لكي تتعالى أصواتهم وتلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) [20] . أم أن ظروف الإبداع وشروطه هي التي حتمت عليه ذلك ؟.

---

[20] النقطة 89.

وتطرح هذه القضايا إشكالية التجربة الصوفية في علاقتها باللغة والتعبير والتوصيل : فالتجربة الصوفية في أصلها تجربة ذاتية داخلية ومتغيرة يصعب تحديدها للآخرين، واستعمال اللغة العادية لا يخول ذلك بدقة، لذلك يحتاج الصوفي إلى صقل لغته وتطويعها حتى تتناسب وعمق التجربة وتغييرها (الأصول والمقالات)، كما يحتاج إلى تجاوز سجن العبارة المشتركة، وعدم الوقوف عند حدود اللغة، وإنما التعامل معها باعتبارها إشارة إلى دلالات تساير تغيير التجربة وتحولها من مقام إلى آخر.

وهذا الاتجاه نحو الإشارة جعل لغة التصوف مطبوعة بطابع " السر " الذي هو جزء من الحقيقة الصوفية نفسها.

ونتج عنه :

- غموض النص الشعري الصوفي.

- كثافة المصطلحات.

- دعوتهم إلى حماية العامة من الكشف عن هذه الإشارات والأسوار التي لا تكشف إلا للخاصة.

- تهميش قواعد اللغة والعروض وكل القوالب الجامدة التي لاتساير التجربة الصوفية.

لهذا اضطروا في كثير من الأحيان إلى شرح شعرهم بأنفسهم أو شرح شعر غيرهم من الصوفية لكشف أسراره، وقد يعجزون عن فك رموزه وأسراره فالغزواني يعترف في مقدمة شرحه لقصيدته " مسائل الأنوار " انه سيقتصر على شرح الألفاظ دون المعاني لأن فهمه قاصر على إدراك " أحكام الربوبية ".

وقد قال أحد الصوفية عن مثل هذا الشعر (شعر المعاني)، من طلب المعاني وجدها، ومن طلب الحروف والأوزان يبقى معها [21].

وموضوعات شعر الغزواني

- الذات المحمدية : النور المحمدي، أخلاق الرسول، تعظيمة أتباع سنته، طلب شفاعته، والصلاة عليه.

- المعرفة الصوفية : التحول من الفرق إلى الجمع فجمع الجمع.

- مقام المحبة.

- الجذب.

- الذكر .

- وحدة الشهود.

- سنية الطريقة، وأقطابها.

- الرمز الصوفي .

الكتابة الصوفية عند الغزواني

يبدو من عنوان الكتاب (النقطة الأزلية في سر الذات الإلهية) ان الغزواني كان من القائلين بأن الرسول هو الإنسان الكامل والمثل الأعلى للأخلاق والحياة الصوفية، فأول شيء خلقه الله هو نور النبي (ص) (النور المحمدي)، ويعتبر أصحاب هذه النظرية الرسول صورة للتجلي الإلهي الأزلي بعيدا عن الصورة البشرية المشخصة للنبوة، وتحدث الصوفية عن النقطة وأسرارها وعلومها، فهي التي كانت أساس قيام الألوان ومنها خلقت السموات والأراضي والدوائر، وعنها انشقت باقي النقط المكملة لها.

---

21 هو محمد البوزيدي شيخ ابن عجيبة انظر كنز الأسرار المعسكري.

الطريقة الغزوانية

جزولية شاذلية جنيدية تصل إلى الرسول (ص) دعا إلى حفظها قائلا :

(اعلموا أن هذه الطريقة الشاذلية المسنودة من شيخ إلى شيخ إلى نبينا محمد (ص) بالتأييد والغزو والإسراع والقوة والقدرة، من صانها وعظمها وحفظها كانت حكمته شائعة، ونظرته ومهمته نافذة)[22].

تعاليمها

يبدأ الغزواني كالجزولي بتلقي المزيد من مبادىء الإسلام والإيمان قبل مبادىء الطريقة ومقاماتها.

ففي الكتاب حديث عن :

1 - التوحيد (الإسلام والإيمان) وأركانه.

2 - التربية والتلقين : تلزم الطريقة الغزوانية باتخاذ الشيخ لمساعدة المريد على معالجة علل النفس وتجاوز المقامات.

وقد اشترطت فيه شروطا، وحددت آداب المريد وواجباته وحقوقه

أ - الشيخ

رجل سخره الله لإصلاح الغير بعدما أصلح نفسه، بدايته التوحيد وعلمه علم المناجات.

وميز بين شيخ التلقيه والشيخ الكامل، وما سماه الجزولي الشيخ المقطوع، والشيخ الواصل، فالأول هو الذي سلك طريق المجاهدة ولم يصل إلى طريق المشاهدة

---

[22] النقطة 20.

فرجع إلى الخلق يدعوهم إلى الله، فدعاؤه هو المجاهدة. أما الشيخ الكامل أو الواصل فهو الذي وصل إلى مقام المشاهدة وغاب في أنوار الكمال، فإن رجع إلى الخلق رجع بأنوار وعلوم من تبعه تعلم وتطور.

ب - المريد والإرادة

قال الغزواني بأن الإرادة هي تعويل المريد على قطع ثياب الجسم والنفس والروح إلى الله تعالى مفتاحها الشيخ الداعي إليها، وشروطها كثيرة منها الملازمة والصحبة، وسلب الإرادة الخاصة والقصد منها الخروج من جميع المرادات المرغوب منها فيه [23].

والمريد هو السالك، له بداية هي التوبة، ونهاية هي المشاهدة.

أما المراد فبدايته المشاهدة ولا نهاية له.

عدد *الغزواني للمريد آدابا هي :*

1 - ألا يستحيي في أكله.

2 - أن يكون ناضجا.

3 - أن يكون فانيا في محبة إخوانه.

4 - ألا يلهيه علم الأقوال عن تصريف حال الأفعال.

5 - أن يكون مستغرقا في الاذكار والأفكار.

6 - أن تكون أسراره من أسرار شيخه.

7 - أن يتحلى بمحبة النبي (ص) ويتخلق بأخلاق أهل السنة والشريعة ولا بد للمريد الراغب في السفر ان يتزود بالزاد الكافي وهو :

---

[23] رسالة الغزواني إلى الهبطي

1 - الرجاء

2 - المحبة

3 - الصدق

4 - الصبر

5 - التزام الشيخ وطاعته

وفي رسالته " المختصر الفريد لكل صادق ومريد " يصنف الغزواني المريدين من حيث سعيهم إلى ثلاثة أصناف :

- خاصة العامة

- والخاصة

- والخصوص، ويحد لكل صنف واجباته وشروط كمال سعيه [24] .

ج - علل النفس

يلجأ المريد إلى الشيخ لتطهير فؤاده ومعالجة نفسه من عللها التي تحول رقيه وبلوغه المقام المطلوب.

ومن العيوب :

ما يكون متصلا بالنفس كالشهوات الجسمانية

ما يكون متصلا بالقلب كالعيوب النفسية : كبر، حسد، غضب.

ما يكون متصلا بالفكر والروح : كطلب الكرامات واستطلاع الغيب

[24] النقطة 86.

د - العهد والمصافحة

هو العقد الذي يجمع بأسرته بين الشيخ والمريد ويجتهد كل منهما للوفاء ببنوده ومقاصده.

عقد الغزواني بابا خاصا بالمصافحة، وقسمها إلى 6 أقسام، يختلف كل قسم باختلاف مكانة الشيخ المصافح ودرجته في الطريقة وقدرته على التوجيه والإرشاد :

- المصافحة بالقبول
- المصافحة باليد
- المصافحة بتوجه النفحة
- المصافحة بالهمة
- المصافحة بالحكمة الربانية
- مصافحة صاحب التصريف

هـ - الذكر والتصلية

وسيلة من وسائل معالجة علل النفس والتدرج بها نحو الهدف المنشود.

واذكار الغزواني هي :

- القرآن الكريم كما جاء في رسالته لمحمد اللقاني
- وعبارة لا إله إلا الله محمد رسول الله
- احزاب واوراد ذكرها في كتاب النقطة
- والتصلية على الرسول

قال : (اكثروا من الصلاة لأنها تنور القلوب، وترفع الحجب، وتسلب كل محبوب، وعليكم بذكر لا إله إلا الله، فإنها تجمع كل اسم فمن ذكرها سرا ذكره الله جهرا، ومن ذكرها جهرا ذكره الله في الملأ الأعلى ..)[25] . وينصح مريديه بمغادرة البلاد التي لا تعطى فيها أهمية للذكر (ارتحلوا من بلاد لم تكن فيها مودة ولا محبة ولا عدل ولا علم ولا حلاوة تعظيم ذكر الله، كان الله حيث كان ذكره)[26] .

- *الأحوال والمقامات*

الإرادة : بداية حتمية للسالك

الزهد : الوسيلة الممهدة للوصول فمن ترك الدنيا وزهد فيها صفى الله سره ونور قلبه، وهو 3 درجات : زهد العامة، والخاصة، وخاصة الخاصة.

المحبة : شهود الله في خلقه ونهايتها الجذب

والجذب (كشف الله لمن اجتباه من عباده من علم ذاته، ثم من علم صفاته، ثم من علم اسمائه، ثم من علم حكمته، ثم من علم حريان عبادته)[27] . والمحبة 3 درجات ، محبة العامة، والخاصة،وخاصة الخاصة وفيها يبلغ المريد مقام التمكين أو مقام الرسوخ.

ز - الولاية ومراتب الأولياء

حاول الغزواني معالجة العلاقة بين السدة والولاية كما تطرحها المعرفة الصوفية معالجة توفيقية قائلا بأن المعرفة التي يقذف بها في قلب الولي نوع من الوحي، فجعل الوحي نوعين :

---

[25] النقطة 86.
[26] النقطة 66.
[27] رسالته إلى الهبطي.

وحي كلام : ماخصصت به ذوات والمرسلين

وحي إلهام : ما استنارت به مقاصد حياة السالكين والمجذوبين إلى حضرة الأمان [28].

ويتحدث بتفصيل عن اقسام الولاية وتفريعاتها، ومراتب الأولياء من نحباء وابدل، واوتاد وقطب واعدادهم وأماكن وجودهم.

مضمون كتاب *النقطة* :

- مقدمة الكتاب
- سؤال محمد اللقاني مفتي الديار المصرية وجوابه
- رموز حروف اوائل السور
- شرح سورة الفاتحة
- نظم أقطاب الطريقة الجزولية
- اذكار الغزواني
- الولاية وأقسامها
- القطب / الغوث / الجرس

أبواب في التصوف

الكرامة الصوفية - المصافحة - المريد والإرادة - المحبة والوجد - الأدب - الشيخ وشروط المشيخة.

- أسئلة بعض المريدين حول العهد والمبالغة والتخصيص وجوابها

---

[28] النقطة 67.

- سؤال حول المشيخة وجوابه.

- رسالة إلى أبي عبد الله التونسي في مطبوعات مختلفة قصائد شعرية في نفس الموضوعات.

- آداب المريد الصادق.

- رسالة إلى بعض الشرفاء يحثهم على الذكر.

- رسالة إلى عبد الله الهبطي.

- أدعية وأحزاب.

ترجمة الغزواني

وصف لما كان عليه الغزواني من الخصال والصفات والزهد وحياته بفاس وشيخوخته.

- طريقته

- كلام شيخه التباع من الطريقة

- باب مناجاة الإلهام

- أرجوزتان في الطريقة

شخصية ابن البناء خارج المغرب

الأستاذ إبراهيم حركات
كلية الآداب
الرباط

جمع ابن البناء بين التنجيم والتصوف والعلوم الرياضية والفقه وعلوم اللغة العربية. وهذه الاهتمامات المتباعدة أصلا قلما تجتمع لدى شخص واحد. غير أن ظروف العصر الذي عايشه ابن البناء شجعت الكثيرين من الطلاب السائرين في اتجاهات فقهية وأدبية، على أن يأخذوا بقسط من العلوم الرياضية أيضا. فمنذ أواخر القرن السادس / 12 م اتجه الاهتمام أكثر فأكثر إلى إنشاء المدارس بالمشرق، كما أن المغرب الموحدي سار في نفس الاتجاه، لكن القرنين 7 و 8 (13 - 14) شهدا اتساع شبكة المدارس المتخصصة بالدراسات الفقهية والعلوم المتصلة بها سواء بأقطار المشرق أو المغرب، فهذان القرنان يمثلان عصر صحوة إسلامية جمعت بين التوجهات الدينية والروحية والمعرفية من غير اتخاذ خطوة توحيدية واسعة، وموازية في المجال السياسي، وغني عن البيان ان الغرب المسيحي كان يشهد صحوة مشابهة إلى حد ما في هذه الفترة، فقد أدت الحروب الصليبية والصراعات البحرية والبرية بين الأطراف الإسلامية والمسيحية إلى نشأة قوات دينية واتساع نفوذ أخرى وإنشاء المزيد من المؤسسات ذات الصبغة الدينية والإشاعية بصرف النظر عما اكتنف نشاطها هنا وهناك من سلبيات وإجابيات، وهكذا عايش ابن البناء فترة مهمة من عصر ازدهار المدارس وإنشاء المساجد التي تنافست في مجال إشعاع المعرفة الدينية مع اتساع المد الصوفي الشاذلي. واشتدت الحاجة إلى المؤقتين والإطارات الفقهية الخبيرة بالمواريث ومهرة المهندسين، فلم يكن غريب والحالة هذه أن يكون أحد أساتذة ابن البناء قاضيا ومدرسا لكتاب سيبويه الذي قرأ عليه ابن البناء بعضه، كما كان يذاكره كتاب (الأركان)

لاوقليدس، ولم يكن غريبا أيضا أن يكون أحد شيوخه الأكثر تأثيرا في اتجاهه هو عبد الرحمن بن عبد الكريم الاغماتي شيخ الطريقة الغماتية التي مهدت في رأي (دوفردان) [1] لاستقبال الطريقة الجزولية بمراكش. فهذا الشيخ المعروف بعبد الرحمن الهزميري كان يتردد عليه ابن البناء لحل المعضلات العلمية الهندسية وغيرها. كما انخرط التلميذ في طريقة استاذه الذي دعا له بقوله : " مكنك الله من علوم السماء كما مكنك من علوم الأرض ".

وينحدر ابن البناء من أصل يمني عريق، فهو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي العدوي، والأزد قبيلة كبيرة تتفرع إلى فروع عديدة، وأنجبت شخصيات في شتى المجالات، كمالك بن أنس إمام المذهب المالكي، والمهلب بن أبي صفرة، القائد العسكري السياسي، ولوط بن يحيى المؤرخ والمعروف بأبي مخنف. وقد ولد ابن البناء من أب كان يحترف البناء فنسب إلى مهنته، مع ان اسم الوالد محمد ويبدو أن ابن البناء قضى معظم حياته بمراكش، حيث ولد بقاعة ابن ناهض سنة 654 / 1256، وتوفي بدرب الريحانة بنفس المدينة سنة 721 / 1321 م.

أساتذة ابن البناء

كل هؤلاء الأساتذة تقريبا مغاربة. وأهم دراساته تمت بمراكش وبعضها بأغمات، ومعنى هذا أن ابن البناء لم تتح له الفرصة ليعرف، بشخصيته العلمية مباشرة خارج المغرب. وبالتالي فإشعاعه مر من طريق كتبه وتلاميذه، وليس الأمر كما حدث بالنسبة لمغاربة اخرين قبله وبعده كأبي الحسن الشاذلي، وابن الحاج العبدري وسليمان الروداني وابن زروق وعشرات غيرهم ممن أشاعوا تعاليمهم ومعارفهم في حلقات الدروس بالمشرق وحتى عبر أقطار المغرب أحيانا. وهذا إلى جانب ما كتبوه أو ابتكروه وكان له صدى على نطاق واسع لبعض الآلات الفلكية التي أنتجها الروداني المذكور.

---

[1] Deverdun, Marrakech des origines à 1912, 333. Rabat 1959

- عباس بن ابراهيم المراكشي ، الأعلام 2، 202، 205، 206، المطبعة الملكية الرباط 1974.

ومن شيوخ ابن البناء :

1 - في العربية والأدب [2] : قاضي الجماعة محمد بن علي، واسحق بن عبد السلام الصنهاجي، وأبو بكر القلوسي الملقب بالفار.

2 - في الحديث : ابن الدهاق الأنصاري

3 - في الفقه وفروعه : موسى الزناتي، ومحمد بن عبد الرحمان المغيلي ويوسف بن أحمد التجيبي (بفاس) وآخرون.

4 - الحساب : عبد الله بن حجلة.

5 - علم النجوم : ابن مخلوف السجلماسي، وهذا مع الإشارة مرة أخرى إلى تأثير شيخه الهزميري في الرياضيات والتنجيم ولو أن روايات أصحاب التراجم تتحدث عن هذا التأثير في إطار توجيه روحاني، لكن حتى مع تعدد شيوخ ابن البناء نسبيا، فإن اتجاهه في التأليف يتجاوز بكثير إطار دراسته على هؤلاء الشيوخ، مما يدل على عصامية نادرة وقوة استيعاب دقيقة لعدد من المعارف الشديدة التنوع كما سياتي.

الإنتاج والإشعاع العلمي

وجود نسخ خطية عديدة خارج المغرب، من مؤلفات ابن البناء تعني مدى الإقبال على هذا العالم في الماضي، وتهافت الجهات العلمية في العالم على اقتناء أكثر ما يمكن من مؤلفات ابن البناء قصد تقديمها للباحثين، والعمل على تحقيقها وترجمتها عند الاقتضاء وفيما يلي جملة من أعمال ابن البناء التي توجد نسخ منها بالخارج أو التي اهتم الدارسون بها بشكل أو بآخر في غير المغرب [3] .

---

[2] م، س، ص، 203 - 204، الشوكاني البدر الطالع 108.

- Encyclopédie de Islam, Art. Ibn al-banna

[3] عباس بن ابراهيم الاعلام 2, 204, 205. الزركلي، الأعلام مادة ابن البناء أحمد بن محمد.
عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية مادة ابن البناء، الرباط 1395 / 1975.

- HARAKAT, La vie sociale sous la Mérinides (Thèse dactylographiée), pp, 171 - 172. Mohammed Benchekroun, la vie intellectuelle marocaine sous les Mérinides et les Wattasides, p. 518.

في الرياضيات

- تلخيص في عمل الحساب، وهو أشهر كتبه وأكثرها تداولا. ترجم إلى الفرنسية. وتوجد مخطوطاته بخزائن : المتحف البريطاني واكسفورد و الهند، والاسكوريال، والقاهرة والجزائر وتلمسان، ومن شراحه العديدين القلصادي (باريز) وعبد العزيز بن داود المصراتي الليبي (اسكوريال باريز، اكسفورد ، الهند) وأحمد بن رجب (القاهرة). وممن لخصه أحمد القرافي (القاهرة).

- مقالات في الحساب (برلين).

- تنبيه الالباب على مسائل الحساب (الجزائر والمتحف البريطاني في لندن)

- الجبر والمقابلة (القاهرة)

ولابن البناء كتب أخرى عديدة في الرياضيات وما يتصل بها مثل رسالته في المساحات، (برلين) وأخرى في المكاييل، وقانون في معرفة الأوقاف بالحساب ألخ ...

في الفلك

- منهاج الطالب في تعديل الكواكب، نشره وترجمه إلى الفرنسية D Renaud وتوجد بعض مخطوطاته بالجزائر.

- رسالة في الانواء، مع صور للكواكب (باريز).

- المستطيل واليسارة في تقويم السيارة، مع شرح لابن الحباك التلمساني.

- القانون، لترحيل الشمس والقمر (المتحف البريطاني)

- الحسارة في تعديل الكواكب السيارة (المتحف البريطاني)

- كتاب في النجوم

في التصوف

- مراسم الطريقة في فهم الحقيقة (اسكوريال)

في السمياء (أو علم أسرار الحروف)

- مفردات ابن البناء في عيون الحقائق، وشرحها على القلصادي الأندلسي، وقد عالج ابن خلدون في مقدمته فلسفة هذا العلم وأسباب اهتمام الصوفية به لاسيما غلاتهم [4]. والذي يلفت النظر أن ابن البناء كتب كثيرا في السماء والروحانيات عموما، ويبدو أن ارتباطه بكل من الفلك والتصوف والرياضيات جره إلى الروحانيات التي تلتقي فيها الأرقام بالحروف في فروع عديدة منها. وكيفما كان الأمر فعصر ابن البناء، هو عصر تجاذب قوي بين الشريعة وعلوم الباطن، ولقد كان الصراع يخفت تارة ويشتد تارة بين أنصار الشريعة التي يمثلها الفقهاء، و الروحانيات التي يمثلها الصوفية والمتفقرة، لكن على غير المعتاد، استطاع ابن البناء أن يجسم التالف في شخصه وسلوكه وإنتاجه بين ما يجذب هذا الفريق وذلك. وهكذا تلميذه الأندلسي أبو جعفر ابن صفوان (وصل شيخنا ابن البناء، في الهيأة والنجوم، غاية لم يلحقها أحد من أهل زمانه، مع إتصافه بطهارة الاعتقاد، واتباع السنة) [5] . وقد ألف ابن البناء مع هذا في المنطق والفقه والأصول والعربية والأدب، لكن يبقى ابن البناء بالنسبة للذين اهتموا بمؤلفاته دراسة وشرحا أو تدريسا في خارج المغرب وحتى داخله، هو ابن البناء العددي، أي الذي ألف في الأعداد، وبالتالي في الرياضيات والفلك فهو في هذين الجانبين أكثر قربا إلى الدارسين منه في أعماله الأخرى. وكان العاهل المريني أبو سعيد معجبا به، ولذلك كان يستقدمه للمقام لديه انتفاعا من مجالسته، كما أن هذا العاهل يستأنس بتنبؤاته الفلكية [6] .

---

[4] ابن خلدون، مقدمة ص 439 - 442 المطبعة البهية، القاهرة (بدون تاريخ).
[5] عباس بن ابراهيم م، س، ص 205.
[6] نفس المصدر، ص 203، ابن مرزوق المسند، ص 438. الجزائر 1401 / 1981م.

ولقد كان لمؤلفات ابن البناء صدى كبير داخل المغرب وخارجه، فقد تواصل الاهتمام بها في المغرب من لدن الطلاب والدارسين والمؤلفين حتى بداية القرن العشرين م. وبلغ الإقبال عليها لاسيما كتاب التلخيص صدى واسعا منذ القرن التاسع / 15 م حيث أصبح التلخيص لامجرد مرجع دراسي فحسب، بل مصدرا يعول عليه في أوساط المؤلفين. وقد درس العالم الأندلسي على القلصادي بعض مقالات ابن البناء في الحساب، ووضع شرحين لتلخيص ابن البناء، نال إعجاب بعض المعلقين [7].
على أن هناك من اتهم ابن البناء بالسرقة من مؤلفات غيره. ومن ذلك أن شيخه أبا بكر القلوسي ذكر في بعض مجالسه الخاصة أن كتاب ابن البناء في الجبر والمقابلة مستنسخ من كتب القرشي، غير أن القواعد العلمية الثابتة والمتناقلة عصرا عن عصر لاتعد من باب السرقة إذا ظهر الجهد الشخصي إلى جانبها. وكم هم الذين اتهموا المتنبي بالسرقة وسجلوا سرقاته، وبقي حتى الآن أعظم شاعر أنجبه العرب ؟ كما لقي عباقرة كاسحق نيوتن وغاليلي من نقد خصومهم وسخريتهم، وفرض هؤلاء العباقرة نظرياتهم في القضايا الكونية وغيرها حتى يومنا هذا ؟ وعندما كتب ابن البناء (منهاج الطالب) لم يتردد في أن يوضح في مقدمته أنه نهج في طريقة العالم التونسي أحمد بن علي بن اسحق الراصد بمراكش. وهذا العالم من منجمي تونس، ويتعاون مع عالم يهودي بصقلية (يبعث إليه بما يقع من أحوال الكواكب وحركاتها) كما يقول ابن خلدون [8].

بعض تلاميذ ابن البناء

لايمكن استقصاء لائحة تلاميذ ابن البناء، لكن ينبغي ذكر بعض الذين درسوا عليه من أقطار المغرب كنماذج هي نفسها أصبحت مؤثرة :

---

[7] أبو الحسن علي القلصاري، ص 41 / 84 تونس 1406 / 1985. حركات التيارات السياسية و الفكرية بالمغرب، ص 277. الدار البيضاء، 1405 / 1985.
[8] ابن خلدون، مقدمة، ص 427. عباس بن ابراهيم الأعلام 207.

1 - محمد بن علي الآبلي التلمساني الذي درس بتلمسان والمشرق قبل أن يلتحق بمراكش حيث لازم ابن البناء يدرس عليه التعاليم، ولقبه ابن مرزوق بشيخ العلوم العقلية، وهو من شيوخ ابن خلدون [9] .

2 - أحمد بن ابراهيم بن صفوان الملقب بأبي جعفر بن صفوان، وهو أندلسي من مالقه، وصف بأنه امام في الفرائض والحساب والأدب والتوثيق مع مشاركته في علوم أخرى كالفلسفة والتصوف [10] ، وكان شديد الإعجاب بشخصية ابن البناء كما سبقت الإشارة.

3 - أبو البركات أحمد ابن الحاج البلفيقي الأندلسي، مؤرخ أديب ومحدث.

4 - أبو عبد الله محمد بن النجار التلمساني، وقد وصفه ابن خلدون بشيخ التعاليم [11] .

أما التلاميذ المغاربة الدين درسوا على ابن البناء فكثيرون بطبيعة الحال، وليس هنا موضع تعدادهم، لكن قد يكون في طليعتهم أبو زيد عبد الرحمن اللجائي الذي برز كفلكي قدير وصفه ابن قنفد بأنه اية في فنونه، وذكر أنه ابتكر اسطولاب يسجل حركة الشمس وتوقيت النهار، وارتفاع الكوكب بالليل، وقال ابن قنفد عن هذا الأسطولاب، وهو من الأعمال العربية [12] .

بعض الآراء في ابن البناء

1 - ابن رشيد الأندلسي (وهو غير ابن رشيد السبتي)، وهو معاصره لم أر علما بالمغرب الا رجلين، ابن البناء العددي بمراكش، وابن الشاط بسبته [13].

---

9 ابن مرزوق المسند، ص 266 ابن خلدون التعريف ص 813 / 825 (ملحق بالجزء السابع من تاريخ ابن خلدون، بيروت 1959.

10 عباس بن ابراهيم الاعلام 2 / 211.

11 ابن خلدون التعريف ص 840.

12 ابن قنفد، أنس الفقير، ص 840، الرباط 1965.

13 الاعلام 2 / 202.

2 - ابن خلدون

ابن البناء، شيخ المعقول والمنقول، والمبرز في التصوف علما وحالا [14] .

3 - ازهار الرياض للمقري (نقلا عن ابن رشيد الأندلسي)

انتهت صناعة التأليف في علماء المغرب، على صناعة أهل المشرق لشيخ شيوخ العلماء في وقته : ابن البناء الأزدي المراكشي، في جميع تصانيفه [15] .

4 - حاجي خليفة في كشف الظنون (حسب ما نقله العباس بن ابراهيم في الاعلام :

كتاب الحساب لابن البناء المراكشي، وهو مفيد، لخص فيه ضوابط أعماله ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب، وهو مستغلق على المبتدىء، لما فيه من البراهين الوثيقة المباني، وهو كتاب جليل القدر كان المشايخ في المغرب يعظمونه، وهو جدير بذلك [16] .

ومؤلف كشف الظنون وهو ينقل بالنص رأي ابن خلدون في الكتاب المذكور يضيف هو نفسه قائلا عن كتاب ابن البناء هذا : " سرق فيه المؤلف كتاب جمعة الحساب، والكامل، ولخص براهينهما [17] ".

---

[14] التعريف ص 829.
[15] المقري أزهار الرياض، 3 / 23 الرباط 1979. Deverdun, Op. Lit. p. 317.
[16] عباس بن ابراهيم الاعلام، 2 / 209. ومقولته ابن خلدون وردت في المقدمة (المطبعة البهية) ص 421.
[17] عباس بن ابراهيم الاعلام، 2 / 209.

5 - دوفردان المستشرق الفرنسي

خلد ابن البناء اسمه في حساب الكسور، وتمتع بشهرة عظيمة جدا [18]. وقد تناولت كتب التراجم غير المغربية، فضلا عن المغربية، ترجمة ابن البناء مجمعة في معظمها على التنويه بانتاجه وإشعاعه، ومن بينها : نيل الابتهاج لأحمد بابا السوداني، والبدر الطالع للشوكاني والضوء اللامع للسخاوي، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، كما اهتمت به موسوعات عالمية كالموسوعة الإسلامية، ونظيرتها التركية.

18 - Deverdun, Marrakech. 1,317.

الرياضيات المغربية
من خلال أعمال ابن البناء المراكشي
1256م - 1312 م

محمد ابلاغ
شعبة الفلسفة
كلية الاداب فاس

I - مقدمة

تندرج الأعمال الرياضية لابن البناء المراكشي ضمن الإطار العام الذي تحكم في الإنتاج والإبداع الرياضي للمناطق التي دخلت تحت نفوذ الدين الإسلامي وذلك في الفترة الممتدة من القرن 8 م إلى القرن 15م، وهكذا فالتقييم الموضوعي لما انتجه هذا المفكر المراكشي في هذا المجال يتطلب بالضرورة معرفة المنزلة الحقيقية للرياضيات التي انتجت في المناطق المذكورة في التاريخ العام للرياضيات، وكذلك الإطلاع على طبيعة الرياضيات القديمة (الهندية، البابلية، المصرية والإغريقية) التي انسابت إلى الفضاء الثقافي العربي الإسلامي، والعوامل التاريخية التي جعلت هذا الانسياب أمرا ممكنا، ومهدت السبيل امام مرحلة الإبداع في المجال الرياضي.

إن الهدف من هذا العرض ليس هو الحديث عن انتقال الرياضيات القديمة إلى الفضاء الثقافي العربي، ولا كذلك إبراز أصالة الرياضيين العرب والآفاق الجديدة التي فتحوها أمام البحث الرياضي فبالرغم من كون العقدين الأخيرين عرفا تقدما ملموسا في معرفتنا بالرياضيات العربية التي انتجت بين ق 8 م و 15 م [1] فإن كثيرا من

---

[1] نشير هنا بالأساس إلى الأعمال التي قام بها بعض الباحثين المعاصرين والتي شملت إعطاء قراءة عامة عن الرياضيات العربية (يوشكيفيتش 1976) أو دراسة وتحقيق بعض النصوص الرياضية العربية المشرقية من قبل ر. راشد، أو الاعمال التي قام بها أ. جيار والخاصة بالغرب الإسلامي.
والجدير بالذكر كذلك هو أن العقدين الاخيرين عرفا اصدار مجلة عربية متخصصة في تاريخ العلوم العربية الصادرة عن معهد التراث العلمي - العربي بحلب - سورية. كما عرفا تنظيم ملتقيات عن تاريخ الرياضيات العربية وأخص بالذكر هنا الملتقيات المغاربية عن تاريخ الرياضيات العربية والتي تنعقد مرة كل سنتين منذ 1968.

علامات الاستفهام لاتزال مطروحة، وذلك من جراء فقداننا لكثير من الوثائق وكذلك للتحليل الناقص والجزئي لما هو معروف منها اليوم، وهذه الوضعية تعرفها بحدة أكبر الرياضيات التي أنتجت في المغرب وكذلك في الغرب الإسلامي بصفة عامة كما ستلاحظون من بعض فقرات هذا البحث [2].

وبالإضافة إلى هذا النقص الحاصل الآن في معرفتنا بالرياضيات العربية يجب أن نشير كذلك إلى أن هذا الإنتاج قد تم في مناطق شاسعة تضم ثلاث قارات وشعوب عديدة مختلفة فالتمييز الوحيد الذي يمكننا أن نميز به هذا الإنتاج الرياضي هو أنه كتب باللغة العربية، غير أن هذا المعطف اللغوي لا يجب أن يجعلنا نعتقد أن هناك خصوصية ما تطبع هذه الرياضيات وتميزها عما أنتج في مناطق أخرى من المعمور سواء في الفترات التاريخية السابقة أو اللاحقة على مرحلة الإبداع في الإنتاج الرياضي العربي.

لذلك نرى أن تقييما عاما للرياضيات العربية في التاريخ العام للفكر الرياضي، يجب أن يستوفي في نظرنا الشرطين التاليين :

أولا : من الضرورة معرفة الأسباب التي دفعت بالرياضيين العرب إلى تعميق البحث في مجالات معينة دون أخرى. وهكذا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار إلى جانب متطلبات الدين الجديد أي الإسلام كحساب مواقيت الصلوات الخمس والتحديد الدقيق للقبلة ورواية الاهلة وحساب المواريث، كل الأنشطة السوسيو ثقافية الخاصة بكل منطقة من العالم الإسلامي.

---

[2] لا تزال كثير من النصوص المنتجة في هذه المنطقة غير محققة أو غير محللة تحليلا وافيا، كما أن بعض النصوص الأساسية والتي ترجع إلى ما قبل القرن 13 م مفقودة. والجدير بالذكر أن هذه المنطقة لم تثر فضول الدارسين قبل العشرين سنة الماضية مما أدى إلى بعض الأحكام المغلوطة (يوشكيفيتش 1976 ص. 13). إلا أن الدراسات المعاصرة خصوصا (جبار 1981, 1985, 1986, 1988, 1990) فيما يخص نظرية الاعداد والتحليل التوافقي والجبر والهندسة وعلم الحساب (هوخندايك 1986, 1988 , 1990) فيما يخص الهندسة أثبتت أن الرياضيات المنتجة في الغرب الإسلامي لاتقل أهمية بعض جوانبها عن تلك المنتجة في الشرق الاسلامي .

ثانيا : في إطار تعدد وتنوع العوامل المساعدة على توجيه البحث الرياضي، من الضرورة معرفة الطابع العام لهذا الإنتاج.

أريد أن أقول أنه من خلال التقدم الكبير الذي حققه الرياضيون العرب سواء في المجالات الرياضية التقليدية أي تلك الموروثة عن الرياضيات القديمة، وهي : علم العدد والهندسة وعلم الفلك والموسيقى، أو تلك التي أضافوها كعلم الجبر والمقابلة ثم التحليل التوافقي. أقول من خلال هذا التقديم الهائل ، يجب البحث عن الحدود التي لم يتمكن الرياضيون العرب من اختراقها، والتي كذلك من الناحية التاريخية ما كان لهم أن يخترقوها فسيتيح لنا هذا الأمر أن نقيم بموضوعية القيمة الحقيقية لمساهمة الرياضيين العرب في تاريخ الفكر الرياضي.

وبالجملة فيجب قراءة الرياضيات العربية انطلاقا من مختلف توجهاتها مع تحديد دقيق للتصور العام الذي تنتمي إليه.

والنموذج المختار هنا لإبراز ما نتوخاه من هذا البحث هو الرياضي المراكشي ابن البناء المزداد سنة 654 هـ / 1256 م بقاعة ابن ناهض بمراكش والذي يحتل مكانة أساسية في التقليد الرياضي للغرب الإسلامي حيث أنه يمثل على مستوى البحث الرياضي نهاية مرحلة خصبة في الإنتاج الرياضي ويمثل على مستوى التعليم نشأة تقليد تعليمي سيهيمن على المغرب وسيمتد تأثيره إلى المشرق [3] إلى درجة أنه يمكننا أن نقول أن هناك مدرسة في تاريخ الرياضيات يمكن أن نطلق عليها مدرسة ابن البناء في تعليم الرياضيات، حيث أن الإنتاج الرياضي المغربي في مجمله هو عبارة عن شروح للكتاب الرياضي الشهير : تلخيص أعمال الحساب لابن البناء (سويسي 1969).

---

[3] وهو ما تشهد به بعض كتابات ابن المجدي القاهري (ت. 850 هـ / 1446) الذي ألف شرحا هاما على تلخيص أعمال الحساب سماه : حاوي اللباب في شرح تلخيص ابن البناء في الحساب وكذلك اختصار ابن الهائم المصري ثم المقدسي (ت. 815 هـ / 1412) للتلخيص (المنوني 1985 ص. 87 ,9).

وبما أنه في تاريخ الفكر العلمي هناك مراحل تكون أكثر أهمية من مراحل أخرى، وبعض الشخصيات العلمية تكون معبرة عن عصرها أكثر من غيرها، فإن ما يضفي قيمة أكبر على ما قام به هذا الرياضي في تاريخ هذا الفكر هو شخصيته العلمية من جهة، والظروف التاريخية التي تربى في أحضانها من جهة أخرى.

فمن جهة أولى نجد أن النصف الأول من القرن 7 هـ كان حاسما في تاريخ الغرب الإسلامي، فهو نصف القرن الذي سيعرف انهيار الإمبراطورية الموحدية أكبر إمبراطورية في كل الغرب الإسلامي. كما أن عملية الاسترداد في إسبانيا ستقلص شيئا فشيئا الرقعة الخاضعة للنفوذ الإسلامي في تلك البلاد. وهكذا فالفشل السياسي والهزيمة العسكرية ستجعل الشعوب المغربية تنغلق على نفسها أكثر فأكثر. وسنلاحظ بالتالي إعادة توجيه الفكر والثقافة نحو أهداف تخدم متطلبات المرحلة. فلذلك لن يكتب للفكر الفلسفي لابن رشد الاستمرار، حيث كان هذا الفيلسوف تحت حكم دولة مركزية قوية - الدولة الموحدية - من أكبر أنصار أرسطو كلا، فالأساسي بالنسبة للمرحلة الفاصلة بين موت ابن رشد سنة 1198 م وميلاد ابن البناء سنة 1256 م سيكون هو المحافظة على القيم الأصيلة " الخالصة " ورفض كل المؤثرات التي تعتبر خارجية [4] مع ابن البناء سنلاحظ على المستوى الرياضي إعادة توجيه البحث الرياضي ليخدم بشكل دقيق أهداف هذه السياسة الجديدة.

العامل الثاني يتعلق بشخصية ابن البناء نفسه، حيث أن هذا المفكر لم يكتف بتصنيف مؤلفات رياضية، بل ألف في مجالات أخرى متعددة، حيث أننا نحتفظ له

---

[4] والواقع أن هذه المرحلة أي النصف الأول من القرن 7 هـ بالرغم من أهميتها لم تحظ بالاهتمام الذي تستحقه وخصوصا الانعكاس الخطير الذي كان لهزيمة العقاب (609 هـ 1212 م) وكذلك عدم الاستقرار الذي سيعرفه كل الغرب الاسلامي بعد هذا التاريخ على الذهنية المغربية.

اليوم بالإضافة إلى كتبه الرياضية والفلكية بمؤلفات أخرى في المجالات التالية : تفسير القرآن الكريم، علوم اللغة العربية، علم الكلام، علم أصول الفقه، ثم المنطق والتصوف وكتابات في العلوم السرية كالسحر والطلاسم وعلم أحكام النجوم [5] .

والكتابة في ميادين متعددة لاتنم عن فكر موسوعي وهي التهمة التي ألصقها بعض المستشرقين وبعض المفكرين العرب ببعض أقطاب الفكر العربي الإسلامي، بل هناك خيط رابط بين كل هذه المجالات في ذهن ابن البناء. وهكذا يمكننا قراءة أعماله الرياضية والفلكية على ضوء أعماله في المجالات الأخرى. كما يمكننا أن نقرأ أعماله في هذه المجالات على ضوء كتاباته الرياضية والفلكية.

وباختصار شديد نقول أن متن ابن البناء يهدف إلى تحقيق مشروع ثقافي وعلمي يتضمن تصورا عن العالم تلعب فيه الرياضيات دورا محددا. وهذا ما سنراه الآن من خلال تطرقنا إلى الكيفية التي تعامل بها ابن البناء مع رياضيات عصره.

II - الرياضيات في الغرب الإسلامي قبل ابن البناء

أريد في البداية أن ألح على المستوى العالي الذي وصل إليه تدريس الرياضيات في المغرب في عصر ابن البناء. لأن ترجمة حياته وبعض فقرات كتبه تكشف لنا على أنه قرأ على سبيل المثال : كتاب الأصول لاوقليدس، كتاب الكرة والاسطوانة لارشميدس، كتاب المخروطات لابولونيوس، المدخل العددي لنيقوماخوس، فقه الحساب لابن المنعم العبدري نزيل مراكش (ت. 1128 م) الكتاب الكبير الاستكمال للملك الرياضي والمؤتمن بن هود (ت. 1085 م) مع إضافة كل المتن الفلكي التقليدي. ويعتبر مجرد حضور كتاب الاستكمال للمؤتمن بن هود ضمن لائحة الكتب التي قرأها ابن البناء، دليلا ساطعا على المستوى العالي للتكوين الرياضي

---

5 أنظر : ابلاغ وا . جبار، حياة ومؤلفات ابن البناء : محاولة بيو - ببليوغرافية عمل قيد الطبع.

لابن البناء، لأن المؤتمن لخص في كتابه هذا عددا هائلا من المصادر الرياضية للتقليديين المشرقي والإغريقي (هوخندايك 1988 ص 56). والسؤال الذي يطرح نفسه بطبيعة الحال هو هل أبدع ابن البناء في كتبه الرياضية بالنسبة للرياضيات السابقة عليه أم لا ؟

سنحاول معالجة هذا السؤال عن قرب انطلاقا من قراءة سريعة لمجالين رياضيين هما : الجبر والمقابلة ثم نظرية الأعداد والتحليل التوافقي.

II - 1 - الجبر والمقابلة

في مجال الجبر على سبيل المثال، الجواب على السؤال الذي طرحناه يتطلب منا معرفة الإنتاج الجبري للغرب الإسلامي السابق على ابن البناء، لكن للأسف الشديد فمعرفتنا بهذا الإنتاج ضئيلة جدا لأنه بالرغم من كون الكتب الجبرية الأولى قد تم إنتاجها في بغداد منذ النصف الأول من القرن 9 م أي أعمال الخوارزمي وكذلك منذ ابن علي وابن ترك الذين اعطوا لهذا المجال استقلاله عن المجالات الأخرى وذلك بتأليف مؤلفات خاصة بهذا الميدان ومتعلقة بأشياء الجبر في ذلك الوقت العدد والأشياء والأموال وبأدواته، أي المعادلات من الدرجة الأولى والثانية وخوارزميات حلولها البراهين عليها وأخيرا مجالات تطبيقية أي المعاملات التجارية وحساب المواريث وغيرها من المجالات الأخرى (الخوارزمي 1968).

المشكل الموجود الآن هو أننا لانعرف ولو تاريخ دخول هذه الكتب إلى الأندلس والمغرب. وبالرغم من وجود دليل قوي على هذا الدخول على الأقل منذ النصف الثاني من القرن 9 م إلى بعض المراكز العلمية للغرب الإسلامي كالقيروان وقرطبة. وهذا الدليل هو الظهور والتطور السريع لعلم المواريث الذي تحل قضاياه عن طريق بعض الأعمال الحسابية وكذلك الجبرية. وتطور هذا العلم واضح في الغرب الإسلامي منذ نهاية القرن 9 م كما يشهد بذلك ابن الفرضي في كتابه تاريخ علماء الأندلس (ابن

الفرضي 1966) الذي يضم تراجم قصيرة للعلماء في هذا المجال [6].

ما يثير الاستغراب أكثر هو أننا اليوم لا نحتفظ بأي كتاب جبري أنتج في الأندلس في القرنين 10 م / 11 م فوحدها بعض الأصداء للبحث الجبري خلال هذين القرنين وصلتنا الآن، وذلك بفضل بعض الأعمال التي أنتجت في القرنين 13 م / 14 م. ويمكن أن تكون أسباب هذا الفقدان ناتجة عن الاضطرابات والأحداث التي عرفها الاندلس خلال القرنين 10 م / 11 م. (جبار 1988 ص 121) [7]. ومهما كان الأمر فإن هذا الجهل بالإنتاج الرياضي السابق على ابن البناء له اعكاسات سلبية على دراساتنا للأعمال الجبرية لهذا الرياضي. والوسيلة الوحيدة السليمة التي نتوفر عليها اليوم لمعرفة بعض ما تضمنته الكتب الجبرية الأندلسية هي مؤلفات ابن البناء نفسه وكذلك مؤلفات بعض شراحه.

كتب ابن البناء في بداية حياته العلمية كتابا في الجبر سماه : كتاب الأصول والمقدمات في الجبر والمقابلة . وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب يشكل بالإضافة إلى ارجوزة ابن الياسمين المتوفى بمراكش سنة 1203 م حول الاضرب الجبرية الستة وكتاب المختصر في الجبر لابن بدر - الذي يجهل كل شيء عن حياته - الكتب الجبرية الثلاثة الوحيدة المعروفة اليوم من التقليد الرياضي للغرب الاسلامي المتخصص كليا في الجبر.

---

[6] إلى جانب استعمال الجبر في حل المسائل الفرائضية هناك استعمال للحساب وبصفة خاصة للكسور في قسمة المواريث. وقد أكد ابن الفرضي في كثير من ترجمته القصيرة هذه على أن معظم المختصين في الفرائض كانوا في نفس الوقت حيسوبين (ابلاغ 1987).

[7] غير أن الاضطرابات التي صاحبت حكم ملوك الطوائف وكذلك عملية الاسترداد المسيحية لا تفسر لوحدها فقداننا لهذه النصوص. نصوص أخرى في مجالات الفقه والأدب والتاريخ والفلسفة لم تتعرض للتلف والضياع. فإلى جانب الأسباب المذكورة، يجب البحث عن الأسباب الداخلية للتقليد الرياضي نفسه، حيث يكون نجاح كتاب ما في مجال التعليم سببا في إهمال الكتب السابقة عليه من قبل النساخ فإلى جانب عشرات المخطوطات من التلخيص لا نتوفر سوى على نسخة أو نسختين من الكتب الرياضية السابقة عليه.

بالنسبة لكتاب الأصول والمقدمات في الجبر والمقابلة لابن البناء فهو عبارة عن مختصر للشرح الذي قام به أبو القاسم القرشي رياضي اندلسي من ق 13 م عاش في مدينة بجاية على كتاب الكامل لابن الكامل المصـــري (ت. 930).للأسف فشرح القرشي مفقود، أما بالنسبة لمختصره أي كتاب ابن البناء فإنه ينخرط كلية في التقليد الجبري لأبي كامل مع بعض الإضافات الجديدة التي لانجدها عند هذا الأخير كتمديد القسمة إلى المقادير الصماء من الضرب ن + V م + V ب ارجاع المعادلات الجبرية التربيعية إلى صيغة واحدة هي ج + 2 (ب / 2) = 2 (2 / ب + س) التي لا تتم البرهنة كما عند الخوارزمي وأبو كامل بالبراهين الهندسية بل عن طريق المتطابقتين الهامتين التاليتين التي تعتبر بمثابة قراءة جبرية للشكلين 4 و 7 من المقابلة الثانية من كتاب الأصول لاوقليدس (جبار 1988 ص 112) لكن إذا كانت هذه العناصر الجديدة التي نجدها لأول مرة في تاريخ الرياضيات في كتاب ابن البناء يشهد على التقدم الكبير الذي تحقق في مجال الجبر خلال القرنين 10 م و 11 م في الغرب الإسلامي فإنها أيضا بالنظر للعدد القليل من هذه العناصر الجديدة تكشف عن الانعكاسات السلبية لاختيار بعض الرياضيين كتابة المختصرات بدل تصنيف كتب البحث الرياضي على مستوى الإبداع في هذا المجال لأن الهدف الذي يصرح به ابن البناء نفسه هو تأليف مختصر يغني عن الكتب المبسوطة الكبيرة الحجم (جبار 1990). وبما أن كتاب ابن البناء هو الذي فرض نفسه في تعليم الجبر بالمغرب، فإنه من الممكن طرح السؤال التالي : ألم يؤد هذا النجاح إلى الإقبار النهائي لنتائج أخرى جديدة حققها الرياضيون المغاربة غير أن ابن البناء لم ير الفائدة من ذكرها في كتابه هذا خصوصا وأن المعلومات التي نتوفر عليها اليوم عن مصدر كتاب ابن البناء أي شرح القرشي لكتاب ابي كامل، تبرز لنا أنه كان كتابا هاما في مجال الجبر (جبار 1988 ص 107). فبالإضافة إلى قول ابن خلدون الذي كان على اطلاع كبير على رياضيات عصره " إن كثيرا من أهل الأندلس شرحوا كتاب ابي كامل فأجادوا وأن من أحسن شروحاته كتاب القرشي (لابن خلدون، ص 484) . فالقرشي لم يكتب شرحا تقليديا على كتاب ابي كامل حيث أنه راعه الترتيب النظري لكنه لم يتتبع بالشرح كل فقرات كتاب ابي كامل، وبما أن رياضيا آخر هو العقباني والذي كان يمتلك الكتابين معا أي كتاب

القرشي، وكتاب ابن البناء يرى ان ابن البنا يختصر لكنه لا يبدع (جبار 1988 ص 111 - 107) فإنه ليس هناك ما يمنعنا من افتراض أن الرياضي المراكشي لم يسع إلى تضمين كتابه كل التطورات التي تحققت في مجال الجبر، نفس الشيء يمكننا قوله عن الكتابين الآخرين اللذين يحتويان على أبواب جبرية.

الأول : هو كتاب تلخيص أعمال الحساب أشهر كتاب في التقليد الرياضي المغربي على الإطلاق. فقد سيطر على حلقات الدرس والتأليف وامتد تأثيره إلى المشرق ما بين القرنين 14 م - 16 م (المنوني 1985 ص 83). هذا الكتاب لا يحتوي سوى على قواعد وخوارزميات حلول الاضرب الجبرية الستة من الدرجة الأولى والثانية لكن لا أثر فيه للبراهين ولا للتطبيقات الجبرية (سويسي 1969 النص العربي ص 73 - 77 الترجمة الفرنسية ص 91 - 97).

الكتاب الثاني : هو رفع الحجاب عن وجوه أعمال الحساب الذي ألفه الرياضي المراكشي كشرح فلسفي رياضي وكتكملة للتلخيص. هذا الكتاب يحتوي على عناصر جديدة، خصوصا تقديم براهين جبرية محضة لا أثر فيها للأشكال الهندسية، والبرهنة على قاعدة الرموز الشهيرة باستعمال صيغ موجبة وبالاعتماد فقط على العلاقات الجبرية (ابلاغ 1988). لكن المثير للاستغراب هو غياب نظرية هامة كتلك المتعلقة بالحل الهندسي عن طريق المخروطات للمعادلات من الدرجة الثالثة، حيث أنها غائبة عن رفع الحجاب ومن كل الكتب الأخرى المعروفة اليوم من التقليد الرياضي المغربي. إذن مع ابن البناء وربما قبله بكثير سنلاحظ ليس تطورا في الدراسات الجبرية في الغرب الاسلامي بل تقليصها في هذا المجال. وإذا أخذنا بعين الاعتبار كون كل الكتب الرياضية التي أنتجت في المغرب بين القرنين 14 م - 15 م هي شروح على التلخيص باستثناء كتاب رشفة الرضاب من ثغور أعمال الحساب للقطرواني، فإننا سنفهم لماذا هناك ضعف في الدراسات الجبرية بعد ابن البناء.

فبفضل احتواء التلخيص على باب جبري، فإنه جعل الجبر يبقى حاضرا في الكتابات الرياضية المغربية لمدة طويلة، لكن حسب الشراح فهناك من يكتفي بالشرح وهناك من يبرهن أو يقدم أمثلة أو يمدد مضمون التلخيص. لكن وهذا هو الأساسي،

فيما أنها شروح فإنها بقيت سجينة الإطار العام الذي رسمه ابن البناء والذي هو الاضرب الجبرية الستة من الدرجة الأولى والثانية وخوارزميات حلولها مع البرهنة على صحة هذه الحلول.

وهذا هو الضعف الأساسي لهذا النوع من الكتب التي هي الشروح. لأن الشارح يتبع بدقة الاطار العام الذي رسمه المؤلف مما لايعطيه الحرية في معالجة قضايا أخرى غائبة من الكتاب المشروح.

لقد قام ابن البناء باختيار للقضايا الرياضية التي توافق مشروعه الفكري والعلمي. وسنتطرق الآن إلى الكيفية التي سيعالج بها بعض القضايا المتعلقة بنظرية الاعداد.

II - 2 - نظرية الاعداد والتحليل التوافقي

نعرف اليوم أنه في أواخر القرن 11 خصص المؤتمن بن هود بابا من كتابه الاستكمال للأعداد المتحابة، حيث أنه لخص كتاب ثابت بن قرة حول الأعداد (هوخندايك 1988 ص. 56) [8] .

نعرف أيضا أنه في القرن 12 م هناك فصل من الباب الثالث عشر من السفر الثاني من كتاب الكامل في صناعة العدد للحصار مخصص للاعداد المتحابة كما هو مثبت في بداية النسخة الوحيدة المعروفة اليوم من السفر الأول من هذا الكتاب (مخ. مراكش خزانة ابن يوسف رقم 313 (91) (ابلاغ وجبار 1987 ص. 155).

ابن منعم هو الآخر في بداية القرن 13 م خصص فصلا من كتابه " فقه الحساب للأعداد المتحابة " (جبار 1985 ص 85)، لكن في النص الثاني من ق 13، وبالرغم من قوة هذا التقليد، فإن ابن البناء سيقرر بكل برودة ترك التطرق إلى الاعداد

---

[8] أ و ب متاحبان عندما يكون أ ب مع أجزاء أ = ب وأجزاء ب = أ وأصغر زوج متحاب هو (220 , 284).

المتحابة جانبا بدعوى عدم جدواها العلمي (ابلاغ 1988 ص 320) حاذفا بذلك لباب هام من نظرية الاعداد. فنرى هنا بكل وضوح كيف أن المحيط الثقافي يلعب دورا كبيرا في توجيه البحث الرياضي. فرفض ابن البناء معالجة الاعداد المتحابة في أعماله الرياضية ناتج عن اتجاهه السني الصارم، حيث أن الاعداد المتحابة تستعمل في السحر وتنم عن نزعة احيائية مخالفة للتصور الديني عن الكون.

هناك مثال آخر جد معبر وهو المتعلق بالتحليل التوافقي، فنعرف اليوم أن ابن منعم يربطه بين الرياضيات والدراسات اللغوية نجح في تشييد جداول تمكننا بالاستقراء الحصول على كل التوافقات المطلوبة (جبار 1985). بعد ما يقرب من قرن تقريبا على هذه النتائج التي توصل إليها ابن منعم، سيواصل ابن البناء العمل في نفس الاتجاه الذي رسمه ابن منعم، مضيفا لبرهنة رياضية جديدة تتيح التعرف على كل التوافقات دونما حاجة إلى تشييد المثلث الحسابي (إبلاغ 1988 ص 312 - 320). لكن ما سيثير اهتمامنا هو تلك العلاقة الوطيدة التي سيقيمها الرياضي المراكشي بين جدول الأشكال العددية والتوافقات، يتعلق الأمر بالمثلثات العددية والتوافقات ل - ب اشياء اثنين اثنين ثم المربعات العددية والمتوافقات ثلاثة لعدد ب من الأشياء لكن لماذا بالرغم من امتلاكه لكل الامكانيات الرياضية توقف عند هذين المستويين ولم يهتم بتقديم القانون الرياضي العام الرابط بين جدول الأشكال العددية والتوافقات.

من الجلي أن ابن البناء لم يرم هنا سوى إبراز كيف ان الأشكال العددية يمكن أن تكون نافعة في حساب التوافقات لبناء الكلمات الثلاثية في المعجم اللغوي وهو ما صرح به ابن البناء نفسه في كتابه رفع الحجاب (إبلاغ 1988 ص 312).

إلا أنني أريد التأكد على أن هذا الأمر لا يجب أخذه كمؤشر على نقص ما في التكوين الرياضي لهذا المفكر كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين بل انني اعتقد جازما بأنه تعمد التقليص من مجال أبحاثه الرياضية وحتى إبراز هذه المسألة بوضوح

ساعقد مقارنة سريعة بين ابن البناء [9] . ورياضي آخر هو كمال الدين الفارسي الذي ألف كتابا بعنوان : تذكرة الاحباب في بيان التحاب وهي رسالة في الأعداد المتحابة (راشد 1982) فبما أنه من الضروري فيما يخص حساب الاعداد المتحابة معرفة كل الأجزاء على حدة، وبذلك يكون من الضروري لمعرفة عد أجزاء كل عدد فإن الرياضي يجد نفسه ملزما بإعطاء القانون العام. فلدراسة أجزاء الاعداد ليس المهم هو (الاعداد المثلثة أو المربعة بل ما يهم الرياضي هو الأشكال العددية من اية درجة كانت. وهذا ما نجده في كتاب الفارسي لكننا نجده بطبيعة الحال في نص ابن البناء (راشد 1984).

فالمقارنة بين هذين الرياضيين جد مفيدة، خصوصا وانهما متعاصران فالفارسي توفي سنة 1318 م وابن البناء توفي سنة 1321 . فاهتمام الفارسي بالاعداد المتحابة جعله يعمق دراسته للأشكال العددية بينما لانجد نفس الشيء في كتاب ابن البناء ، غير أنه بالرغم من اكتفاء هذا الأخير بتقديم نتائج جزئية، فهذا لا يمنعنا من افتراض أنه يعرف أكثر مما كتبه حول الموضوع. لأنه يصرح في كتاب صغير عنوانه " تنبيه الألباب على مسائل الحساب" بأن التوافقات مفيدة في مجالات أخرى غير مجال المعاجم اللغوية (مخ. الجزائر المكتبة الوطنية رقم 6/613 (73 و) فلا شيء يمنعنا بناء على هذا التصريح من القول بأن الرياضيين حاولوا توسيع حقل التوافقات في عصر ابن البناء لاستعمالها في مجالات أخرى كالسحر وألعاب الحظ بالرغم من التحرير الرسمي لكن ابن البناء لم ير الفائدة من التذكير بنتائج أبحاثهم في كتبه الرياضية.

---

[9] أنظر (راشد 1982 القسم العربي ص. 275) حيث يعتبر أن السبب في كون ما قام به ابن البناء أقل قيمة مما قام به معاصره الفارسي ناتج عن الطابع التعليمي ككتابه رفع الحجاب. الواقع أن هذا الكتاب ليس كتابا قيما، بل هو كتاب قدم فيه ابن البناء التصور العام الذي تحكم في مشروعه الرياضي مع تعميق للنظر في القضايا الواردة في التلخيص مما جعل الكتاب لا يستعمل في التعليم. اما توقف ابن البناء عند قوانين جزئية فيرجع إلى كون ظهور التحليل التوافقي في المغرب كان مرتبطا بالدراسات اللغوية وخصوصا بناء المعاجم (جبار 1985) وليس بدراسة خصائص أجزاء الاعداد كما هو الامر عند الفارسي في الشرق كما أن هذا التوقف ناتج عن الطابع العام للمشروع العلمي والثقافي لابن البناء وهو الامر الذي حاولنا أن نبينه بين ثنايا هذا البحث.

وهو نفس الشيء كما رأينا فيما يخص الاعداد المتحابة بل انه سيتخذ نفس الموقف فيما يخص استخراج الجذر النوني (ابلاغ 1988، ص. 296). وإعداد الموقف (إبلاغ 1988 ، ص. 312). وهذا القدر بالاختيار فيما يخص المادة الرياضية التي يجب التعامل معها وتلك التي يجب تركها، تبين لنا أنه بالنسبة لبعض الرياضيين كابن البناء فالرياضيات ليست مطلوبة لذاتها بل انها تشكل جزءا من مشروع ثقافي وعلمي عام. وبالنسبة لمؤلفات هذا فإنني لا أزال في البداية الأولى لدراسة متنه كوحدة فكرية متكاملة وأتمنى أن يسعفني الزمان بانجاز هذا المشروع. لذلك سأكتفي بالقول هنا بأن موقف ابن البناء من رياضيات عصره كان موقفا برغماتيا نفعيا إن جاز هذا التعبير. وهكذا فهو يصرح في بداية كتابه رفع الحجاب.

" الحساب هو مزاولة الاعداد بنوعي : الجمع والتفريق وصناعة العدد قسمان هما الجزءان المذكوران في الكتاب وينتفع بهما في الفرائض والمعاملات وغيرهما. إذ للفرائد أصول موضوعة من الشرع وللمعاملات أصول موضوعة من أهل المدن، تتصرف فيهما صناعة العدد وهذا التصرف هو المسمى حسابا " (إبلاغ 1988 ص. 250).

وهكذا فالمادة الرياضية المستعملة في هذين المجالين هي التي ستهم بالدرجة الأولى ابن البناء [10].

---

[10] وهذا لايعني بتاتا أن رياضيات ابن البناء رياضيات عملية. حيث نجد أنه عمق النظر في مجال نظرية الاعداد خصوصا دراسته لخصائص جدول الأشكال العددية، واهتم بأصول الحدود والمفاهيم الرياضية المستعملة في رقم الحجاب (إبلاغ 1988)، بل وقف عند الفرق بين الاعتبارات النظرية للأعداد و التطبيق العملي لها (ابلاغ 1987).
نريد فقط أن نبين هنا كيف أن الاهتمام بهذين المجالين التطبيقيين (المعاملات والفرائض) سيجعلان ابن البناء يختار داخل المادة الرياضية بين القضايا المفيدة الاهتمام بها وتلك التي من الممكن تركها.

لكن هناك مسألة أخرى أعمق من هذه وأكثر دلالة، وهي ان الرياضيات مرتبطة بالتصور الديني لابن البناء وهو ما يبرر هذا الاختيار في ذهنه، فهناك في البحث عن حقيقة الوجود مراتب وتشكل الرياضيات مرتبة محددة في مجال البحث عن الحقيقة. حيث أن ابن البناء في كتابه الصوفي الكبير شرح مراسم طريقة في فهم الحقيقة من حال الخليقة يقول لنا.

" أقسام مرتبة الوجود : قسم في أصل الأعداد ومراتبها، وقسم في أصل الحروف وأسمائها، وقسم في لواحق العدد للحروف، وقسم في الاعتبار النظري من جهة الكم المنفصل وفيه يظهر لزوم الرسالة (التشديد مني). وقسم في خواص الحروف التي في أوائل السور، وخواص أي القرآن، وخواص السور والآيات، وقسم في إعجاز القرآن من جهات كثيرة، ويظهر أن ليس من قبل الإنسان ولا من قبل الجن بل هو من الله حقا.

وفيه يظهر بيان العلوم وانحصارها في القرآن على فرقان بين الحق والباطل وعلى الإطلاق والعموم والله الهادي المرشد " (مخ. الرباط الخزانة العامة رقم 2378 د، ص. 201) [11] .

ويظهر لنا من هذا الكلام أن ابن البناء شأنه في ذلك شأن الرياضيين الكبار يشغل الفكر الرياضي عنده وسيلة لفهم العالم المحيط بنا. وهذه الوحدة الفكرية وعمق النظرة الدينية للأشياء هي التي تجعل من الممكن مقارنة فكره الرياضي بأعمال رياضيين محدثين كبار كديكارت وباسكال وبونزانوباغ الذين تحتل الرياضيات عندهم درجة معينة في إطار البحث عن الحقيقة لكن حتى لاتكون مقارنتنا هذه مقارنة

[11] انظر محمد إبلاغ، مراسم طريقة وشرحة لابن البنا. أطروحة في طور الإنجاز.

تعسفية، فإنها يجب أن تأخذ بعين الاعتبار اختلاف عالم ابن البناء المغلق المتناهي للعصر الوسيط عن العوامل اللامتناهية التي ينتمي إليها المحدثون ولهذا ستخصص الفقرة الأخيرة من هذا البحث إلى هذه المسألة من خلال الحديث عن بعض أصول الرياضيات.

III - أصول الرياضيات وعالم ابن البناء

المثال المفيد هنا هو المتعلق بتبرير اختيار النظام العشري في الحساب . لأننا نعرف عن طريق شارح من القرن 14 م هو ابن هيدور التادلي (ت. 816 هـ / 1413 م) ان ابن البناء ألف كتابا صرح فيه أن العقل قابل لتصور نظام تكون فيه الاعداد في كل مرتبة أكثر أو أقل من تسعة أعداد (إبلاغ 1990). النموذج الذي يتبادر مباشرة إلى الذهن هو استعمال ليبنز (1646 م - 1716 م) لنظام اثنين أي يعتمد على 0 و 1 فقط في كتابة أي عدد شئنا. لكن السؤال المطروح بإلحاح هو لماذا لم يحتفظ لنا التقليد الرياضي المغربي بأي أثر لهذا الكتاب ولا أثر كذلك لكتاب ابن المنعم حول نفس الموضوع ؟ الجواب على السؤال نجده عن ابن البناء نفسه حيث يتبين لنا اليوم بعض الاسباب التي تؤدي إلى الفقدان النهائي لبعض ما ألفه الرياضيون العرب.

فكرة النظام ناتجة عن الطبيعة اللامتناهية للأعداد. وبما أنه من المستحيل تسمية أشياء لامتناهية فيجب إرجاعها إلى المتناهي. إرجاع اللامتناهي إلى المتناهي هو الذي أدى إلى جعل الأعداد في ثلاث مراتب مع تسعة اعداد في كل مرتبة (سويسي 1969 النص العربي ص 39 الترجمة الفرنسية ص. 42).

إلى هنا الأمور عادية، فمن وجهة نظر رياضية يمكننا أن نقبل مع ابن البناء هذا التبرير، حيث يمكننا مقارنة الاعداد باللغة الطبيعية التي تمكننا انطلاقا من حروف متناهية العدد من تسمية الأشياء إلى ما نهاية.

لكن المشكل يطرح بالنسبة إلينا فيما يخص تراجع ابن البناء عن موقفه الأول، حيث أنه سيصرح في رفع الحجاب بأنه لا يمكن تصور نظام آخر غير النظام العشري،

فوحده هذا النظام قابل للتبرير النظري. الجواب على هذا المشكل يجد أساسه في كون العالم الذي كان يعيش فيه هذا الرياضي عالم متناهي مغلق مخالف تماما للكون اللامتناهي للمحدثين والذي يمكننا أن نتصور فيه أي نظام شئنا. فبالنسبة لابن البناء هناك علاقة وطيدة بين الأعداد والنظام الكوسمولوجي الذي نعيش فيه. وهكذا فهو يقول لنا :

وإنما جعل في المرتبة تسعة اعداد لان العالم جوهر وعرض فيه، والعرض تسعة أجناس، والجوهر قسمان : حاصر ومحصور فالحاصر تسعة وهي : السماوات السبع والكرسي والعرش والمحصور فيها تسعة : العناصر الأربعة : النار والهواء والماء والتراب والمتكون منها جنسا : المعدن والنبات والحيوان.

ثلاثة والجن والملائكة، وجعل للعدد ثلاث مراتب لان الجوهر مكان للأعراض التسعة والأرض مكان للمكونات فيها وعليها، وهي باعتبار الحاصرة مركز الكل، والمركز بمنزلة المكان لها، فقد صار العالم كله ثلاث تسعات في ثلاثة أمكنة، فجعلوا العدد ثلاث تسعات في ثلاث مراتب، وجملة العالم عشرة : الجوهر وتسعة أجناس العرض، وإذا اعتبرت الأرض مع كل واحد من الحاصر والمحصور كان عشرة، فصارت العشرة عقدا للدور العددي، وجعلت واحدا في المنزلة الثانية التي فيها بمنزلة وحدة الجملة " (إبلاغ 1988 ص. 261).

نفس الشيء يمكن قوله عن وضع العمليات الحسابية، ففي الرياضيات العربية هناك وضع لنتيجة عمليتي الجمع والضرب فوق العملية، بينما توضع نتيجة عمليات الطرح والقسمة والتجذير تحت العملية. فهذا ناتج حسب ابن البناء إلى حركة الكون والفساد في العالم الذي نعيش فيه، أي عالم ما تحت القمر حسب التعبير القديم فعمليتا الجمع والضرب تشبهان تكون الأشياء ونموها إلى فوق، بينما توافق عمليات الطرح والقسمة والتجذير اضمحلال الأشياء وفناءها ورجوعها إلى الأرض أي إلى تحت (ابلاغ 1988 ص. 351).

إذن بالنسبة لمؤلفات فهناك علاقة وطيدة بين الرياضيات والعالم كما نتصور.

IV - الخاتمة

تحديد العالم الذي تنتمي إليه أعمال الرياضيين العرب بين 9 م وق 15 م، عالم تحتل فيه الأرض مركز العالم هو أحد الأهداف المنشودة من هذا البحث. غير أنني لا أدعي تقديم تقييم عام عن الرياضيات العربية فهي مسألة لم يحن وقتها بعد. لكن بالنسبة لابن البناء فإنني أريد أن أقول بأن تصوره عن العالم لعب دورا كبيرا في توجيه بحثه الرياضي، وهو ما يفسر لنا كيف أن كتاباته الرياضية بالرغم من قيمتها الكبيرة لاتعكس كلية المستوى العالي الذي وصل إليه تعليم الرياضيات في عصره.

لذلك فلكي لا يتم تضخيم دور الرياضيين العرب في تاريخ الرياضيات. ولكن أيضا وأساسا لكي تنبذ كل الاعتبارات الانثروبولوجية من هذا المجال، والتي تحاول أن تقلل من دور شعوب جنوب البحر الأبيض المتوسط في تاريخ الرياضيات فيجب أن نأخذ بعين الاعتبار هذا المرور الذي حققته الثورة العلمية في القرنين 16 م - 17 م من عالم متناهي مغلق إلى كون لامتناهي مفتوح. والذي سيبدو لنا بالتالي ليس كانتصار لافلاطون على أرسطو كما ذهب إلى ذلك كويري (A. Koyré) ولا كقطيعة ابستمولوجية مع فكر القرون الوسطى كما اعتقد ذلك باشلار (G. Bachlard) بل كنتيجة طبيعية للجهود المستمرة والمتواصلة عبر القرون والتي لم تعرف اي انطلاق للإنسان في سعيه الدائم لفهم حقيقته وحقيقة الكون الذي يعيش فيه.

وفي الختام أريد طرح التساؤل التالي وهو : هل توقف التقدم في مجال الرياضيات بالمغرب ناتج عن كيفية التعامل مع مفكرين كلاهما توفي في مراكش : الأول هو ابن رشد والثاني هو ابن البناء. الأول أعطى الأولوية للمنطق والفيزياء (العلوي 1986) لكنه أقبر نهائيا في المغرب الوسيط بينما سيكتب لمشروعه الاستمرار في أوربا. والثاني أعطى الأولوية للرياضيات والتصوف، ونجح في تحقيق السيطرة التامة على الساحة الثقافية المغربية الوسيطة.

فلو كانت هناك مدرسة رشدية إلى جانب مدرسة ابن البناء وكان هناك صراع بينهما لربما تم في الأخير التركيب بين الفزياء والرياضيات، وفتحت بذلك افاق أرحب أمام البحث الرياضي [12] . هذا التساؤل لم تتم الإجابة الشافية عنه إلا بالعثور على بعض النصوص التي لا تزال مفقودة والتي تعتبر بمثابة حلقات ضائعة من تاريخنا العلمي والفلسفي، وتظافر جهود الباحثين في المراكز العلمية وأخص بالذكر هنا مركز الدراسات الرشدية بفاس ومركز الدراسات والأبحاث حول مراكش، حتى نتمكن من كتابة تاريخ العلوم في هذه المنطقة، هذه الكتابة التي تعد بمثابة مقدمة ضرورية وأساسية من أجل دمج ما حققته الإنسانية حاليا من تقدم علمي وتكنولوجي في جسم ثقافتنا العربية الإسلامية.

---

[12] أريد التنبيه هنا إلى أن التساؤل ليس سوى فرضية تحتاج إلى المزيد من البحث والتمحيص. فلا أحد ينكر أنه بعد ابن البناء وخصوصا في الشرق الاسلامي كان هناك رياضيون كبار مبدعون لذلك فإننا لا نطرح هذا التساؤل من الناحية التاريخية بل إننا نطرحه أساسا من الوجهة الابستمولوجية. حيث نتعرف على الأسباب الحقيقية الكامنة وراء عنهم الربط بين الفيزياء والرياضيات في التراث العربي الاسلامي الوسيط والغرض من طرح هذا التساؤل هو فتح افاق أرحب أمام البحث في مجال تاريخ الرياضيات العربية.

المصادر العربية

ابلاغ : 1990 الفكر الرياضي لابن هيدور التادلي (816 هـ / 1413 م) الملتقى المغاربي الثالث حول تاريخ الرياضيات العربية (1 - 3 دجنبر 1990) سينشر البحث ضمن أعمال الملتقى.

ابن خلدون، عبد الرحمان (بدون تاريخ) مقدمة تاريخ ابن خلدون. بيروت دار الفكر.

ابن الفرضي، أبو الوليد 1966. تاريخ علماء الاندلس. مصر الدار المصرية للتأليف والترجمة.

الخوارزمي، 1968 كتاب الجبر والمقابلة. تقديم وتعليق على مصطفى مشرفة ومحمد مرسي أحمد. مصر : دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

راشد، 1982. نصوص لتأريخ الأعداد المتحابة وحساب التوافقات مجلة تاريخ العلوم العربية (معهد التراث العلمي العربي - جامعة حلب سورية). المجلد 6 العددان 1 و 2 ص 3 - 68.

سويسي، م 1969. ابن البناء المراكشي، تلخيص أعمال الحساب تحقيق ترجمة فرنسية وتعليق. تونس : منشورات الجامعة التونسية.

العلوي، جمال الدين. 1986. المتن الرشدي مدخل لقراءة جديدة. الدار البيضاء. دار توبقال للنشر.

المنوني، م. 1985 نشاط الدراسات الرياضية في مغرب العصر الوسيط الرابع (عصر بني مرين). المناهل (مجلة وزارة الشؤون الثقافية، الرباط - المغرب العدد 33، ص. 77 - 115.

REFERENCES

Aballagh M. 1987 des fractions entre la théorie et la pratique chez Ibn al-Bannâ. **Colleque international de Paris sur l'Histoire des fractions 30 à 31 Janvier 1987.** sans Presse.

1988. Raf al Hijab d'Ibn al-Bannâ.

Edition critique, traduction; Etude philosophique et Analyse mathématique, thése du doctorat, université de Paris I (Panthéon - Sarbonne à 747 p.

1988 B des fondements des mathématiques à travers la Raf al-Hijab d'Ibn al-Bannâ (1256 - 1321). A clés du premier colleque international d'Alger sur l 'Histoire des mathématiques Arabes (1 - 3 Décembre 1986) Alger Maison du livre, pp. 133 - 156.

Aballagh, M et Djebbar, A. 1987 Découverte d'un ecrit mathématique d'al Hassar (XII - S). Ce livre I du Kâmil. **Historia Mathématica** 14 - 147 - 158.

Djebbar, A. 1981. Enseignement et recherche mathématique dans le Maghreb des XIII - XIV siècles. Publication Mathématique d'orsay n° 81 - 02 Orsay université Paris - Sud.

1985 L'analyse Conbinatoire au Maghreb l'exemple d'Ibn Munaim. Publication Mathématiques d'orsay, n° 85 - 01. Orsy Université Paris - Sud.

1985. B les nombres figurés dans la tradition mathématique de l'Andalousie et du Maghreb. Prépublication Mathématique d'orsy, n° 85 T 44. 29p.

1986 La Contribution mathématique d'almutaman (Xle S) et sans influence au Maghreb. **Colloque** Maghrebin de Bait et Hikma, Carthage (Tunisie), 14 - 15 février 1986. sans présse.

Djebbar, A 1988 quelques aspects de l'algébre dans la tradition mathématique arabe de l'occident musulman. A clés du premier **colloque** international d'Alger sur l'Histoire des mathématiques arabes; Alger (1 - 3 - Déc 1986) Alger Maison des livres, pp. 99 - 123.

A 1990 Kitab al-usul Wa l Muqaddimât fil Jabr. wa l Muqabala d'Ibn al Bannâ. in Mathématique et mathématiciens dans Maghreb médiéval (IX - XVI S) Thése de Doctorat Université de Nantes (France).

Hojendijk, J.P 1986 Discorery of on 11 H Centany géometrical, Compilation the Istikmal of yusouf al-Mutanan Ibn. Hûd, King of Saragossa Historia Mathématica 13 - 43 - 52.

1988 le roi géométre al - Mutaman Ibn Hud et son livre la perfection (Kitab al - Istikmal) **Actes du premier Colloque international d'Alger sur l'histoire des mathématiques Arabe**, Alger Maison des livres, pp. 51 - 66.

1990 **géometrical parts of the Istikmâl of yusef al - Mutaman ibn Hûd (11 th Century) An analytical. Table of Contents** Preprint Nr 626. Departement of mathématiciens University Ut treckt 73 p.

Rasbed. R. 1984 Nombres amiables, parties aliquates et nombres figurés aux (XIII et XIV. Entre arithmétique et algébre. Paris les belles lettres p.p. 259 - 299.

Youschkevitch A.P. 1976 **les mathématiques arabes** (VIII - XV Siècles) Paris, Vrin.

ملامح التأثير البيئي في أدب
ابن البناء المراكشي

الاستاذ قاسم الحسيني
كلية الآداب
الرباط

إذا نحن أمعنا النظر بعناية في مختلف النتاجات المتوافرة في تراثنا المغربي، فسنجد لامحالة أسرارا شتى راقدة تنتظر بشغف من يكشف عنها، ويستكشف مغزاها الحقيقي انصافا لأصحابها من جهة وللتاريخ الذي احتواها من جهة ثانية، وهذه هي الغاية المتوخاة من هذه الندوة، أرجو بعرضي المتواضع هذا أن أسهم في تحقيق بعض من تلك الغاية، فأقول :

إن أي إنتاج في نظري لايمكن تحديد بنيانه وخصائصه : إلا داخل منظومة من العلاقات' ليس المنتج فيها سوى عنصر من بين عناصر متعددة فهناك عنصر البيئة الطبيعية، وعنصر الثقافة والتركيبة الاجتماعية بتفاعلاتها، إلى جانب عنصر الاستعداد الفطري. بين هذه العناصر جميعها يأخذ نتاج ما وضعه في عملية مد وجزر مع هذا العنصر وذاك.

فحين يلقى نتاج ما قبولا واستحسانا في بيئة معينة لدى أنواع من المتلقين، فذلك يعني أنه قام على أساسين، واحد منهما يشترك فيه المبدع مع المتلقي. هذا ان الاساسان هما : الخاص أو الذاتي ويرتبط أساسا بذلك الاستعداد الفطري أو الموهبة. أما الثاني فهو عام أو موضوعي وهو العنصر المشترك بين المبدع والمتلقي. هو كل شيء باستثناء الاستعداد الفطري : هو الثقافة، هو عناصر الإثارة الخارجية في المجتمع.

إذن يصح القول في نظري بأن البيئة تبدو وراء كل خطوة يخطوها المنتج مهما كانت مجالات هذا الإنتاج ونوعياته.

وتأسيسها على هذا الطرح تلوح أمامنا أسئلة متعددة : هل هناك تأثير بيئي في نتاج ابن البناء ؟ ما مصادر هذا التأثير ؟ وما مظاهره العامة ؟.

يبدو من الصعب أن نجيب إجابة دقيقة وشافية على هذه التساؤلات باعتبار ما تتطلبه من سعة في المجالين الزماني والمكاني، غير أننا وعملا بالمقولة " ما لايدرك كله لا يترك جله " سنعمل على تسليط الضوء على كثير من جوانب تلك التساؤلات :

في البداية أبادر إلى تحديد ما أقصده بعنصر البيئة في هذا العرض، فأقول بأنني لن أتناول الحديث عن البيئة الطبيعية ولا الاجتماعية ولا السياسية وإن كنت أدرك جدوى الحديث عن مثل هذه البيئات في موضوع كهذا، لولا خوفي من اغراق هذا العرض في ذكر أحداث اجتماعية وسياسية قد تنسينا ابن البناء أو تعصف به صوب الهامش، وإنما سأقف عند بعض ملامح التأثير والتأثر في البيئة الثقافية، العلمية والأدبية منها على السواء. تلك التي تفاعل معها ابن البناء أخذا وعطاء : أخذا وافرا وعطاء غزيرا [1]. لأن البيئة العلمية والأدبية بالمغرب على عهده لا يمكن أن توصف إلا بالمزدهرة يذكر الأستاذ محمد الفاسي في مقدمة تحقيقه لرحلة العبدري الحجازية متحدثا عن صاحبها قائلا : ثم إن العبدري لا يذكر أنه درس بمدينة علم مشهورة قبل خروجه للرحلة الحجازية، مع أنه يظهر في رحلته علما جما وإطلاعا واسعا في العلوم الإسلامية والآداب العربية منذ خروجه من بلاده مما يدل على أنه درس على أفراد عائلته وأقربائه، وفي هذا أيضا دليل على أن العلم كان منتشرا في كل الاصقاع المغربية حتى البعيدة المتطرفة منها، وإن حركة النهضة العلمية التي بدأت مع المرابطين ثم مع الموحدين كانت قد أنتجت، وأتت أكلها في أواخر القرن السابع الهجري [2] .

---

[1] انظر نيل الابتهاج ص 65 - 66 وما بعدها.
[2] مقدمةتحقيق رحلة العبدري الحجازية ص : 2.

إن شهادة هذا الدارس المغربي يمكن أن تضاف إليها شهادات أخرى كثيرة أثبتها أصحابها في مصنفاتهم [3] . ونحن حين نقرأ في ضوئها بعض الاعلام أو العكس نقرأ الاعلام لننتهي إليها لا يمكن إلا أن ننتهي إلى ما انتهوا إليه، وهذا ما حدث بالفعل عند تأملنا ابن البناء .

لقد أفضى بنا الأمر ونحن نتأمل مصادر تأثير البيئة الثقافية في نتاج ابن البناء إلى أنها على درجة كبيرة من الرقي في شتى ميادينها، كانت رائعة مزدهرة في البلاد، من أبرز مظاهرها ظهور أعلام ومفكرين وأدباء أمثال القاضي الشريف بن علي بن يحيى، وابي اسحاق الصنهاجي العطار [4] . وابن عبد الملك المراكشي والعبدري وغيرهم كثير.

يورد أحمد بابا التانبكتي في كتابه " نيل الابتهاج " حديثا مطولا جم الفائدة عن ابن البناء يمكن بعد تأمله نعت ابن البناء بما يلي :

1 - ابن البناء المستهلك (المتأثر)

2 - ابن البناء المنتج (المؤثر)

فبخصوص الحالة الأولى يمكن ترصد ابن البناء فيها داخل حلقات التدريس وتلقين العلوم بمراكش وخارج مراكش كفاس مثلا. فقد كان نشاط الحركة العلمية متواصلا بهما تدل عليه كثرة الشيوخ الذين أخذ عنهم صنوف العلم وأنواع المعرفة، نخص منهم بالذكر [5] . : أبا عبد الله بن يسر الذي قرأ عليه القرآن والقاضي الشريف محمد بن علي بن يحيى الذي أخذ عنه العربية نحوا وعروضا وبلاغة، وأخذ التصوف

---

[3] نذكر في هذا الصدد ما كتبه المرحوم عبد الله كنون النبوغ المغربي وكتابات الاستاذ المنوني واستاذنا محمد بنشقرون وغيرهم كثير إضافة إلى المصادر الأخرى كالاستقصا الناصري ومحمد عبد الله عنان، وابن خلدون، وابن أبي زرع.

[4] نيل الابتهاج ص 66.

[5] طائفة منهم بمراكش وأخرى بفاس أنظر نيل الابتهاج ص 66 فقد كانت عدة مراكز للدراسة والتحصيل كالحلقة التي كان يحضرها ابن البناء في المسجد الأعظم، وباب دكالة، وجامع الشرفاء، كما كان يحضر حلقات الهزميري باغمات : انظر المنتقي المقصور في غير ما مكان منه.

عن أبي إسحاق الصنهاجي، وقرأ الفرائض على أبي بكر القلاوسي والحديث عن أبي عبد الله، كما لقي محمد بن عبد الملك وقرأ عليه الموطأ ثم قرأ شرحه على أبي عمران موسى الزناتي، وتفقه في التهذيب وأخذ علم السنن على قاضي الجماعة بفاس أبي الحجاج يوسف التجيني المكناسي، وأبي يوسف يعقوب الجزولي، وابن محمد الفشتالي وأخذ علم الطب عن الحكيم بن حجلة، وعلم النجوم على أبي عبد الله بن مخلوف السجلماسي ..." [6] .

إن البيئة الثقافية التي استقى فيها ابن البناء تتحدد انطلاقا من هذه المؤلفات التي كانت، سواء منها التي كان يأخذها عن أصحابها أم تلك التي أخذها عن مدرسيها في حلقات الدرس والتحصيل. وأهم ما يمكن استنتاجه انطلاقا منها، أنها تمثل البرنامج المعتمد في الساحة الفكرية والثقافية والعلمية تضم شيئا شبيها بما يسمى عندنا الآن بالمقررات الدراسية المعتمدة في مختلف المعاهد والكليات، والمؤسسات التعليمية ولسنا بحاجة إلى التأكيد بأن القرن السابع الهجري كان معلمة متميزة في تاريخ المغرب بصفة عامة وتاريخ مراكش بصفة خاصة في جميع حملات البيئة الثقافية إذ يكفي أن نذكر من أعلامه صاحبنا هذا ابن البناء.

أما بخصوص الحالة الثانية التي نعت فيها ابن البناء " بالمنتج " فلا شك أنها تعطينا أكبر دليل على مدى حصيلة تأثير البيئة الثقافية العامة في نتاجه : سواء فيها العلمية (الدينية والدنيوية) أم الأدبية أم الفكرية، لقد أفرز المخض زبدة لم يسبق لها نظير في مسيرة العلم بالمغرب، طلب ابن البناء العلم فوصل فيه الغاية القصوى حتى قال فيه ابن رشيد [7] " هو من هو " لم أر عالما بالمغرب إلا رجلين : ابن البناء العددي بمراكش وابن الشاط بسبتة . كان إماما معظما عند الملوك أخذ من علوم الشريعة حظا وافرا وبلغ في العلوم القديمة غاية قصوى ورتبة عليا، قال تلميذه أبو

---

[6] نفسه.
[7] أنظر نيل الابتهاج ص 65.

زيد عبد الرحمان اللجائي : كان شيخنا وقورا حسن السيرة قوي العقل، مهذبا فاضلا، حسن الهيئة معتدل القد، أبيض يلبس رفيع الثياب ما تحدث عنه أحد إلا انصرف عنه راضيا، ومحبوبا عند العلماء والصلحاء، حريصا على الإفادة بما عنده، قليل الكلام جدا، لا يتكلم بهذر، ولا بما يخرج عن مسائل العلم، وإذا تكلم في مجلس سكت لكلامه جميع من فيه. وقال ابن شاطر كان ينظر في النجوم وعلوم السنة أخذ بالطريقتين بالحظ الوافر ، يلازم الولي أبا زيد الهزميري، ودخل في طريقته فأعطاه ذكرا من الأذكار، ودخل به الخلوة نحو سنة، ودعا له وقال له مكنك الله من علوم السماء، كما مكنك من علوم الأرض.

إن تمكين ابن البناء من سائر العلوم المتحدث عنه أعلاه يؤكده ويدعمه وافر نتاجه، حاول بعض المهتمين والدارسين عده وإحصاءه وهكذا يقول الدكتور رونو بأن كتب ابن البناء بلغت اثنين وثمانين كتابا [8] ، وهي عند أحمد بابا التنبكتي تفوق الستين، ذكرها في معرض تحقيق شيوخه ومصادر ثقافته، كما حاول المرحوم عبد كنون تتبع أنواعها وتخصصاتها في نبوغه. وفيما يلي نرصد بعضا منها اعتمادا على مختلف المصادر مع تصنيفها وفق ما وضعت له من التخصص :

أ - في العلوم الدينية : الحديث والتفسير والفقه والأصول.

1 - تفسير الباء في البسملة

2 - تفسير الاسم في البسملة

3 - تفسير سورة الكوثر.

4 - تفسير العصر.

[8] محمد الفاسي صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد 62 . 55 : 1 = 2 1958

5 - عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل.

6 - المتشابه اللفظ في القرآن.

7 - رسالة في إحصاء أعداد أسماء الله الحسنى.

8 - الفصول في الفرائض.

9 - عمل الفرائض.

10 - حاشية على الكشاف.

11 - مراسم الطريقة في علم الحقيقة.

12 - مقالة في الاقرار والانكار.

13 - عواطف المعارف.

14 - الاقتضاب والتبيين في علم أصول الدين.

15 - رسالة في الخوارق الثلاث المعجزة والكرامة والسحر.

16 - تنبيه المفهوم على مدارك العلوم في الأصول.

17 - شرح التنقيح القرآني - منتهى السول من علم الأصول.

ب - في الأدب واللغة

1 - الروض المريع في صناعة البديع.

2 - قانون في معرفة الشعر.

3 - مقالة في عيوب الشعر.

4 - قانون في الفرق بين الحكمة والشعر.

5 - رسالة في طبائع الحروف.

6 - الكليات النحوية.

جـ - في الحساب

1 - رفع الحجاب عن علم أعمال الحساب.

2 - تلخيص أعمال الحساب.

3 - رسالة في علم الحساب.

4 - رسالة في علم المساحة.

5 - المقالات في الحساب.

د - في علم الفلك ومختلف العلوم الكونية والرومانية

1 - رسالة في ذكر الجهات وبيان القبلة.

2 - رسالة في الأنواء وصور الكواكب.

3 - قانون في معرفة الأوقات.

4 - رسالة في عمل الطلسمات.

5 - كلام على خط الرمل.

6 - مقالة في الجزر والفال والكهنة.

7 - علم الجدول.

8 - شرح لعلم الجدول.

9 - المستطيل في بيان أحكام النجوم.

10 - المدخل إلى علوم النجوم.

11 - منهاج الطالب في تعديل الكواكب.

12 - رسالة في كروية الأرض.

13 - رسالة في تحقيق رؤية الأهلة.

كما أنه له تآليف أخرى في غير العلوم المذكورة في الحكمة والفلسفة والمنطق [9].

ونظرة فاحصة لتاريخ مراكش من خلال نتاج هذا الرجل تنتهي إلى أنه كان غنيا بالعطاءات العلمية تلك التي ستصبح في التاريخ القريب مصدرا ينهل منه طلاب العلم والمعرفة من البلاد القريبة والنائية على السواء. وهكذايستفاد من مصادر متعددة [10] . ان تأثير ابن البناء امتد بعد أن قسم قرون التاريخ إلى القرنين التاسع والعاشر الهجريين، ليستمر فيما بعد دون توقف وانقطاع ممثلا في تهافت الدارسين على مصنفاته وفي صفوة من تلاميذه في المغرب والأندلس والمشرق العربي على السواء، نخص بالذكر منهم كلا من : شهاب الدين أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي بن الهائم الشافعي المصري [11] ، الذي ولد بالقاهرة ثم استقر ببيت المقدس، كان معتنيا بطريقة شيخه، حريصا على توضيح عديد نظرياته، ونشر طرقه الخاصة بالعمليات التطبيقية في الحساب، ثم أبي عبد الله محمد بن مرزوق المعروف بالحفيد من أسرة عالمة بتلمسان تولى منهاج شيخه وسار على دربه مقتفيا أثره في علوم الدين والدنيا.

أما في الأندلس فنجد أثر ابن البناء المراكشي حاضرا بقوة، من مظاهره رواج مصنفاته في حلقات التدريس [12] ووجود تلامذة أوفياء له نخص بالذكر منهم اثنين : القلصادي والبلوي الوادي آشي صاحب " ثبت ".

بالنسبة للأول يستفاد من المقدمة التي صدر بها رحلته أن المقصود بها هو التعريف بشيوخه وشيوخ شيوخه الذين أخذ عنهم صنوف العلم وأنواع المعرفة، كما أن

---

[9] انظر نيل الابتهاج ص 66 و 68.
[10] انظر رحلة القلصادي وثبت الوادي آشي وفهرست المنتوري وقبلها انظر مقدمة ابن خلدون الباب السادس الفصل السادس عشر.
[11] انظر بروكلمان 2/ 125 وشذرات الذهب 7/ 109 ونيل الابتهاج 205.
[12] انظر البرنامج العلمي المرصد في فهرست المنتوري. الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 1578.

الحديث عنهم في الرحلة يقترن بذكر الكتب التي درسها عليهم [12] . وكان القلصادي فيما نعلم آخر المنتجين من علماء الأندلس [13] ، له شرح لعمل ابن البناء في الحساب وشرحان لتلخيصه.

أما بالنسبة للثاني / البلوي الوادي آشي [14] فأهم مصدر يدلنا على حبل التواصل بينه وبين ابن البناء هو فهرسه أو برنامجه المسمى ب " ثبت " وهو من المؤلفات ذات الأهمية البالغة في إلقاء الضوء على الحركة العلمية في غرناطة في أيامها الأخيرة، وهو كتاب مفيد أيضا في معرفة أنواع البرامج الدراسية التي كانت معتمدة، من خلاله استطعنا أن نقف على رواج مؤلفات ابن البناء في حلقات التدريس [15] .

وبعد حين تحدثنا في الصفحات القليلة السابقة عن حلقات التدريس التي كان ينهل منها ابن البناء والمؤلفات التي تركها عن رحلة التحصيل العميقة والدؤوبة، كنا نهدف بالأساس إلى توضيح بعض ملامح التأثر والتأثير في البيئة العلمية والأدبية والثقافية بوجه عام، المراكشية بصفة خاصة، والمغربية بصفة عامة، وقد انتهى بنا البحث في ذلك إلى النتائج التالية :

1 - إن الحياة العلمية والأدبية في مراكش على عهد القرن السابع الهجري كانت مزدهرة ومتألقة باتفاق الدارسين من مظاهرها انشغال الناس بالعلم وانصرافهم إلى حلقات التحصيل والدرس مما نتج عن ذلك فيما بعد ظهور علماء ومفكرين ليس ابن البناء سوى واحد منهم.

---

12 مكرر، انظر رحلة القلصدي ص 80 وما بعدها.
13 نيل الابتهاج : ص 209.
14 ثبت البلوي الوادي اشي. تحقيق ذ . عبد الله العمراني.
15 نفسه ص 184 وغيرها.

2 - ازدهار الحركة العلمية كان مؤسسا على ازدهار وتطور في أساليب وطرق التدريس، يستنتج ذلك من رواية بعض الدارسين [16] في معرض حديثهم عن ابن البناء الذي كان بشهادة تلاميذه، حسن الأسلوب واضح الدرس يميل إلى الدقة والإيجاز، طبع العديد من تلاميذه بطابع طريقته. تقول الرواية التي رواها ابن القاضي :

أنشدنا شيخنا أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار، قال أنشدني أبو العباس التسولي، قال أنشدني أبو العباس أحمد ابن البناء :

قصدت إلى الوجازة في كلامي	لعلمي بالصواب في الاختصار
ولم أحضر فهوما دون فهمي	ولكن خفت ازراء الكبار
فشأن فحولة العلماء شأني	وشأن البسط تعليم الصغار

3 - إن البيئة ليست إطارا بسيطا، وإنما هو قطب دافع جاذب باستمرار في عملية التفاعل، وهو إلى ذلك مؤثر بشكل أو بآخر في نوعية الفنون والعلوم واتجاهاتها ومدارسها، وخصائصها، وكل ما تتصف به من مميزات وتمر به من أطوار التقدم والازدهار والرجعة والتقهقر [17] .

---

[16] انظر هذه الرواية في جذرة الاقتباس ص 73 وكذلك في نيل الابتهاج ص 67.
[17] الشعر والبيئة ص 11.

الدلالة البلاغية بين المكون التركيبي والمكون السياقي عند ابن البناء العددي [1]

الأستاذ محمد أديوان
كلية الآداب
الرباط

تقديم

عرف التفكير البلاغي في الثقافة العربية الاسلامية أطوارا متباينة السمات الفكرية والمنهجية. فقد بدأ التفكير في النظرية الأدبية ومقوماتها منذ العصور الجاهلية، حيث كان التفكير النقدي والجمالي يعتمد على مبدأ الذوق الفطري المقترن بالسليقة، ومبدأ الانطباع المرتبط بالعفوية والتلقائية.

ولقد لاحظ بعض الدارسين أن الفكرة البيانية العربية تطورت بفعل عوامل كثيرة ساهمت في تغيير وجه البلاغة العربية من مرحلة إلى أخرى انطلاقا من مراعاة تأثيرات الفعاليات المختلفة في الفكرة البيانية كالفعاليات النقدية والفكرية والفلسفية والدينية، وهي كلها فعاليات ذات آثار جوهرية في تلوين البحث البلاغي بألوان الفكر الذي يتبناها في كل مرحلة على حدة. وقد لوحظ أن المناهج البلاغية

---

[1] انظر ترجمته في المصادر الآتية :
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة.
الاعلام لخير الدين الزركلي : مادة ابن البناء.
الموسوعة الإسلامية : مادة ابن البناء.

العربية القديمة كانت تميل إلى تبني الاطار الفكري الذي يتحرك فيه فكر البلاغيين الذين أبدعوها وطوروها بعد بلورتها [2].

وقد كان الفكر البياني العربي في المشرق قد تأثر بتيارين فكريين كبيرين في مختلف أطواره منذ القرن الثالث الهجري، وهما التيار العقلي لاسيما في صيغته المعتزلية، والتيار النقلي الذوقي لاسيما في صورته الاشعرية.

وأما في المغرب الإسلامي، وفي المغرب على وجه الخصوص تطورت النظرة البلاغية العقلية تحت تأثير الفلسفة وتصوراتها الجديدة المتشبعة بروح الاجتهاد وميسم المنطق الصوري [3].

ومن بين البلاغيين المغاربة الذين تأثر لديهم الفكر البلاغي والنقد الأدبي بالفكر الفلسفي، ابن البناء العددي المراكشي الذي اقترن اسمه بالعدد، إذ كان رياضيا قبل أن يكون بلاغيا.

وسنحاول في هذه الدراسة أن نقف عند إحدى مميزات التفكير البلاغي عند ابن البناء ألا وهي تأثره الواضح بمقومات الفكر الرياضي والمنطق الصوري، وسنرصد بعض ملامح هذا التأثير من خلال تحليل أوجه الدلالة البلاغية في مباحث بيانية من كتاب " الروض المريع " بين المكون التركيبي والمكون السياقي، وذلك ما سنعمد إلى القيام به في المباحث الآتية :

فرضيات وتحليل

1 - الهدف من تاليف كتاب الروض

إن القصد الأساسي من تأليف هذا الكتاب هو فهم " كتاب الله وسنة نبيه في

---

[2] انظر هذا في كتاب البيان العربي (تطور الفكرة البيانية عند العرب) بدوي طبانة.

[3] انظر كتابات حازم القرطاجني (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)
ك : د. محمد الحبيب بالخوجة طبعة 2 دار العرب 1981 بيروت لبنان .
السجلماسي : تجنيس أساليب البديع : ك : علال الغازي ط 1980. والروض المريع : لابن البناء . ك رضوان ابن شقرون 1985.

المخاطبات كلها " [4]. فالمعرفة الدينية وإتقان فهم القرآن والسنة هما الحافزان على تأليف كتاب الروض، وقد شعر ابن البناء أن تحديده القصد من التأليف غير واضح تماما فأزال ما قد يعلق بالذهن من اللبس والغموض فاستثنى مما ذكره " ما هو موضوع صناعة العروض وصناعة القوافي وبعض ما يختص بالشعر من حيث هو شعر " [5].

2 - مفهوم البيان أو البلاغة وضرورة تعلم هذا الفن

ولعل القصد الأكبر من تأليف هذا الكتاب هو معرفة وجوه البلاغة القرآنية والنبوية من حيث هي مطلق البلاغة ومطلق الفكرة الأدبية العربية التي لاتصل بلاغة إلى مستواها. ومن هذه الزاوية من النظر يحدد ابن البناء البلاغة في نص يقول فيه " البلاغة هي أن يعبر عن المعنى المطلوب عبارة يسهل بها حصوله في النفس متمكنا من الغرض المقصود، وليس كل واحد من الناس يسهل عليه الوجيز، ولا كلهم لايفهم الا من البسيطة " [6].

وهذا تعريف يتضمن إشارة إلى البعد التداولي في البلاغة، وهو ما عرفته البلاغة العربية بمقتضى الحال. أي موافقة الأقوال لمقتضيات السياقات والأغراض.

أما علم البيان، فهو أصل العلوم، وفيه من القواعد الكلية (Les régles générales) ما يدل على تشبهه بالمنطق إذ " من علم البيان قاعدة. وهي أن المرجوح لا يؤثر في الراجح لاختلاف مرتبتيهما في القوة والضعف، والقوي يدفع الضعيف طبعا وعقلا (...) وكذلك سائر القواعد الكلية المشتركة لبيان جزئيات العلوم كلها هي من علم البيان لاينحصر وصناعة البيان قد تنحصر " [7] وأول ما يثير الانتباه في كلام ابن البناء هو تمييزه بين لفظي " علم " و " صناعة " في الجملة الأخيرة من نصه

---

4 الروض المريع : 174.
5 نفسه : 174.
6 نفسه : 87.
7 نفسه : 89.

فالعلم هو مجال القواعد الكلية العامة، ذات الصبغة النظرية والطابع الصوري، في حين أن الصناعة هي خاصة بالأحوال التطبيقية لتلك القواعد العامة الصورية وعلى هذا النمط من الرؤية الدقيقة ذهب المفكرون إلى التمييز في الابستمولوجيا المعاصرة وفلسفة العلم : وبين العلوم النظرية المبنية على دعامات النظر المنطقي، و الحجاج العقلي، والعلوم التطبيقية التي أطلقوا عليها صناعات اعتبروها مجالا خاصا بتطبيق قواعد العلم النظري على مستويات التجربة والاختبار.

وهذا النص من كلام ابن البناء مهم جدا في تأسيس وجهة نظر متميزة في تاريخ الفكرة البيانية العربية القديمة، فهو يحدد علم البيان، باعتباره مجالا للقواعد الكلية التي تأسست عليها العلوم المختلفة، فهو نظير علم المنطق عند ارسطو، واما صناعة البيان، فهي التطبيق الجزئي على اللسان العربي والأساليب العربية لكليات علم البيان وقواعده المنطقية الكبرى التي يشترك فيها مع غيره من العلوم الأخرى ذات الصناعات المختلفة عن علم البيان.

ان ابن البناء يقصد إلى جعل البيان، القواعد العامة التي تبنى عليها الكفاية النظرية (la Competence Théorique) للعلوم هذه الكفاية التي تجعلها علوما صالحة للتطبيق في الصناعات الجزئية المختلفة.

ومن تم فإن صناعة البيان هي نوع من الانجاز (Performance) الذي يتم فيه تطبيق بعض القوانين الكلية التي تبنى عليها النظرية في علم البيان.

ولا يكتفي ابن البناء بالتأكيد على الضرورة العقلية الابستمولوجية و المعرفية، لتعلم البلاغة، وإنما راح يلتمس لذلك عللا شرعية يعضدها بالأدلة المنطقية العقلية فلمعرفة الكلام وتمييز طبقاته احتيج لعلم البلاغة " والصناعة المتكلفة بذلك هي صناعة البديع والعلم الذي منه هذه الصناعة هو علم البيان [8] .

---

[8] نفسه : 88 .

وتلافيا لأي التباس قد يقع فيه القارىء المتأمل، يضيف ابن البناء كلاما يبين فيه العلاقة بين العلم والصناعة على مستوى النظر المحض فيقول " والصناعة من حيث هي صناعة إنما تعطي القوانين الكلية التي تنضبط بها الجزئيات المندرجة تحتها، والعلم يميز الكليات و يميز الجزئيات، ويميز بين جزئيات كلي وجزئيات كلي آخر حتى لايختلط شيء بشيء ولا يشتبه في العلم شيء مما يشتبه في الصناعة، ولذلك تتميز الحكمة من الشعر، والجد من الهزل وتشترك في الصناعة [9] ويؤيد هذه الضرورة العقلية الصريحة بنص يبين فيه الدليل الشرعي على وجوب تعلم البيان علما وصناعة إذ هو " شيء يفيضه الحق من عنده على الأذهان ويشهد به الفعل الصريح لا بالاستفادة من إنسان، وإنما يحصل من المخلوقين التنبيه على العلم الذي علمه الله خلقه، قال تعالى خلق إنسان علمه البيان [10] " [11] .

ويستوقفنا في هذا النص وفي النص الذي سبقه مزية التدقيق في توظيف المصطلح الفلسفي والرياضي عند ابن البناء، ومن ذلك استعماله للجزء والكل، والتمييز والحكمة، ولعل أكثرها دقة في الاستعمال وملاءمة للسياق لفظ يفيظ " الذي لجأ إليه ابن البناء للدلالة على أن علم البيان من بين الأمور التي جبل عليها الإنسان، لأن الخالق عز وجل أفاضه عليه وخصه به من جهة الوقف، ولا يخفى ما نكشف هذا المصطلح من ظلال فلسفية وإيحاءات تحيلنا على نظرية الفيض عند الفارابي، وطريقة تحقق هذا الفيض الذي بموجبه أفاض العقل الكلي الصور والهيئات على عالم فلك ما دون القمر، فتشكلت هذه العلوم الفيضية [12] .

---

9 نفسه : 88.

10 سورة الرحمان : آية 2.

11 الروض المريع : 88.

12 انظر في ذلك نظرية الفيض الفارابية في كتابات الفارابي الفلسفية ونظرية الفيض نظرية يونانية منسوبة إلى أفلوطين Plotim استفاد منها الفارابي وطوعها لمقاييس النظرة الاسلامية لتكون العوالم انطلاقا من نظرية الخلق من عدم الإسلامية.
وقد استعمل الفارابي في كتابه " أراء أهل المدينة الفاضلة مصطلح الفيظ فقال "... الموجودات كثيرة وهي مع كثرتها متفاضلة وجوهره جوهر يفيض منه كل وجود، كان كاملا أو ناقصا " صفحة 57. ويضيف من نص آخر قائلا " يفيض من الأول وجود الثاني.." صفحة 61 : (أراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي .
د. البير نظرية نادر - دار المشرق بيروت . لبنان 1985.
وراجع أيضا :
Robert Hamoui . Al farabi 's philosophy ant its influence on schola sticism syolney 1928 . p. 32.

3 - المكون التركيبي والدلالة البلاغية

إن التركيب Syntax في اللغة يرتبط بمستوى خطية اللغة المنطوقة والمكتوبة، ويعتمد المكون التركيبي على مبادىء بموجبها يتم تنظيم الكلام داخل الجملة أو التركيب وأهم هذه المبادئ :

أ - مبدأ الرتبة

ب - مبدأ الحكم

فلكل كلمة في التركيب رتبتها في الكلام، فإما أن تكون أول الكلام أو وسطه أو قبل وحدة أخرى من الكلام أو بعدها. ومن موقعها داخل الجملة والتركيب تستمد الكلمة رتبتها في الكلام.

و أما مبدأ الحكم فهو يقصد به أن لكل كلمة حكما يخصها في الكلام، وعلى أساس هذا الحكم، تتحقق قيمتها الوظيفية في خلق الفائدة المرجوة من الكلام وتختلف أحكام الكلمات في التركيب باختلاف وظائفها التي تؤديها عملية إنتاج الفائدة في الكلام، وهي دلالة الخطاب [13] .

إن بنية التركيب في اللغة العربية حمال ذو اوجه، فكل تركيب هو بنية عميقة Deepstructure تختلف بنياتها السطحية بحسب اختلاف التأويل الدلالي لهذه الصورة التركيبية أو تلك.

فالإنتاجية الدلالية Le productivité sémantique تتأسس على منطق تركيبي Logique Syntaxique في أول الأمر ثم لايلبث أن تفعل فيها عوامل تركيبية من طبيعة

---

[13] انظر حول اختلاف الآراء حول مفهوم الحكم في النحو العربي القديم كتاب :

- Henri Fleich : Traité de philologie arabe

" Préliminaires, phonétique, morphologie nominale : Imprimerie Catholigue Byrout 1961.

TXVI Col Recherches p.p 6 - 15

المكون المذكورفتصير محتملة لمجموعة من الإمكانيات التأويلية كما يقع في صور الإيجاز والاختصار والحذف والتكرير وغيرها من الصور التركيبية التي تحدث شرخا في دلالة الكلام، وتحمله على أكثر من محمل تأويلي واحد. وهذه الصورة التركيبية الملونة للدلالة النحوية المقرنة بالبنية الأصلية لتركيب ما في جملة معينة، هي التي تولد الدلالة البلاغية.

ذلك أن هذه الدلالة البلاغية في صورها المختلفة على مستوى المكون التركيبي ليست إلا انزياحات Des ecarts على التركيب الأصلي الذي يحمل الدلالة النحوية واللغوية التي يبنى عليها الكلام في صورته الأصلية قبل دخول عوامل التغيير والتبديل والإيجاز والخوف والتكرير وغيرها المولدة للدلالة البلاغية.

وقد وصف النحاة العرب فضاء الجملة العربية بسائر مكوناته وهي المكونات الصوتية المورفولوجية والدلالية وقد لوحظ أن التعالق Agenconent الذي يحصل أحيانا بين المكونين التركيبي والدلالي يولد أنواعا شتى من الإمكانات البلاغية والاقترانات الجمالية.

وقد حاولت البلاغة العربية القديمة الفصل بين صورة التركيب المولدة للدلالة البلاغية، فذهب البلاغيون في ذلك مذاهب متباينة تدل على فهم دقيق لمشكلة ترتيب الوحدات النحوية ذات الوظيفة الإعرابية في الجملة. وقد توطدت هذه النظرة الذكية لفهم الترتيب الحاصل داخل الجملة وتعليق أحد مكوناتها بغيره من زاوية النظر التركيبي، في سياق نظرية النظم التي أشار إليها الرماني في حديثه عن البلاغة القرآنية وبلورها، عبد القاهر الجرجاني في نصوص كثيرة في كتابه الاعجاز [14] وأسرار البلاغة ورسالته حول إعجاز القرآن الموسومة بالشافية.

---

[14] انظر كتابي الجرجاني أسرار البلاغة . (ط. الإمام رشيد رضا دار المعرفة للطباعة والنشر سنة 1978 لبنان) وكتاب دلائل الاعجاز في علم المعاني : الإمام محمد عبده والإمام رشيد رضا دار المعرفة للطباعة والنشر 1978 بيروت لبنان).

واستمر الحديث عن أوجه الدلالة التركية والنحوية في الأساليب العربية، فساهم السكاكي في كتاب " مفتاح العلوم " والقزويني في كتابه الايضاح " في تحليل هذه المسألة، و التعرض لبعض أوجه العلاقة في التركيب، والمعني من خلال حديثهم عن مباحث التكرير والإيجاز [15] .

ومع ابن البناء العددي المراكشي، تطورت هذه النظرية إلى مفهوم الدلالة البلاغية للتركيب، إذ نلفيه يفرد لهذه المسألة وانعكاساتها الأسلوبية مجالا فسيحا في كتابه " الروض " وسنحاول تقديم بعض ملامح اهتمامه بهذه القضية، من خلال عرض نبذ من آرائه.

مبحث الايجاز

فعن قاعدة الحذف ومبحث الايجاز وبلاغته يقول ابن البناء في نص قصير : " واما الايجاز والاختصار، فمنه ما يقال له الاكتفاء : وهو ان يكتفي بأحد المتلازمين عن الآخر، فيحذف الجواب في الشرطيات كقوله تعالى : " ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى " كأنه قال : لكان هذا " [16] .

وعن الحذف يضيف قائلا والحذف من أنواع الاختصار في نظره " .... ومنه ما يقال له الحذف وهو أن يقتصر على عمدة الكلام ويحذف منه ما هو فضلة أو كالفضلة لدلالة السياق عليه كقوله تعالى " كلا سوف تعلمون " فالواقع عليه العلم متروك كأنه قال عاقبة امركم لان سياق القول التهديد والوعيد [17] .

وعندي ان افراد ابن البناء الحذف بكلام خاص واعتباره إياه أحد أنواع الايجاز فيه نظر إذ نميل إلى اعتبار الحذف قاعدة عامة للإيجاز إذ ان الإيجاز مبني على الحذف في أغلب صوره المعتمدة في الأساليب العربية .

---

[15] وفيهما كثير من الإشارات المتعلقة بهذه المسالة من مختلف النواحي

[16] الروض : 143.

[17] الروض : 146.

وربما اعتبر ابن البناء الحذف أحد أنواع الايجاز، وذلك لإيجاد قسيم آخر للإكتفاء الذي هو حقا أحد أنواع الايجاز فالقسمة المنطقية التي عمد إليها هي التي أوقعته في ذلك، والدليل على ذلك هو ما ذهب إليه القزويني في كتابه الايضاح، إذ تحدث عن الإيجاز بالحذف، ولم يتحدث عن الحذف، كنوع من أنواع الايجاز. ومن أصناف الايجاز بموجب الحذف عن القزويني الايجاز بحذف المضاف والايجاز بحذف الموصوف والايجاز بحذف الصفة والايجاز بحذف جواب الاختصار و الذي سماه ابن البناء في كلام ذكرناه سابقا، الاكتفاء وهو أحد أنواع الايجاز، وقد ذكر القزويني أنواعا أخرى من الايجاز الحاصلة عن تحقق مبدأ الحذف الذي هو مبدأ عام في الإيجاز [18] .

ومما يبين ارتباط الصورة الايجازية، من الزاوية البيانية بالمكون التركيبي في التعبير حديث الخطيب القزويني عن طبيعة المحذوف فهو " إما جزء جملة، أو جملة أو أكثر من جملة " [19] .

ومناط التأثير الجمالي في الصورة الايجازية في الأسلوب العربي يكمن في تقليص " الوحدات المكونة للجملة من جهة، والابقاء على الوحدات ذات الدور الأساسي في إنتاج الدلالة النحوية من جهة ثانية، وعدم الاخلال بمبدأ تحقيق الفائدة من الكلام من جهة ثانية. وبما أن تقليص عدد الوحدات في الجملة والاكتفاء بالعمدة فيها دون الفصلة تعديل يلحق صورة التركيب الأصلي، فإن هذا التعديل هو انزياح له أثر دلالي على المستوى الجمالي، ومنه تنبع تلك الشحنة الجمالية للصور التركيبية الايجازية في الأساليب العربية.

مبحث الاكثار

اهتم ابن البناء بالصورة التركيبية المعروفة بمبحث الاطناب وسماها الاكثار.

---

[18] راجع هذه الأنواع التي ذكرها القزويني في الايضاح في علوم البلاغة دار الكتاب العلمية. بيروت لبنان. طبعة 1985، وخاصة الصفحات : 290 - 291 - 292 - 300.

[19] الايضاح : 291 ك : عبد المنعم خفاجي. دار الكتب اللبناني.

وعن بلاغة الإكثار يقول هذا الناقد :

" واما الاكثار فمنه ما يقال له الاستظهار، وهو كلام مؤلف من جزئين أحدهما يجري مجرى المقدمة والثاني يجري مجرى التكملة. بحيث يستقل القول بدون تلك التكملة (...) ومنه ما تكون التكملة تجري مجرى الحجة على ما يتقدمها في الجزء الأول ويسمى كقوله تعالى : إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشر ككم ولا ينبئكم مثل خبير "[20]

وراح ابن البناء يفرع من هذا القسم الأخير أي التذييل فروعا على طريقته في التفريع المنطقي لحصر أنواع التذييل في أربعة هي :

1 - ما تكون فيه التكملة مثلا ويسمى المثال.

2 - ما تكون فيه التكملة تزيد معنى في الأول من غير أن تكون على معنى الاحتجاج، بل تتميما وتكميلا.

3 - ما يقال له التسوير، وهو مركب من كل وبعضه توكيدا ومبالغة.

4 - ما يقال له المرادفة كقوله تعالى " وغرابيب سود " والغرابيب هي السود "[21].

ونستنتج من نظرة ابن البناء إلى الإكثار والإطناب في الكلام مجموعة من النتائج نعرضها في العناصر الآتية :

1 - ليس الاكثار أو الإطناب، مبحثا اعتباطيا خاليا من المعنى في البلاغة العربية، بقدر ما هو طريقة تزيينية يلجأ إليها الأديب لتكميل كلامه أو تحليل معناه أو تتميم أحد عناصره.

---

[20] الروض : 151.
[21] الروض : 152 - 154 بتصرف.

2 - قد يصير الإطناب ملمحا احتماليا في التعبير عندما يقصد به التوكيد والمبالغة. ومن ذلك ما يدعى بالتسوير كما أشار إليه ابن البناء في حديثه السابق أعلاه.

3 - إن البنية التركيبية في مباحث الأطناب قد تتعدد وتتضاعف ولكنها تتكامل، فتؤلف مركبا تركيبيا يحمل أبعادا جمالية تغني اللغة الأدبية. إن مبحث الإكثار مثله مثل مبحث الايجاز، حاول ابن البناء النظر إليهما من زاوية التحديد لاوجه الصور الايجازية والاكثارية، وفق تصور رياضي منطقي تحكمه النظرة التمييزية بين المقدمات الكبرى والصغرى والحدود العامة والخاصة وقد جاءت مباحث الايجاز والإكثار كمبحثين بلاغيين في كتاب الروض، عاكسة لوجهة نظر ابن البناء النسقية التي لا تملك الا تقديرها والاعتراف لصاحبها بقوة التحليل وتماسكه. وهذا أمر نلمح آثاره في دراسته لأوجه الدلالة البيانية التي يتحكم فيها المكون السياقي التي نعرضها في الحديث الآتي :

4 - المكون السياقي والدلالة البلاغية

نقصد بالمكون السياقي Le Composant Contextuel ذلك المكون الذي يمثل المقام والوضعية La position اللذين يكتنفان رسالة لغوية ما Message Linguistique وبتعدد الوضعيات والمقامات تتعدد السياقات في الجملة أو النص الأدبي.

وبما أن الدلالة البلاغية تؤثر عليها ظواهر السياق ومكوناته، فإن نظرة إلى السياق من وجهة النظر اللسانية قد تفيد في إعطاء تعريف دقيق له يتيح تعاملا ذكيا معه على مستوى الخطاب الأدبي أو الرسالة الأدبية. وقد درس السياق ووظائفه في الخطاب في إطار نظرية التواصل Théorie de Communication التي يعتبر الفضل فيها على مستوى التطبيق اللساني راجعا إلى العالم اللساني رومان ياكبسون وهذه خطاطته [22].

---

[22] انظر التفاصيل في كتابه

- Roman Jakabson Essais de linguistique Générale E.1 minuit seuil 1973.

السياق

الرسالة

المتلقي		المرسل
وظيفة تأثيرية		وظيفة عاطفية

الاتصال

وظيفة لاغية

الشفرة

وظيفة واصفة

وقد راعى النقاد العرب القدماء المكون السياقي في تحليلهم لنظرية الأدب والنقد، فالتأثير في المتلقي وإحداث التغيير المتوخى، في سلوكه أو نظرته إلى الكون أو الناس وإقناعه بامر أو ترغيبه فيه أو عنه إنما يعول في ذلك كله على مراعاة السياق ودعاه القدماء بمقتضى الحال [23].

وسنحاول أن نقف على بعض معالم نظرة ابن البناء للدلالة السياقية ذات البعد الجمالي من خلال المباحث البيانية في كتاب (الروض) :

مبحث المجاز

يعد المجاز أم المباحث البيانية، فعنه تفرع الباقي ذلك أن الطاقة التعبيرية للمجاز أوسع وأغنى من التشبيه أو الاستعارة أو الكناية والدليل على ذلك أن سائر

[23] مقدمة شرح ديوان الحماسة للمرزوقي : 1 / 20. ق : أحمد أمين وعبد السلام هارون طبعة 1 مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر 1951 مصر. وكتاب الصناعتين لابي هلال العسكري : ك على محمد بجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. مطبعة عيسى الحلبي (د. ت) صفحة 141. وكتاب العمدة في محاسن الشعر ونقده لابن رشيق محي الدين عبد الحميد طبعة 4 دار الجيل سنة 1972 بيروت لبنان 1 / 199.

المباحث المذكورة تشترك في كونها أصلا مجازات تم تنظيم عناصر فضائها المجازي وفق انساق مختلفة. كالنظر إلى عنصر على حساب الآخر، أو إضافة عنصر من البنية المجازية أو حذف عنصر غيره ...ألخ.

فكل تشبيه يحمل بذرة مجازية وكل إستعارة هي مجاز علاقته المشابهة وكل كناية تحمل نقلا من المعنى القريب إلى المعنى البعيد نقلا مجازيا. وإذا تأكد لدينا أن الأمر على هذه الشاكلة، بطل الرأي الذي يقول بتمايز هذه المباحث وانفصالها انفصالا تاما عن القاعدة المجازية التي هي أصل القواعد الجزئية الاستعارية والكنائية والتشبيهية. فالمجاز هو المقابل للحقيقة إذ " يبدل المجاز مكان الحقيقة، ومنه ترشيح المجاز كقوله :

تسقيه كف الليل أكؤس الكرى

اقام الليل كفا مقام الحقيقة واستعارلها السقي فجاء مجازا في مجاز [24]. ففي هذه الصورة المجازية لانكاد نتبين الحد الفاصل بين الصورة الاشعارية والصورة المجازية. فكلتاهما حاضرتان حضورا قويا في مستويات الدلالة البيانية في الخطاب، بيد أن الحكم الفاصل هو السياق نهاية التحليل، فسياق الكلام يجعل الذهن أميل إلى اعتبار الكلام السابق مجازا فالشاعر خص الليل بكف على باب التجوز، وإن كان الليل لايملك في الحقيقة كفا وهذا الجزء من الكلام ينطوي على دلالة بلاغية هي دلالة المجاز المرشح كما سماه ابن البناء.

في حين أن هذا الكلام نفسه يحتمل في شقة الثاني دلالة إستعارية في كون الشاعر استعار السقي وهو أحد لوازم الإنسان، وإستعار الاكوس للنوم والكرى.

وهذا التداخل بين الدلالتين المجازية والاستعارية في النموذج السابق ليست مستنكرة ما دام التلازم بين المجاز والاستعارة، من باب التلازم بين الفصل والنوع،

---

[24] الروض : 119.

الكل والجزء، فالاستعارة ليست الا مجازا علاقته المشابهة، أي جزءا لا يتجزأ من الفضاء المجازي.

وقد عرف ابن البناء بذهنيته الهندسية ان عالم المجاز قد يشتمل على عوالم أصغر منه لا يرتبط بها وترتبط به بموجب علاقة التكامل بشتى أنواعه المنطقية. وقد دعت نظرية المجموعات La Théorie des ensembles إلى الدمج الديناميي بين المجموعات الصغرى المؤلفة للمجموعة الكبرى على أساس اعتبار أنماط العلاقة المنطقية بينها كالاحتواء أو التكامل وغيرها.

مبحث التشبيه

يتحدث ابن البناء عن التشبيه من زاوية علاقته بالمجاز كتخط للحقيقة، ويظهر في تعريفه للتشبيه أنه يجعله مبنيا على القاعدة المجازية.

" واما تشبيه شيء بشيء فإنه كما يشبه الأول الثاني، كذلك يشبه الثاني الأول فلابد أن يكون للمشبه به مزيد اعتبار من سبقه أو دوامه أو شرفه أو غير ذلك حتى يكون أولى بالصفة التي وقع التشبيه فيها. وكل ما في التشبيه من كذب أو غلو، فلا يكون في الحكمة ويكون في الشعر لأنه مبني على المحاكاة و التخيل لا على الحقائق " [25] .

فالتشبيه كملمح بياني ينمو داخل اللغة المجازية. وهو مبني من الفعالية الخيالية المتفتحة على ما نهاية له. ولكن ليس للشاعر أن يحاكي ويتخيل في الشيء ما ليس موجود أصلا، لأنه إذا فعل ذلك لم يكن محاكيا بل يكون مخترعا، فتركب الكذب في قوله، فتبطل المحاكاة لكذبها وهي موضوع الشعر .

وينبغي أن يكون التشبيه شريفا مما يتكلم به الرؤساء الأشراف لا خسيسا سوقيا عموميا " [26] . ولا يخفى نزوع ابن البناء إلى تبني نظرية عمود الشعر القديمة

---

[25] الروض : 103.
[26] نفسه 103 - 104.

التي تؤكد على قرب التشبيه ووضوح الاستعارة وشرف المعنى، فالتحليل ينضبط ابن البناء لقواعد الذوق الأدبي السائد وعندي أن هذا أثر لذهنية ابن البناء الهندسية التي تضع الحدود، و تتصور النهايات على مستوى التصور الكلي للخيال نفسه، فالخيال كفعالية له حدود تتيح انتاج الصورة الفنية المقبولة وتتيح انتاج الصورة الفنية الموسومة بالغلو والمغالاة. وهذا التحديد للإنتاجية الخيالية تحدث عنه البلاغيون العرب القدماء المتأخرون في كثير من المباحث البيانية منها حديثهم عن الاستعارة ومستوياتها، وذلك ما تخصص له المبحث الآتي :

مبحث الاستعارة

الاستعارة جزء من المجاز، وعلاقتها به مثل علاقته الخاصة بالعالم، و الجزء بالكل وإذا كان التشبيه جزءا من المجاز ومرتبطا به فإنه أيضا مرتبط بالاستعارة. وكلاهما جزء من المجاز والدليل على أن الاستعارة مبنية على التشبيه، هو قولهم أن الاستعارة مجاز علاقته المشابهة. وقد ركز البلاغيون على ضرورة قرب الشبه ووضوحه " وكونه معروفا سائرا بين الأقوام وإلا خرجت الاستعارة عن كونها الاستعارة ودخلت في باب التعمية والالغاز " [27] . وذهب الآمدي إلى هذا المعنى فنوه بالاستعارة الواضحة إذ تقاس صحة الاستعارات " بقربها من الحقيقة وشدة ملاءمة معناها لما استعيرت له " [28]. ويبدو أن التركيز على قرب الشبه في الاستعارة يدل على ضرورة تقريب لغة الشعر ودلالتها البيانية من الذوق السائد، حتى تكون الصورة الفنية أكثر تعبيرا عن مقتضى الحال وأبلغ في الدلالة على السياق الذي ترد فيه. وفي هذا المعنى يقول ابن البناء :

" وجميع الاستعارات إنما هي ابدالات في المتناسبة كما قال الناظم :

غلالة خده صبغة بورد ونون الصدغ معجمة بخال

---

[27] مفتاح العلوم للسكاكي. منشورات المكتبية العلمية الجديدة بيروت - لبنان 146.

[28] الموازنة بين الطائلين للآمدي ك : محي الدين عبد الحميد طبعة سنة 1959 المكتبة التجارية مصر : 234.

نسبة خده إلى حمرته كنسبة الغلالة إلى صبغها بالورد ، ونسبة صدغه إلى خاله كنسبة النوّن إلى النقّطة التي تعجمها. فأبدلّ وركب التبديل في النسبة.

ومتى لم تكن تم مناسبة، أو كانت لكنها بعيدة أو ركيكة أو ساقطة، كانت الاستعارة فاسدة كمناخر البدر .." [29] وفي هذا النص يركز ابن البناء على النسبة الحاصلة بين المستعار له والمستعار. وكلما كانت هذه النسبة قوية تحقق بذلك القصد من الاستعارة وقويت في التعبير والإبلاغ، وكلما كانت النسبة بين طرفي الاستعارة ضئيلة وضعيفة، نجم عن ذلك عدم موافقة الاستعارة لمقتضى الحال. والحكم الفصل في قربّ الاستعارة أوّ بعدها هو مدى مطابقتها لمقتضى الحال أي المقاصد المباشرة وغير المباشرة من التعبير. وهذا أمر لا ينظر إليه إلا من خلال السياق الدارجة فيه الدلالة الاستعارية.

وابن البناء إذ يؤكد على مصطلح النسبة أو التناسب في كلامه، إنما هو يلازم بالنظرة القديمة المؤكدة على صحة الاستعارة وقربها في نظرية العمود الشعري.

والتناسب كميا كان أم كيفيا هو مصطلح رياضي وهندسي فضلا عن صفته المنطقية الواضحة. وقد نقله ابن البناء إلى ميدان البلاغة، ليبني عليه نظرته إلى الاستعارة من الزاوية الدلالية على مستوى كمي بمراعاة تشابه الدلالة بين المستعار والمستعار له، والكيفي بمراعاة درجة قرب الاستعارة أو بعدها في سلم المتخيلات في نظرية الشعر.

5 - نتائج الدراسة

أ - وضع ابن البناء مفهوم علم البيان بعد أن ميزه عن صناعة البيان كما وضع القوانين الضابطة لدلالة اللفظ ودلالة السياق، وإن كان اميل في العموم الى تبني النظرة البلاغية العربية القديمة التي رفدها بإضافات من شخصيته الرياضية والمنطقية.

---

[29] الروض: 115 - 116.

ب - يغلب على تعاريف ابن البناء للمباحث البيانية، توزع منطقي صريح يشبه تقسيماته وتفريعاته التي تستوحي من البناء التصوري العام لديه لمشكلة البلاغة من زاوية وظيفتها الدينية الشرعية ووظيفتها العقلية الطبيعية، كما يظهر في تعريفه للمجاز والايجاز وغيرها مما سبق الحديث عنه.

ج - يبدو أن عقلية ابن البناء العددي المنطقية والرياضية قادته إلى اصطناع وجهة نظر مستوعية وشاملة لسائر أنواع البيان العربي وذلك بوضع قواعد كلية تضمن التكامل والتعالق بين سائر مباحث البلاغة العربية، وهو في صنيعه هذا يتفوق على بعض المبادرات المتأخرة في الغرب المعاصر، التي سعت بدورها إلى وضع تصورات عامة تضم شتات المعرفة البيانية في انساق نظرية منطقية ذات طاقة استيعابية كبيرة [30].

بالاعتماد على الأصول المنطقية للمباحث البيانية، يتم تقليص الجزئيات ويتم دمج بعضها في البعض الآخر باعتبار أن تلك الجزئيات ماهي إلا تجليات لانجازات ترتبط بكفاية هي الكفاية نفسها في مجموعة من المباحث البلاغية.

د - إن المباحث البيانية في تفكير ابن البناء قد تكونت بألوان ذهنيته الحسابية والرياضية، فانفتحت على حلول كبرى لقضايا معضلة في البحث البلاغي العربي القديم فابن البناء قد وضع في كتاب الروض أسسا مكينة لقيام نظرية تداولية للخطاب، تختزل البحث البياني وتمنحه حضورا قويا في الآونة الراهنة في الدراسات البيانية المعاصرة. فالمكون السياقي وقضية المقاصد ونوايا الخطاب هي إحدى الركائز التي يقوم عليها تحليل ابن البناء للدلالة البلاغية في كتاب الروض اما المكون التركيبي في بناء الدلالة البلاغية فإن دوره محدود ولا يلبث أن يلتحق بالمكون السياقي لأن الدلالة التركيبية هي دلالة نحوية ودلالة الدلالة النحوية هي دلالة

---

[30] انظر صنيع جماعة مو My البلجيكية في مشروعها البلاغي في كتابها

- Rhétorique Générale Seuil - Point..

سياقية يراعي فيها مقتضى الحال وبذلك تتحول الدلالة التركيبة بدورها إلى دلالة بلاغية سياقية. ومن تم يمكن القول أن ابن البناء كان يطمح في كتاب الروض إلى وضع أسس قوية لنظرية مقتضى الحال البلاغية ونظرية المقاصد الموجهة للخطاب، وهي أسس كل نظرية تداولية Pragmatique في تحليل الخطاب في نظرية الاداب.

المصطلح المتأصل والمعرفة المتفاعلة

الأستاذ رضوان ابن شقرون
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
I الدار البيضاء

مدخل

تدخل مباحث المصطلح ضمن الموضوعات المختلفة المتنوعة التي تناولها ابن البناء بالدراسة والبحث والتأليف، من غير أن يخص تلك المباحث بمؤلف خاص قائم بنفسه مستقل بموضوعه، وكلما قرأنا له رسالة أو كتابا في النقد والبلاغة أو في العلوم الشرعية والعربية وقعنا على تعريفات وتحليل مصطلحات تحليلا وافيا متأصلا لافتا للنظر.

وكذلك نجد منهجه في نقل المعرفة ووسائلها وأساليبها يقوم من جهة على تكامل عناصرها ومكوناتها من مختلف العلوم والثقافات، ويعتمد من جهة أخرى على المنهج النقدي التحليلي الاستقرائي. وواضح أن ثقافة ابن البناء النقدية والبيانية - البلاغية، تفاعلت في ذهنه مع الثقافات الأخرى، فأغنت البحث المصطلحي بالمفيد القيم. وإذا أردنا البحث عن جذور هذه الثقافة، فإنا نلاحظ أنه لم يشر أحد ممن ترجموا لابن البناء قديما أو حديثا إلى دراسته للنقد أو البلاغة أو البيان وإطلاعه عليها، أو الشيوخ الذين أخذ عنهم، إلا أن نفهم ذلك من مثل قول ابن القاضي " تأدب بالعربية "[1]. أو قول الشيخ عبد الله كنون " أتقن العربية وآدابها "[2]. ولكنها إشارات مبهمة لاتدل بالضرورة على تضلعه في البيان أو معرفته به. بيد أننا نجد

---

[1] جدوه الاقتباس 1/ 150.
[2] النبوغ المغربي 1/ 123.

أغلب المصادر قد حرصت على ذكر علوم النحو واللغة والعروض، وبراعته فيها وشيوخه الذين أخذ عنهم ولم تشر من قريب أو من بعيد إلى النقد أو البيان أو البلاغة.

إلا أن الاستاذ محمد الفاسي أشار في بعض كتاباته إلى أنه " درس ببلده علوم الالة من نحو وصرف ولغة وبيان ... وبرع فيها " [3] .

ولكن إذا لم ينقل إلينا خبر عن ابن البناء في الموضوع، فإن أثره في البلاغة والبيان والبديع يشهد بعلمه المتمكن ومعرفته الواسعة بها، يتجلى هذا الأثر في ثنايا الكتب والمؤلفات ذات الموضوعات المتصلة بالعلوم الشرعية كالتفسير والقراءات ... أو فيما تذكر المصادر من عناوين بعض رسائله وكتبه التي تعتبر في حكم المفقود، إذ لم تقع عليها أيدي الباحثين بعد فيما أعلم مثل " كليات في العربية " ، و " قانون في معرفة الشعر "، و " مقالة في عيوب الشعر ". لكنها تبدو جلية واضحة متميزة متأصلة فيما وصلنا من نصوص الرسائل والمؤلفات في الموضوعات المتصلة بالبيان والبديع، أو بالقرآن والتصوف، وفي طليعتها كتاب " الروض المريع " [4]. الذي يعتبر مؤلفا مختصا لأهم نظريات ابن البناء في الموضوع بتفصيل وبيان، ثم " تفسير الاسم من باسم الله الرحمان الرحيم "، ومواسم الطريقة .." [5] وغيرهما من المؤلفات التي تتضمن إشارات نقدية، ودراسات بيانية، وتحليلات اصطلاحية مفيدة.

النقد عند ابن البناء نقدان

- نقد يتناول العقل والفكر ومكوناتهما ومناهجهما، وتوجد نظرياته ومعالمه في كتبه في التصوف والأصول والتفسير، التي يتناول فيها مباحث منطقية تتصل بالصور الذهنية.

---

[3] المجلة الاسلامية : ع 9 س 1401 ص 36.
[4] نشر بتحقيق صاحب هذا البحث، بالدار البيضاء، س 1985م.
[5] راجع عن مؤلفات ابن البناء مقال صاحب هذا البحث بمجلة المناهل ع 33 دجنبر 85 ص 207.

- ونقد يتناول وسائل توصيل هذه المعرفة أي الخطابات والنصوص الأدبية والصور التعبيرية التي تبلغ تلك المعارف من أذهان المتكلمين إلى أفهام المخاطبين.

ونكاد نلمس في منهجه العام في النقد ونظرياته تكاملا وترابطا وانسجاما وذلك بفعل الجسور القائمة في فكر ابن البناء عامة بين مختلف أنواع الثقافات والعلوم التي كان متمكنا منها، لكنه قصر أبحاث كل نوع على بعض المؤلفات دون بعض.

نقد المعرفة والعقل

أما النوع الأول من النقد فيقصد به نقد المعرفة والعقل، ويحلق به في أجواء المعرفة كلها. فقد حلل منهج المعرفة تحليلا دقيقا، وفرق بين إدراك ما هو محسوس، وبين إدراك ما ليس بمحسوس، وأنهى من هذا التحليل إلى القول ان معرفة المحسوسات تمر بمرحلتين :

الأولى : مرحلة ارتسام الصور الخيالية للمحسوسات في النفس.

والثانية : مرحلة تعرف القوة المفكرة في تلك الصور تركيبا وتفصيلا وتجريدا يرمي إلى تخليص ماهية الشيء المحسوس من مشخصاته، في سبيل إدراك " الأمر الكلي " الجامع لمختلف المشخصات الفردية. ورد ذلك في رسالته القيمة : " مراسم الطريقة في فهم الحقيقة من حال الخليقة " حيث يقارن بين وظيفة النفس والعقل، ويحلل سبل إدراك المحسوسات ووجه ارتسامها في الذهن وكيف يدركها العقل فيتفق مع الوهم أو يختلف معه بحسب الحجج المتوفرة والعلامات الدالة. يقول في المرسم الأول من مراسم الطريقة : " إن النفس إذا توجهت نحو المحسوسات وأدركتها ارتسمت منها في النفس صور خيالية، وبعد ذلك، تتصرف فيها بالقوة المفكرة تركيبا وتفصيلا، وتخلص ماهية الشيء المحسوس من مشخصاته وتدرك الأمر الكلي الذي وقع بتشابه الجزئيات.

وإذا توجهت نحو ما ليس بمحسوس لها سواء كان شأنه أن يحس أو ليس من شأنه أن يحس، فلابد لها من وضع علامة في النفس تتنزل عندها منزلة الصور المتخيلة من المحسوسات، ويسمى هذا الوضع توهما، فإن التوهم إنما هو اتباع الخيال الذي هو تصور شيء غير المحسوسات، ولايرتسم في النفس شيء من ذلك.

والعقل لايضع لشيء رسما أصلا، إنما له إبداء الشهادة للحق، ومدركه وجدان اللزوم في الأشياء، فلذلك إذا صرف الإنسان فكره نحو ربه نصب الوهم في الذهن شيئا لا ينفك الوهم عنه يجعله كالعلامة. فهذا الذي حصل في الذهن بالوهم يساعد العقل الوهم على نصبه، إذ لا حيلة للوهم إلا به، ويتفق العقل والوهم على أنها علامة مشيرة إلى الإسم من حيث هو، وليست هذه العلامة هي ماهية الرب ولا نفسه، إذ لا ماهية للرب، وله حقيقة جلت عن إحاطتنا بها، يشير إليها العقل والوهم، ويتفقان أيضا في الشهود الصريح على اطراح تلك العلامة بمعنى عدم اعتبارها، فيبقى الذكر خالصا بقوة الروح، وليس تلك العلامة أيضا مأخودة من شيء أصلا، إنما حدثت في النفس من ذكر الرب، فهي مشيرة إلى إسمه كما ذكر، وعلامة ضابطة للوهم.." [6].

يتضح من النص أن ابن البناء المراكشي (1254 - 1321) قد مهد السبيل بهذه النظرة لما بسطه فيما بعد الفيلسوف الفرنسي (René Descates 1650 - 1596) في التأملات (Les méditations).

ثم لما تبناه بعد ذلك (Emmanuel Kant) (1714 - 1804) في كتابه : " نقد العقل المحض " (Critique de la raison pure).

ولا يعزبن عن بالنا أن (سقراط Socrate) من قبلهم جميعا كانت عنده إشارة إلى ما يمهد لتلك النظريات والمقولات في نظرته إلى الحكمة التي يلخصها المثل السائر المنسوب إليه " إذا أقبلت الحكمة خدمت الشهوات العقول، وإذا أدبرت خدمت العقول الشهوات " .

---

[6] ابن البناء، مراسم الطريقة في فهم الحقيقة من حال الخليقة، الورقة 1.

فكل هؤلاء أرادوا أن يستخدموا العقل في معرفة ما يقولون وما يحق لهم أن يقولوه. ويقال إن طرافة (كانط) أنه فرض على العقل نفسه أن يذعن للنقد "[7].

أما ابن البناء فقد كانت مقارنته بين وظيفة النفس ووظيفة العقل تهدف إلى انتهاج منهج النقد في التصورات الذهنية المجردة كما في الصور التعبيرية التي تفصح عن هذه التصورات الذهنية، وأن يبرهن على صحة المعتقدات الدينية عن طريق العقل.

هذا عن نقد المعرفة

النقد الأدبي

أما النقد الأدبي ففي أكثر المؤلفات الباقية لابن البناء نظريات دقيقة، وتطبيقات عملية لصور منه أو من الأبحاث والآراء في البيان ، واللغة بصفة عامة وعلى المستويات المختلفة.

وينطلق ابن البناء في تصوراته النقدية من أن الدارس للنصوص الأدبية المشتغل بفهمها ونقدها، عليه أن يكون مزودا بالوسائل المعرفية الضرورية لتوجيهه إلى الإدراك السليم والحكم الصحيح، ولإبعاده عن الزلل في التفكير والتقصير في الإدراك، والخطأ في المحاكمة والتقويم.

ومن أهم هذه الوسائل عنده - وقد كان الأقدمون يسمونها علوم الآلة - معرفة اللسان العربي معجما، ونحوا، وإعرابا، وبيانا، وبلاغة، ومعرفة الأدب وفنونه وأساليبه ونقده. ويتمم ذلك ويزينه معرفة علم المعقولات وعلوم الشرع من فقه وأصول وغيرهما.

---

[7] الدكتور عثمان أمين تراث الانسانية 1 / 953.

وقد أشار إلى ذلك في مقدمة رسالته في " تفسير الاسم من باسم الله الرحمن الرحيم "، فقال : " فلا بد من معرفة اللسان العربي في فهم القرآن العربي، فيعرف الطالب الكلمة وشرح لغتها وإعرابها، ثم ينتقل إلى معرفة المعاني ظاهرا وباطنا، فيوفي لكل منهما حقه، ولا يخل بشيء من ذلك وإلا كان مخطئا أو مقصرا، وقد وضع للمقصرين في اللسان قوانين النحويين لما اعوجت الألسنة، ولناقصي التعقل علم المعقولات، ولناقصي الإبانة والبلاغة علم الأدب، ولناقصي الفهم في أحكام الشرع علم الأصول " [8] ، ثم يأخذ في تفصيل وبيان مسهب لكل تلك المعارف التي يشترط التمكن منها قبل دراسة النص.

وقد بسط في " الروض المريع " نظرياته النقدية، على ما اتسم به " الروض " من إيجاز واختصار، فنبه فيه إلى ضرورة إحساس الناقد ومعرفته بأحوال الخطاب الأدبي، والمتكلم المبدع، والمخاطب المتلقي، وقد تنبه لها ورعاها في دراسته النقدية - البلاغية، ودعا الأديب إلى أن يحرص على أن يخرج كلامه فصيحا سهلا في معانيه، حسنا في مبانيه، بعيدا عن التكلف و التعسف وذكر أن الأسلوب المقبول المحمود هو ما كانت تلك خصائصه، فقال : " واعلم أن المحمود في جميع أساليب البلاغة إنما هو ما لايظهر فيه التكلف، ولا يكون مطلوبا بالتعسف وعليه رونق الفصاحة، وطلاوة البديع" [9] .

ولم يغفل في العمل الأدبي جانب الفكرة، فاشترط صحة المعنى، وتحرى الصدق، والقصد إلى المعاني الجميلة، والأفكار المدعمة بالحجج المقنعة فقال : " وحسن معنى الكلام وصلاحه وصحته، إنما هو ببنائه على الصدق وقصده إلى الجميل، وظهوره بالبرهان " [10] .

---

[8] ابن البناء. تفسير الاسم من باسم الله الرحمن الرحيم : مخ الورقة 1 ظ.
[9] ابن البناء. الروض المريع 173.
[10] المصدر السابق 174.

كما التفت إلى اللفظ، فاشترط أن تكون العبارة واضحة قريبة إلى الأفهام بعيدة عن الغموض، مناسبة لأحوال المخاطبين وظروف التخاطب. يقول في ذلك : " وحسن اللفظ وصلاحه، إنما هو بالقصد إلى المستعمل في زمان الخطاب، وعلى قدر من يخاطب، والايضاح على أحسن ما يقدر عليه من التسهيل والتقريب " [11] .

ولعل في قوله " بالقصد الالي المستعمل في زمان الخطاب " إشارة واضحة بديعة إلى ضرورة تطوير اللغة والتعبير ومسايرتها للظروف والأزمنة وهي من أهم دعوات التجديد في اللغة ودوامها والدلالة على مرونتها بل وحياتها.

هذا فوق ما يومىء إليه حديثه ذلك من إشارة إلى ثنائية اللفظ والمعنى التي شغلت النقاد ردحا من الزمن، وقيل فيها الكثير، مما يغني عن الوقوف عليها إلا أننا نلاحظ اعتدال ابن البناء في الموضوع، ونزعته إلى العناية بكل من اللفظ والمعنى عناية متوازنة.

والقارىء المتبصر في كتابات ابن البناء عامة يلاحظ فيها تطبيقا لهذه النظريات النقدية التي اشتمل منها " الروض المريع " على الجوانب التنظيرية والتطبيقية والتمثيلية والتوجيهية جميعها، على المستوى النقدي.

أما المستوى اللغوي في منهج البناء، فيدل على تمكن واستقلالية في الرأي ومناقشات نقدية - لغوية جادة، من نحو مناقشته لرأي بعض اللغويين في زيادة الباء في بعض الأساليب وتقليب أرائهم في هذه الزيادة، ثم الإدلاء برأيه الشخصي مدعما بالحجة مستعرضا كل الاحتمالات الممكنة والمبررات اللغوية للزيادة، مستشهدا بمذاهب أئمة اللغويين وتفسيراتهم، ويظهر لنا ذلك من خلال تناوله لقول الشاعر :

شربن بماء البحر ثم ترفعت

---

[11] المصدر السابق.

حيث يقول : " قال بعضهم : الباء بمعنى (من)، وجعلها ابن جني زائدة وقال إن العدول عنها تعسف ". ثم يقول " والذي عندي فيه أن الشاعر الحق موضع شربهن بماء البحر، فالباء حالية، كأنه قال : شربن ملتصقات بماء البحر، وشربهن في تلك الحال لازم، فزاد الباء لذلك المعنى، ويحتمل أيضا الباء الظرف، أي شربن في ماء البحر، وتحتمل أيضا التبعيض – على قول من يثبته - وهو معنى (من) الذي حكاه ابن جني عن بعضهم، لأنه لو زالت الباء لاحتمل شربه جميعا، فثبتت الباء لذلك ". [12]

ويستمر في مناقشة نفس القضية قضية زيادة الباء، معبرا عن وجهة نظره، داعيا إلى التأمل قبل إصدار الأحكام، مصححا مزاعم القائلين في اللغة ونقدها بالظن والتخمين، مشيرا إلى أن في ذلك تهلكة في العلم منهي عنها شرعا فيقول :

ومن لم يمعن النظر في المعاني يظن بالباء في بعض المواضع أنها زائدة لغير معنى، وهي لا تزداد إلا لمعنى، إذ لا تصح زيادة الحرف وهو يعمل عمله، كما جاء في قوله تعالى : " ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة "، معناه الإلقاء الاختياري المحصل لنا العلم بالتهلكة فيه، فتندرج أسبابها في النهي " [13] .

تأصيل المصطلح

وفي إطار نظرات ابن البناء المصطلحية وتأصيلها ، يرى أن لكل لفظ مصطلح جهات، أي مستويات مختلفة :

- منها جهة دلالته على المعنى ويعني بذلك العلاقة الكمية بين الألفاظ والمعاني.

- ومنها جهة مواجهة معناه نحو الغرض المقصود به في الخطاب، أي العلاقة النسبية بين الخطاب وبين فحواه، وهو يعني بذلك المستوى الدلالي للمصطلح، المرتبط بالسياق.

---

[12] ابن البناء. تفسير الباء من باسم الله الرحمن الرحيم، الوجه الخامس من أوجه النظر في الباء.
[13] المصدر السابق.

- ومنها جهة أصل وضعه، ويدخل في هذه الجهة المستويين المعجمي والعرفي للمصطلح.

وهذه الجهات تمثل في نظره مباحث مختلفة، يرى كل مبحث منها جديرا بالبسط والبيان، ولذلك تناول في مؤلفاته المختلفة كل جهة على حدة فبسط القول فيها وأفاض.

غير أنه يرى ضرورة تحديد المصطلح قبل الخوض في العلوم والمخاطبات. إنه يضع منهج النظر في المصطلح، ويحدد مسطرة البحث المصطلحي، ويدعو إلى التمكن من مدلولات الألفاظ في مختلف استعمالاتها حتى تصل في العقل وتدرك في مختلف مستوياتها وتفاوت مدلولاتها، وبعد ذلك يجوز أن يخوض الخائض في ميدان الخطابات المتنوعة.

لذا تكلم في كتابه القيم " شرح مراسم الطريقة " عن (الواجب)، ونفى أن يوصف شيء من أفعال الله عز وجل بالوجوب، وقال إن " جملة أفعاله تعالى جائزة لا يوصف شيء منها بالوجوب " . [14] وبعد توضيح ذلك وتفصيله يقول : " ولقد خاض الخائضون فيه وطولوا القول في الفعل يحسن ويقبح، وهل يوجب. وإنما كثر الخبط لأنهم لم يحصلوا معنى هذه الألفاظ، واختلاف الاصطلاحات فيها. وكيف يتخاطب خصمان في أن الفعل واجب أم لا، وهما بعد لم يفهما معنى الواجب محصلا متفقا عليه بينهما فلنقدم البحث على الاصطلاحات ... والوجه في مثل هذه المباحث أن تطرح الألفاظ، وتحصل المعاني في العقل، لعبارات أخرى، ثم نلتفت إلى الألفاظ المبحوث عنها، وننظر إلى تفاوت الاصطلاحات منها ..." [15] .

---

[14] ابن البناء. شراح مراسم الطريقة، الورقة 41 وجه.
[15] ابن البناء. المصدر السابق.

وهذا منشأ الدقة المتناهية التي نجدها في سائر المباحث المصطلحية لدى ابن البناء في مختلف كتاباته. وهذه الدقة هي التي جعلته يؤلف رسالة خاصة في " تفسير الاسم باسم الله الرحمن الرحيم "، ورسالة كاملة في تفسير الباء - وحدها - من باسم الله الرحمن الرحيم ".

فكيف كان المنهج العلمي لابن البناء في دراسة بعض المصطلحات ؟

إذا نظرنا في مصطلح " الخطاب " وجدناه مصطلحا نقديا تتميز نظرة ابن البناء إليه و استعماله له عن نظرة واستعمال غيره من النقاد المعاصرين له وبعض المتقدمين عليه أيضا، لأنه يراعي فيه أحوال المتلقين الذين يوجه إليهم الخطاب، لذا نراه يخصه ببحث مقتضب لكنه دقيق صادق الدلالة على ميله إلى ضرورة أن يعنى المبدع والناقد معا بأحوال المخاطبين، وذلك في قوله : " وليس كل أحد من الناس يسهل عليه الوجيز ولا كلهم لا يفهم ولا من البسيط، بل هم على ثلاث رتب :

- منهم من يكتفي بالوجيز، ويثقل عليه البسيط.
- ومنهم من لا يفهم الوجيز، بل البسيط.
- ومنهم المتوسط.

فلذلك انقسم الخطاب في البلاغة إلى الايجاز والمساواة والتطويل، وبحسب الأغراض من الخطاب أيضا، وعلى ذلك أيضا جاءت القصص المتكررة في القرآن لأنها مخاطبة للجميع، وبحسب أغراض الخطاب المختلفة بحسب الأحوال " [16] . فالذي يقتضي تقسيم الخطاب الأدبي إذن إلى هذه الأقسام الثلاثة عنده أمران :

أولهما اختلاف مستويات المخاطبين في فهم الخطاب الأدبي وإدارك مراميه.
والثاني اختلاف أغراض الخطاب نفسه باختلاف الحاجات والمقامات.

---

[16] ابن البناء. الروض المريع 87.

أما مصطلح " الدلالة " فقد تناوله ابن البناء في مناسبات مختلفة، ونراه يعرف الدلالة ويبين أنواعها وأقسامها، ويربط بين الدال والمدلول ربطا قويا، ويبحث في ذلك كله بحثا دقيقا يكشف فيه العلاقة القوية بين المبني والمعنى، باعتبار الدلالة هي أصل الارتباط بينهما لكنه بمناقشة منطقية، يثبت أحقية كل من اللفظ والمعنى بالبحث فيه لذاته قبل قيام هذه العلاقة الدلالية بينهما، لأن لكل منهما اعتباراته الخاصة، أما " الارتباط بينهما فهو نسبة متأخرة عن ذاتيتهما في الوجود "[17] .

ونلاحظ أثر تداخل العلوم في مباحث الدلالة عند ابن البناء واضحا إذ نراه يقسم الدلالة في " الروض المريع " - وهي هنا مبحث نقدي بلاغي - بتقسيم الأصوليين والمنطقيين واللغويين تقسيمات متعددة.

- فهي من جهة أصل الوضع، أي بالنظر إلى اللفظ المعبر به وعلاقته بالمعنى المصطلحي الذي وضع له في الأصل، تنقسم إلى :

دلالة بالمطابقة.

دلالة بالتضمن.

ودلالة بالالتزام.

- وهي من جهة مدلول الخطاب، أي بالنظر إلى المعنى المعبر عنه تنقسم إلى :

دلالة المنطوق.

ودلالة المفهوم.

ودلالة المعقول.

- وهي من جهة العلاقة بين أصل الوضع وبين مدلول الخطاب، أي بين البناء اللفظي الذي وضع للمصطلح في اللغة، وبين المعنى السياقي الذي استعمل فيه، تنقسم إلى :

---

[17] المصدر السابق

مفرد دال على مفرد.

مفرد دال على مركب.

مركب دال على مفرد.

مركب دال على مركب.

ويرى أن هذه العلاقة إما أن تكون واجبة، أو ممتنعة، أو ممكنة [18] .

وواضح أن هذه التقسيمات، وما لكل قسم من تعريفات وتفريعات متأثرة عبارة ومصطلحيا بعلمي الأصول والمنطق، وكذا بعلم الكلام، ومعلوم أن مبحث الدلالة تتجاذبه علوم كثيرة وتخصصات مختلفة، فقد بحث فيه البلاغيون والمتكلمون والمناطقة والأصوليون، ولكل منهم بواعث ومبررات، ودوافع وغايات.

بيد أن لابن البناء نظرات ووقفات أخرى على الدلالة، فهو يعود إليها في بعض رسائله ليلخص العلاقة بين الدال والمدلول في توضيح مفهوم الدلالة، ويتساءل : هل الدلالة صفة في اللفظ، أي الدال، بحيث إذا أطلق دل على كمال المسمى أو جزئه أو لازمه ؟ أم هي صفة للسامع، أي المتلقي بحيث إذا عبر له بلفظ ما فهم من اللفظ كمال المسمى أو جزءه أو لازمه ؟

ويتبنى في الإجابة عن هذا التساؤل رأي الشهاب القرافي : أن الدالة هي الافهام، فهي صفة في اللفظ، لكن أثرها هو الفهم، وهو صفة في السامع وفي هذا يقول ابن البناء : " فكل ما يحتمله اللفظ وإن كان بعيدا في التأويل هو مراد التفهيم، ويؤخذ منه بالاحسن في كل موضع من التصريف، فقد يعود أقوى والغامض قد يصير أولى، فلا يطرح شيء من المعاني التي يحتملها اللفظ، ولذلك قد تؤخذ أحكام غير المنطوق من المنطوق الغامض الدلالة عليه، وهو من شريف البلاغة وعلي الفصاحة [19] ".

---

[18] توجد تعريفات الدلالة وأقسامها في الروض المريع 75 - 76 وتفسير الاسم من باسم الله الرحمن الرحيم، الورقة 12، وتفسير الباء من باسم الله الرحمن الرحيم، الورقة 3.

[19] تفسير الباء من باسم الله الرحمن الرحيم، الورقة 4.

والري، ويعد منه " المناسبة " و " التلاؤم "، لكنه في موضع آخر يعتبر مصطلح " مطابقة " نوعا من التجنيس، حيث يجعل من التجنيس " ما يكون اللفظ الثاني هو الأول بعينه "، وهو ما يسميه " مطابقة" ويمثل له بالهوجل في قول الأفوه الأودي :

وأقطع الهوجل مستأنسا بهوجل مستأنس عنتريس

باعتبار أن معنى الهوجل في صدر البيت الأبيض، ومعناه في عجزه الناقة، وهذا الاختلاف يعد مطابقة، وهو يتفق في ذلك مع السجلماسي الذي يرى أن مصطلح " المطابقة " مشتق من " طابق " بمعنى خالف، ونافر، لا شاكل ووافق ولاءم، على ما يظنه قوم من العلماء، ويغلط فيه كثير من الناس وجماعة من أهل الأدب - كما يقول في المنزع البديع - بل المطابقة في موضوع اللغة العربية : المخالفة والمنافرة " [23] .

وهذا المفهوم الذي أعطاه كل من ابن البناء والسجلماسي للمطابقة أوثق صلة بالمنهج النقدي - البلاغي الذي يبدو جليا عند ابن المعتز، وقدامة وغيرهما.

لكن هناك مفارقة بين ابن البناء والسجلماسي في مفهوم هذا المصطلح وتطبيقه، لأن ابن البناء يرى الطباق في صورتين :

- الجمع بين الضدين أو المتنافرين لفظا ومعنى.
- أو الجمع بين لفظين متوافقين في الخط مختلفين في المعنى.

بينما السجلماسي يرى الطبقات في صورة واحدة " هي تركيب القول من أمرين متضادين "، وأن المعنى هنا بالنظر أولى وأحق، فلا تعتبر صورة اللفظ الموحدة طباقا ولو اختلفت المعاني، ولكل مذهب أصوله وأتباعه.

فابن رشيق يقول : " إذا دخل التجنيس نفي عد طباقا، وكذلك الطباق يصير بالنفي تجنيسا " [25] . وهو حجة لمذهب السجلماسي.

---

[23] السجلماسي. المنزع البديع 370.
[24] المصدر السابق 374
[25] ابن رشيق. العمدة 1 / 332.

ومن المصطلحات التي درسها وتكرر تناولها عنده " المناسبة " ويعني بها " نسبة دلالة الاسم على مسماه في الربط " [20]. وهذا مبحث دلالي ولكنه يرى أن التركيب الواحد يشتمل على أكثر من نسبة، فكل شيئين يتناسبان بعضهما مع بعض، فيقال للأشياء الأربعة متناسبة، ورأى لذلك علاقة بتشبيه التمثيل لأنه يمثل للمتناسبة بقوله تعالى : " مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت إلى ....بيتا، أي إن الآية الكريمة وقع فيها تشبيه حالة الكفار وقد عبدوا آلهة واهية كلا آلهة بحالة العناكب وقد بنت بيوتا واهية، وكل جزء أو عنصر من عناصر الصورة يشبه في النسبة إلى العنصر الثاني الجزء الآخر. وأتى في ذلك بتفصيل وبيان للصور المختلفة للمتناسبة في الروض المريع، وكأنه يدرس قضية منطقية ذات مقدمات وتوال، وعلاقات بين المقدمات وبين التوالي، وفي " تفسير الباء من باسم الله الرحمن الرحيم " يدخل في المتناسبة أسلوبا آخر، في مناقشة أدبية نقدية مفيدة فيقول : " قال بعض الأدباء :

إذا لاقيت قومي فسألنهم   كفى قوما بصاحبهم خبيرا

قيل إنه من المقلوب، ومعناه كفى بقوم صاحبهم خبيرا، وليس كذلك بل هو عندي من أسلوب الحذف في المتناسبة، إذ لو قال الشاعر : كفى بالقوم صاحبهم لم ينكسر الوزن، وزال القلب، فليس ثم ضرورة دعته إلى القلب، وإنما معناه : كفى القوم صاحبهم خبيرا عن سائلهم، فاكتفوا بصاحبهم، لأنه لما كفى لزم الاكتفاء به، فليس معناه اكتفى به، فليس معناه اكتفى بالقوم عن صاحبهم الذي هو معنى قول من قال بالقلب " [21].

ومن المصطلحات التي تناولها بالبسط والتحليل مصطلح " الطباق " ويطلقه ابن البناء على " الجمع بين الضدين أو المتنافرين " [22]. ويمثل له باجتماع العطش

---

[20] الروض المريع 105 وما بعدها.
[21] تفسير الباء من باسم الله الرحمن الرحيم، الوجه 5.
[22] الروض المريع . 111 و 163.

وحازم القرطاجني يرى المطابقة أن يوضع أحد المعنيين المتضادين أو المتخالفين من الآخر وضعا متلائما، ومرجعه قدامة بن جعفر، الذي يرى المطابقة تماثل المادة في لفظين متغايري المعنى، وليس لفظا واحدا، وهذا حجة لمذهب ابن البناء لكن حازما يقصد بمصطلح " المطابق " ما يرادف المتجانس ولا يختلف عنه إلا قليلا، فهو من جنسه [26].

ونختم بمصطلحين اثنين تكتمل بهما فيما أحسب سمات البحث المصطلحي ومنهجه عند ابن البناء، وهما : المكافأة، والتلاؤم.

فأما المكافأة فيسميها كذلك التكافؤ، وهو يدخلها في المناسبة بين الأضداد، ويرى أنه يؤتى بها لأجل المغالبة والمقاومة، ويمثل لها بقول بشار :

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمرا، ثم نم

ويعلق عليه بأن " النوم يضاد اليقظة ... ونسبة حروب العدا إلى زوالها بعمر كنسبة يقظته إلى زوالها بنومه، كأن الناظم قال : إذا أيقظتك حروب العدا، فأزل الحرب بعمر، وأزل إيقاظها بالنوم " [27].

فالمكافأة تكون حيث يوجد معنيان متضادان أو متقابلان. وهي غير " التلاؤم" الذي قد يكون بين الشيء وشبهه كالشمس والقمر... وقد يكون بين الشيء وما يستعمل معه، كالقلم والدواة ... وقد يكون بين الشيء وما يشكله في اعتبار التناسب، كالنجوم والأزهار...[28].

فكأن ابن البناء لا يفرق بين التلاؤم والتناسب مصطلحيا، وذلك فصل التلاؤم إلى ذكر الشيء وشبهه، أو الشيء وما يستعمل معه أو الشيء وما يشاكله، وذلك - فيما هو واضح - اهتمام بالجانب الدلالي، لا بالجانب البنائي للألفاظ.

---

26 حازم القرطاجني. منهاج البلغاء 48.
27 ابن البناء الروض المريع 109.
28 المصدر السابق 111.

فمن خلال الأبحاث القصيرة الدقيقة التي قدمها ابن البناء في مجالات النقد والبيان وغيرهما نلاحظ لديه اهتماما جادا بالمصطلح وتأصيله إذ لايكاد يسبر غور أي بحث من أبحاثه حتى يستوفي الحديث عن المصطلحات المتداولة في مجاله، تأصيلا وتقسيما وتوضيحا، بدقة نادرة، ودراية واسعة، ويتناوله على المستويات المعجمية والصوتية والصرفية والإعرابية والبيانية والدلالية، فتتفجر من ثنايا أبحاثه العلمية الفسيحة المتأثرة إلى حد كبير بالمنهج الرياضي والعقلي، سيول من المعارف المتنوعة والعلوم المختلفة التي تمنحه صفة " المشارك"، وهي صفة كان القدماء يتسابقون إلى إدراكها، ويبذلون الجهد الجهيد، والوقت الطويل في سبيلها، وهي تعني تفاعل مختلف ألوان المعرفة والثقافة في فكر " العالم المشارك" وظهور هذا التفاعل في دروسه أو في كتاباته.

وابن البناء أحد هؤلاء العلماء المشاركين، فقد اتسمت ثقافته وأبحاثه بتكامل واضح واستفادة ظاهرة من علوم الشريعة وأصولها، وعلوم اللغة والأدب، والعلوم العقلية الفلسفية والرياضية وغيرها، وظهرت في فكره العام وفي منهجه النقدي على الخصوص آثار الأصوليين والمتكلمين والمناطقة والفلاسفة واللغويين، واتسمت طرائقه العملية في التعريف والتوضيح والتقسيم واستعمال المصطلحات بمياسم العلماء والمفكرين والمؤلفين المتقدمين على اختلاف معارفهم ومشاربهم واتجاهاتهم، فتعايشت هذه العلوم والمناهج في ذهنه، وقولبت فكره وبحثه،من غير أن تذيب شخصيته أو تقوده إلى التبعية الفكرية أو التقليد العقيم، وعبر في كتبه وآثاره عن ذوق العالم المطلع، وعلم الذواقة ذي البصيرة النافذة والنظرة المتغلغلة في مجالات الدرس النقدي والبلاغي والمصطلحي، الكاشفة عن خفايا الخطاب الأدبي مهما كان غامضا، الهادفة إلى استقراء مقاصده مهما كانت دقيقة، في القرن الثامن الهجري (14 م) وهو عصر طغت فيه الصبغة القاعدية الجافة على الصبغة الذوقية المنفعلة بالنص، وغلب فيه جانب التقنين والتنظير على جانب التذوق والتطبيق، من غير أن يخضع هو لهذا التقعيد الجاف على الرغم من أن تكوينه العام ومنزعه الفكري والعلمي كانا علميين دقيقين وصار المصطلح النقدي واللغوي عنده مجالا نابضا تتفاعل فيه ألوان المعرفة المختلفة ومستوياتها المتعددة، انطلاقا من علوم الشريعة وأصولها، وعبر العلوم العقلية

والفلسفية والرياضية، وانتهاء بعلوم اللغة والأدب وفنون القول المختلفة.

كذا أسهم ابن البناء المراكشي العددي في تأصيل المصطلح النقدي وتوضيحه بما اكتسبه من معرفة واسعة شملت علوما كثيرة تكاملت في فكره ولم تتعارض ونضجت وأثمرت ولم تبر، فأنجبت رسائل ومؤلفات في مجالات لغوية ونقدية وفلسفية ورياضية متنوعة أصيلة ومفيدة.

جامع الشرفاء بمراكش

الأستاذ أحمد متفكر
كلية الآداب
مراكش

تمهيد

لقد عمل المغاربة - منذ دخل الاسلام ديارهم - على تشييد المساجد والعناية بها، إيمانا منهم بأن المسجد مركز ترابط الجماعة الاسلامية يتلاقون فيه للصلاة، وتبادل الرأي، والوقوف على أخبار الجماعة، فهو منتدى اجتماعاتهم الدينية، والسياسية، والاجتماعية، ومعهدا للتعلم وملجأ للغرباء الذين نزلت بهم محنة.

الجامع والمسجد

لقد أصبحت الكلمتان (الجامع والمسجد مترادفتين وهما تؤديان في أذهان الناس من أبناء زماننا مفهوما واحدا. مع أن اولهما يقصد بها إطلاق القول على عمومه، والثانية يراد بها تخصيصه ذلك ان كل جامع هو في نفس الوقت مسجد، وليس كل مسجد جامعا، والفارق بينهما، ان الجامع هو المسجد الذي تؤدي فيه الصلاة الجامعة، بينما المسجد هو المكان الذي يؤدي فيه المسلمون صلاتهم اليومية [1] .

---

[1] المسجد في الإسلام 145.

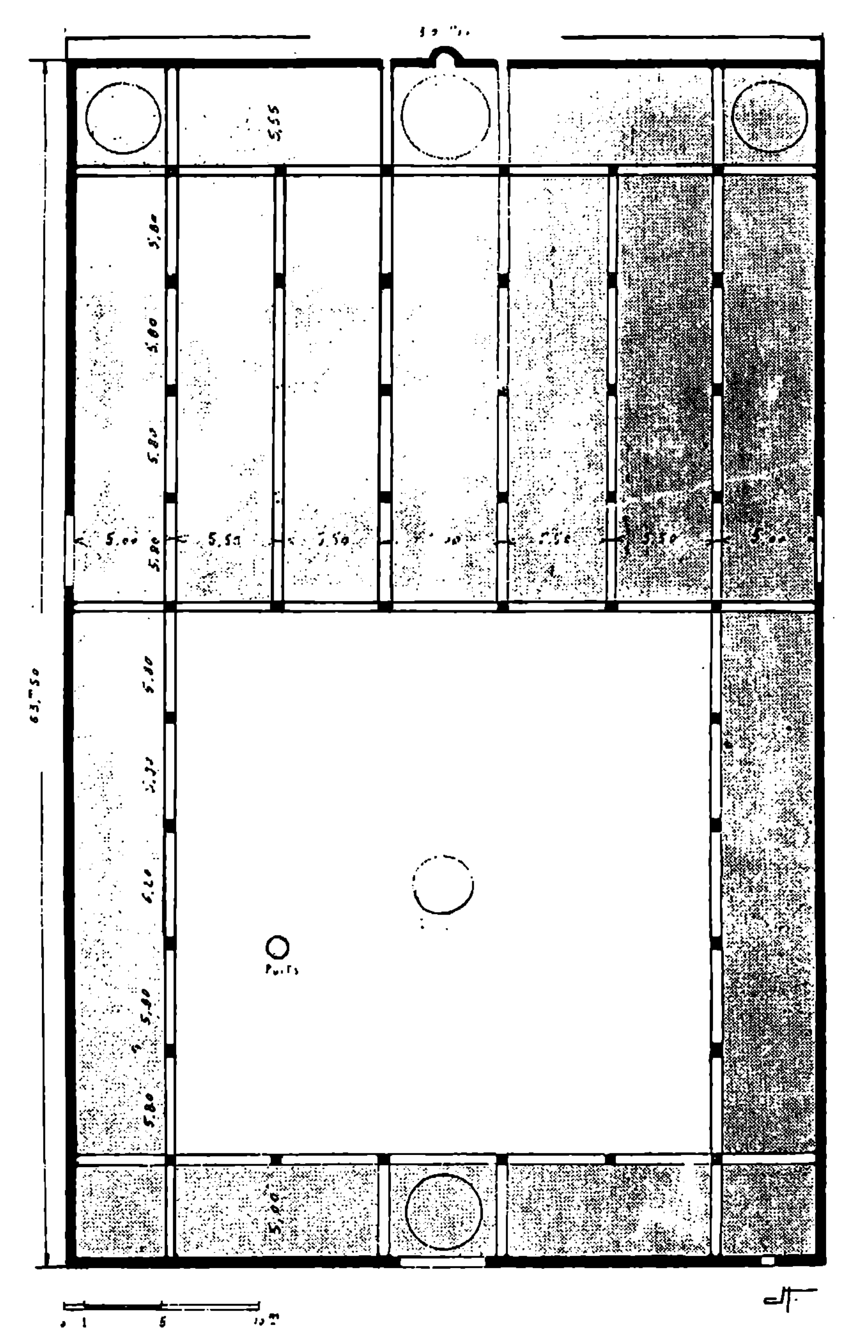


Fig. 163. — Marrakech. Plan schématique de la mosquée Mouassin.

وفي كتاب القاموس الاسلامي لمؤلفه أحمد عطية الله تحت كلمة (الجامع) : ان الجامع وصف شائع للمسجد، وأصبح علما عليه، يقال في الأصل مسجد جامع بمعنى مسجد لصلاة الجماعة، أو مسجد تقام فيه صلاة الجمعة، كما يطلق لفظ (الجامع) على المساجد الكبيرة عامة، تمييزا لها عن غيرها [2].

مرحلة التشييد

شيد جامع الشرفاء من طرف السلطان عبد الله الغالب السعدي ما بين (970 هـ و 980 هـ) على مساحة (68 x 38,50 م) ولم يحاول في عمله هذا منافسة المساجد الكبرى التي تقام فيها صلاة الجمعة، ولكنه على الأقل أراد أن يبدع شيئا ما، فصمم العزم على إنشاء مجمع ديني يحتوي علاوة على الجامع ومستلزماته، على سقاية فخمة، وميضاة واسعة، وحمام، وكتاب، ومساكن للقائمين على شؤون هذا المسجد الجامع.

يقع الجامع بقلب المدينة القديمة بحي المواسين قرب الأسواق، غير مثير للانتباه ، يقول دوفيردان : (يعتبر المغاربة أن المواسين) اسم عائلة جليلة من الشرفاء الذين كانوا إذ ذاك يقطنون بالقرب من المصلى الجديدة، وبالفعل فإن هذه البناية كانت تسمى جامع الاشراف، ولم نعثر على شيء مهم يذكر بخصوص أسرة هؤلاء الشرفاء يقال بأن رجلا اسمه المواسي من أصحاب المهدي بن تومرت كان يسكن في هذا الحي، فعرف الحي باسمه.

(ولقد كان أهل الورع يجتنبون الصلاة في جامع الاشراف بعد بنائه بمدة، ويقال : إن موضع ذلك الجامع كان مقبرة لليهود والله أعلم [3] .

ويقول دوفيردان : (وفي الاثر عند اليهود بمراكش تأكيد لنبأ مقبرة هناك، ويقال بأن بعض الاحبار من اليهود لايزالون إلى اليوم يتجنبون المرور بالقرب من

---

[2] المجلد الأول ط سنة 1365 هـ / 1963 ص 558.
[3] الاستقصا 5 / 41 .

جامع المواسين حيث أن دينهم يحرم ارتياد الاماكن النجسة كالمقابر) [4] .

ويقول " جوزي بيريش : José Berech : حسب تقاليد محلية سجلت في بداية القرن، كان أفراد عائلته الكوهن (وهم من هم في التقليد اليهودي من نسل هارون). كانوا يجتنبون المرور بجوار مسجد المواسين، لاعتقادهم بأن المكان كان مقبرة يهودية).

وبشهادة (مارمول) يقول : فان الجالية اليهودية بمراكش زمن السعديين كانت جد مهمة من حيث العدد، وخاصة بعدما أضيفت إليها يهود المورسكيون، وقد عدد منازلهم ب 3000 دار، ووصف مارمول الحي اليهودي بقوله : (لقد كان اليهود في القديم يقطنون حومة في وسط المدينة، بمكان كانت توجد به أزيد من 3000 دار، ونقل الأمير الغالب بالله هؤلاء اليهود إلى مكان في جهة أخرى قرب باب أغمات.

وجاء في كتاب السعادة الأبدية في ترجمة سيدي عبد الله بن ياسين : (ويبعد كل البعد ما شاع بين أهل مراكش أن مسجد المواسين كان حارة لليهود، فكيف يكون مسجد هذا الفقيه ومقامه مجاور لليهود، وله جاه وعلم وصلاح) [5] .

ولحد الآن لازال برج بحي المواسين قرب الجامع يسمى برج اليهودية، في حين أن هناك رواية شفوية تقول بأن : ذلك البرج كان بيت لموقت الجامع.

وفي غياب الوثائق تبقى هذه الروايات الشفوية قابلة للنقاش وللأخذ والرد.

إن أي دارس لاي جامع من الجوامع، لابد له من الوقوف عند العناصر الرئيسية التي لايمكن أن يخلو منها أي جامع، وهي :

---

4 دوفيردان كتاب مراكش.
5 .65/2

مساحة الجامع

المحراب

المنبر

الصحن

المئذنة

لقد أقيم جامع المواسين على مساحة 65 م / 64 م x 39 م / 38 م دخل المستطيل، ويتكون الجامع من سبع بلاطات والبلاط المحوري (أي الأوسط) أوسع، ويمتد سقفه الخشبي الغني بالنقش من القبة التي أمام المحراب إلى العنزة التي تفصله عن الصحن. وتسمى زخرفته بـ (أطبع لعمارة)، وتحت هذا السقف الخشبي إزار (أي نقش على الجبص) يسمى بـ (ربع قفي).

كما يشتمل على اربعة اساكيب بالإضافة إلى اسكوب المحراب الذي يحتوي على ثلاث قباب، واحدة أمام المحراب، وواحدة في كل من طرفيه، والقبة التي أمام المحراب جميلة، وفي منتهى الابداع الفني والزخرفي، وتسمى زخرفتها ب (مقربص بالقضيب). قال لي أحد العارفين بهذا الفن، إن هذا النوع من النقش لم يبق من يصنعه نظرا لدقته وتشابكه. أما القبتين الجانبيتين فنقشتا بالمقربص كذلك.

أما سقف الجامع، فإنه لايزال يشهد ببراعة صناعه، ويمثل أجمل ما في هذا الجامع من المنجزات الرائعة، فالأثر الموحدي يتجلى واضحا في تركيبات القطع المزدوجة التي تقوم البنايات عليها، وفي الروافد المزدوجة الرابطة بين الأجزاء، كما يتجلى في الحاشية الواسعة للزخرفة الهندسية الموجودة بأعلى التركيبات والروافد، هذه الحاشية التي يقل اتساعها بقدر ما تقترب من سقوف الأجنحة المشتركة، ولكن الفنانين السعديين أضافوا إلى الزخرفة ما لايحصى من التزويقات المتنوعة من صميم إبداعاتهم دون أن تضر هذه الكثرة الوافرة بصلابة هذه السقوف المشهورة عند عموم الاسبان باسم ARTE والتي تكون إحدى مفاخر الفن الموريسكي.

ويضم الجامع أربعة أنواع من الأقواس وهي :

- قوس الدائرة.
- قوس المقربص بالقضيب.
- قوس الضليع بالرخوي.
- قوس الضليع امحرض.

وكتب على أغلب هذه الأقواس بالخط الكوفي : الملك لله - العزة لله - الحمد لله.

المحراب

إن المراحل التي تعاقبت على نشوء المحراب في المسجد تعطينا فكرة واضحة عن الغرض منه، والذي يبدو من أول وهلة أن هذا الغرض لايتجاوز مساعدة المصلين على معرفة جهة القبلة، ولذلك فإن بعض المحاريب تكون عبارة عن إشارة ملونة في جدار القبلة يختلف لونها عن سائر الجدار، يقف بإزائها الامام، وأحيانا تكون هذه الإشارة عبارة عن بلاطة مسطحة تقوم مقام اللون المختلف في الجدار المذكور، على أن قيام عمر بن عبد العزيز بتجويف محراب المسجد النبوي في المدينة حمل الذين جاءوا من بعده على الاقتداء به، ومن ثم أصبح تجويف المحاريب تقليدا شائعا، وعادة متبعة في جميع المساجد تقريبا.

ومحراب جامع المواسين هو عبارة عن قوس يسمى (ظهر السلة)، ومن فوقه كتابة كوفية تحوط بالقوس، وتتضمن الاية الكريمة التالية (في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه، ويسبح له فيها بالغدو والاصال) [6] . من فوق الكتابة شماسيات مزخرفة زخرفة تسمى (إدو)، وفي داخل المحراب قبة على شكل طاسة زخرفت زخرفة تسمى ب (المقربص العادي)، وكتب على جدار المحراب الاية الكريمة :

---

[6] النور 36 .

(يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون، وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين) [7] .

وجدار المحراب بني على شكل (مربع أو قضيب)، ويحمل قوس المحراب ثمانية أعمدة رخامية، أربعة عن اليمين ومثلها عن اليسار وكلها نقشت نقشا جميلا ودقيقا، وكتب على رؤوس هذه الأعمدة الرخامية : (ما شاء الله لا قوة الا بالله).

وعلى العموم فمحراب جامع المواسين نسخة من محراب جامع القصبة، بما في ذلك نقوشه وحروفه الكوفية.

المنبر

المنبر من الناحية اللغوية : قال الزمخشري (نبر فلان نبرة نطق نطقة بصوت رفيع، ورجل نبار بالكلام، ومنه (المنبر) وانتبر الخطيب ارتفع على المنبر [8] .

وكلام الزمخشري يعني ان منبر لفظه عربية، بيد ان الكاتب سيفالييه دي رعد)، يعتبرها من الألفاظ الحبشية الداخلية على اللغة العربية، وقال : (... المنبر كلمة حبشية الاصل، وقد ذكر بعض الكتبة أن أصلها في الحبشية (ونبر) أي كرسي، فقلب العرب الواو ميما، واستعملوها على هذه الصورة، وهي ما تزال تستعمل عندهم، أي عند الاحباس للدلالة على سدة كبيرة لكرسي الملك، أو رئيس الديوان، أو نحوها ... ولما انتقلت الكلمة إلى العرب جاءتهم على وضعها الاصلي أي (منبر) وهم لم يبدلوا منها سوى فتح الميم فقالوا (منبر) [9] .

---

7 الحج 77 .
8 أساس البلاغة .
9 المسجد في الإسلام 191 .

وجاء في لسان العرب : (كل شيء رفع شيئا فقد نبره، والنبر مصدر، والمنبر مرقاة الخاطب، سمي منبرا لارتفاعه وعلوه، وانتبر الامير ارتفع فوق المنبر).

يقول الدكتور المرحوم زكي المحاسني :

إن المنابر مرتقى لكرامة هزت إلى شرف الجهاد زحوفا

وهي التي رفعت مشاعل فكرها وبنت لعلياء الشعوب منيفا

ويعد منبر الجامع المواسين تحفه نادرة لما يحتويه من زخرفة بديعة وجميلة تنم عن مهارة صانعه، ودقتهم وجودتهم، فجوانبه نقشت نقشا يسمى (أربع امطارق) و (أطييع واعمرة). كما يحتوي على أربعة أقواس نقشت نقشا يسمى (سوسنة قائم ونائم) أما العارضة التي خلف ظهر الامام نقشت هي الاخرى نقشا جميلا يسمى ب (المتمى معمر القضيب قمر شون) وهو شبيه كل الشبه بمنبر جامع القصبة.

الصحن

لقد اتخذ المسلمون من صحن المسجد وسيلة هندسية لإدخال النور والهواء إلى بيت الصلاة.

وصحن جامع الشرفاء مربع المساحة (27,50 x 27,50 م) تحيط به مجنبات من رواق واحد في الجانب الشرقي، الثاني في الجانب الغربي، والثالث في الجانب الشمالي، غير أن المجنبة الشمالية تتميز بوجود ثلاث قباب، على النحو الذي رأيناه في اسكوب القبلة، حيث أقيمت قبة بوسطه على المحور العام للبناء، وقبة أخرى بكل من نهايته الشرقية والغربية، دون أن تعوق ذلك وضع الصومعة التي شيدت ملتصقة بالواجهة الرئيسية وهي الواجهة الشمالية الغربية عند نهايتها الغربية. وهو وضع يختلف عما نراه في جامع باب دكالة بالنسبة لوضع الصومعة التي تدخل إلى تخطيط المستطيل العام للجامعة.

ويوجد وسط الصحن نافورة رخامية ذات أضلاع، وبجانبها بئر مسور بحائط رخامي ذو اضلاع، وقد طمس الآن ولم يعد يستعمل كما توجد بالصحن مزولتين : واحدة في الناحية الشرقية، والأخرى في الناحية الغربية.

الصومعة

تتميز بشكلها المكعب، تجمع بين الضخامة والقصر لاتكاد تعلو السطوح المجاورة، لتعلن عن وجود المسجد، خلافا لما نراه في المساجد الكبرى، وقد شيدت هذه الصومعة في الزاوية الشمالية الغربية.

ويروج خبر شفوي مفاده أن أحد الوزراء السعديين، كان له منزل لحرمه بجوار الجامع، فتدخل لدى من يعنينهم الأمر، فقرر المهندسون أن يجعلوها على الشكل الذي عليه اليوم، خلافا لما نراه في صوامع المساجد الكبرى.

الأبواب

وللجامع ثلاثة أبواب لدخول المصلين، اثنان من هذه الأبواب الثلاث يقابل أحدهما الآخر، ويؤديان إلى الجناح الأخير للجامع، وكل مدخل يكون في خارجه ثغرة مبنية يعلوها تقبيب مخرم تخريما نازلا إلى الأسفلو وزينت مصارع هذه الأبواب بمزالج مزخرفة بنقوش تحمل اسم السلطان المؤسس لهذا الجامع، وقد جاء في الأثر أن أحد هذه الابواب نقل من غرناطة.

إلى جانب هذه الأبواب الثلاثة يوجد مدخل الامام، ومدخل خاص بالمنبر.

الدروس العلمية

لست أبالغ حين أقول بأن المسجد كان يقوم في الماضي بنفس الدور الذي تقوم به اليوم المؤسسات الجامعية في حقول الثقافة والعلم والفكر، ذلك أن كبار العلماء الذين يعتز بهم الفكر الانساني، ويتباهى المسلمون في الكلام عن آثارهم، قد بدأوا حياتهم العلمية في أروقة المساجد، وعند سواريها، ولما أصابوا حظا كافيا من المعرفة

تابعوا ارتياد المساجد التي تعلموا فيها ليؤلفوا حلقة جديدة، وليبثوا ما في صدورهم من رصيد الثقافة في العديد من الطلاب الذين كانوا بدورهم يقبلون على هؤلاء العلماء في مجالسهم وحلقاتهم.

وجامع الشرفاء بالمواسين هو الآخر عرفت أروقته مجالس للعلماء والفقهاء والوعاظ، وترافق فيه الطابع الديني، فكان في آن واحد معبدا تقام فيه الفرائض والشعائر الدينية، ومركزا علميا تهوي إليه أفئدة أهل العلم سواء للتعليم أو التعلم. وكان شعاع هؤلاء العلماء متجليا وواضحا في الأوساط المراكشية سواء منها المثقفة أو الشعبية. وسأذكر نماذج من العلماء الذين كان لهم درو بارز في نشر الثقافة والمعرفة.

1 - محمد بن ابي القاسم الحسيني ت 988 هـ/ 1580م : من شرفاء سجلماسة درس بالقرويين، ثم استوطن مراكش أيام السلطان عبد الله الغالب فأسند إليه التدريس والخطابة بجامع الاشراف لما تم بناؤه، أخذ عنه الطلبة العلوم اللسانية والدينية، وامتازت بالخصوص دروسه النحوية حتى أنه ألف شرحا مفيدا لالفية ابن مالك [10] .

2 - عبد الواحد بن أحمد الحسيني ت 1003 هـ/ 1594 م : اتصل بالسعديين وعمل في بلاطهم منذ المراحل الأولى لتأسيس دولتهم وتولى أيام المنصور خطة الفتوى بحضرة الإمامة، والتدريس بجامع الاشراف، وقد كثر الآخدون عنه من الطلبة والعلماء حتى عند شيخ الجماعة في عصره [11] .

3 - محمد بن يوسف الترغيتي ت 1009 هـ/ 1600 م : أصله من جبال الريف استوطن مراكش، مستقرا في دار بدرب عبيد الله قرب جامع الاشراف كان يجود القرآن للطلبة في دهليز (سطوان) داره، ويعقد مجالس التفسير والحديث والفقه

---

[10] حجي 2/ 376 .
[11] حجي 2/ 379 - الاستقصا 5/ 111 - درة الحجال 3/ 140 .

والنحو في جامع الاشراف، وقد أدرك شأنا بعيدا في علوم القرآن فشدت إليه الرحال لأخذ القراءة عنه، وتزاحمت ببابه الركبان [12] .

4 - أحمد بابا السوداني : ت 1036 هـ/ 1626 م : يقول أحمد بابا : (لما خرجنا من المحنة طلبوني للإقراء، فجلست بعد الإباءة بجامع الشرفاء بمراكش، من أنوه جوا معها، اقرىء مختصر خليل قراءة بحث وتحقيق ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك والفية العراقي، وتحفة الحكام لابن عاصم، والسبكي والحكم والجامع الصغير قراءة تفهم مرارا، والصحيحين مرارا، ومختصرهما والشفا والموطا، والمعجزات الكبرى للسيوطي، والشمائل والكلاعي وغيرهما، وازدحم علي الخلق وأعيان طلبتها، ولازموني بالاقراء على قضاتها [13] .

5 - الحسن بن مسعود اليوسي 1102 هـ/ 1690 م : لما دخل مراكش تصدر فيها لاقراء علم التفسير بجامع الشرفاء، فمكث في تفسير الفاتحة قريبا من ثلاثة أشهر، وهو يبدي في كل يوم من التحقيق أسلوبا، ويلقي من التحريرات صنوفا، فعجب الناس لحسن إلقائه، وغزارة مادته [14] .

6 - عبد الله بن إدريس المنجرة 1175 هـ/ 1761 م : شيخ جماعة القراء في وقته، كان يدرس العلم بجامع الشرفاء، له مجالس في كل وقت ويكثر الاقبال على دروسه، وبقي على هذا الحال إلى أن توفي [15] .

7 - محمد بن سعيد بن محمد المرغيتي السوسي المراكشي 1309 هـ/ 1891 م : الشيخ العلامة الدراكة الامام الراسخ الصوفي الشهير. درس صحيح البخاري والشفا، وشرح الكبرى للشيخ بجامع الشرفاء [16] .

---

[12] حجي 2/ 380 - درة الحجال 2/ 164 - صفوة من انتشر 130.
[13] الاعلام 2/ 305.
[14] الاعلام 3/ 157 .
[15] الاعلام 8/ 315.
[16] الاعلام 5/ 312 الدر النفيس 49 .

8 - سعيد بن محمد بن احمد جيمي ت 1313 هـ/ 1895 م : درس بجامع الشرفاء، وبجامع الزاوية العباسية وغيرهما [17] .

9 - محمد الكبير التادلي المراكشي الداروالقرارت ت 1317 هـ/ 1899 م : من أولاد زيدوح، كان له خط بارع وانكباب على المطالعة، أقرأ العروض بجامع المواسين، كان استادا لقراءة السبع، ويتعاطى النحو والعروض ونظم الشعر [18] .

10 - أحمد بن محمد أبو ضربة المراكشي ت 1320 هـ/ 1902 م : تولى الوعظ بجامع الاشراف بعد الصبح، كان حسن الصوت جهوريه [19] .

11 - محمد بن إبراهيم السباعي 1332 هـ/ 1913 م : شيخ الجماعة بمراكش، له تآليف عديدة وتقاليد مفيدة، تولى التدريس ليلا بجامع المواسين [20] .

12 - التهامي بن عبد القادر بن الحداد المراكشي ت 1336 هـ/ 1917 م : أستأدبه السلطان المولى الحسن لتأديب أولاده وإخوته، فأخذ عنه المولى عبد الحفيظ، والمولى المهدي. كان فقيها مجدا عالما بقراءة السبع، درس بجامع المواسين، وبمسجد درب تزكارين من حي باب دكالة [21] .

ومن المتأخرين الذين درسوا بهذا الجامع أذكر منهم :

الشيخ أبو شعيب الدكالي

سيدي المدني بلحسني

---

[17] الاعلام 10 / 150 .
[18] الاعلام 7 / 129 .
[19] الاعلام 2 / 455 .
[20] الاعلام 7 / 201 .
[21] الاعلام 3 / 98 .

القاضي السيد عباس بن ابراهيم التعارجي

العلامة الشريف محمد بن عبد القادر العلوي (مسو)

العلامة محمد بلحسن الدباغ

الفقيه سيدي أحمد أكرام

الفقيه سيدي أحمد الكنسوسي أمد الله في عمره.

الكراسي العلمية

عرف المغرب الكراسي العلمية مع المرينيين، ازداد عددها، وتضاعفت أهميتها مع السعديين، ولم يعد تأسيسها وتخصيص الأوقاف لها قاصرا على رجال الدولة، بل يشارك في ذلك خاصة الناس وعامتهم [22] .

وفي العهد أحدث بجامع الشرفاء كرسي البخاري، وكرسي مختصر خليل ولعلمها من إنشاء ووقف السلطان عبد الله الغالب السعدي [23] .

النساخة

انشيء - لأول مرة - شبه مدرسة لتلقين الكتابة على حدة، ويتعلق الأمر بإنشاء درس لتعليم الخط في جامع المواسين بقوانين مضبوطة على نحو ما كان معروفا في القاهرة وغيرها من حواضر الشرق واستندت رأسة هذه المشيخة إلى نقيب الخطاطين عبد العزيز بن عبد الله الكتاني المولود عام 956 / 1549 م - 1550 م.

---

[22] حجي 1/ 119.

[23] حجي 1/ 119 .

قال ابن القاضي في ترجمته : وهو المقدم لتعليم الخط بجامع الشرفاء من مراكش المحروسة، كما هي العادة بالقاهرة وغيرها من بلاد المشرق [24] . وهكذا تتبين حقيقة درس الخط الذي أنشىء بجامع الشرفاء من مراكش وهو في الغالب - من عمل المنصور الذهبي - وقد أحدثه كتجربة أولى قابلة لانتشارها في جهات أخرى من المغرب في حياته وبعدها [25] .

ولقد كان لعبد العزيز الكتاني السالف الذكر إلى جانب مهارته في الخط، كان يتقن الخطوط المغربية والأندلسية والمشرقية والتي كان يلقيها للطلبة في جامع المواسين. كما ألف عدة كتب اطلع عليها المؤرخ أحمد بن القاضي.

خطباء الجامع

تعتبر الامامة والخطابة من الوظائف الدينية التي حضيت بعناية الحكام، وتقدير واحترام المجتمع لهم، فأوقاف جامع الاشراف كانت ذات أهمية قصوى إذ وفرت للقائمين عليه أرزاقا وافرة إلى جانب أنهم كانوا يتمتعون بالسكنى المجانية في دور حبسية.

ومن خطباء جامع الاشراف :

1 - محمد بن محمد أبي قاسم الشريف الحسني السجلماسي ت 988 هـ / 1580م: وهو من شرفاء سجلماسة، استوطن مراكش أيام عبد الله الغالب، فاسندت إليه الخطابة والتدريس بجامع الاشراف عندما تم بناؤه. وهو أول من خطب بهذا الجامع كما جاء في الصفوة [26] .

---

24 درة الحجال .
25 البحث العلمي عـ 18 ص 17 .
26 ص 42 .

2 - عبد الواحد بن أحمد الحسني السجلماسي ت 1003 هـ/ 1594 م : عالم متفنن مشارك في عدة علوم، كان آخر المحدثين بمراكش، ولي خطبة جامع الاشراف [27] .

3 - علي بن حسن الحسني ت 1003 هـ/ 1594 م : له حاشية على المرادي على الفيه ابن مالك، تولى خطابة هذا الجامع [28] .

4 - عبد الله بن ادريس المنجرة ت 1175 هـ/ 1761 م : نفذ له سيدي محمد بن عبد الله الامامة بجامع الاشراف [29] .

5 - سعيد بن محمد بن احمد جيمي 1313 هـ/ 1895 م : قبل أن يتولى الخطابة بجامع الاشراف كان يخطب بجامع سيدي اسحاق بعد وفاة خطيبه الفقيه المدرس السيد عبد الله الدراوي العثماني، وبعدما تولى خطابة جامع الاشراف لما عزل عنه السيد أحمد بوضربة لقراءته الكتاب الذي كتبه مولاي أحمد الكبير بأمر رؤساء مراكش في الثورة على ابن داوود، ثم رجع بوضربة إلى محله بعد ذلك [30] .

6 - أحمد بن محمد بوضربة المراكشي : ت 1320 هـ/ 1902 م : تولى الخطاب بجامع الاشراف، وكان والده وأخوه الكبير السيد محمد خطيبين به قبله، وبعد وفاته تولى ابنه الفقيه محمد مكانه [31] .

ومن المتأخرين أذكر :

- الشريف مولاي عبد السلام الفيلالي الضرير

---

[27] جدوة الاقتباس س 453 الاعلام 8 / 523.
[28] نشر المثاني 1 / 32.
[29] الاعلام 8 / 315.
[30] الاعلام 10 / 151 .
[31] الاعلام 2 / 455.

- الفقيه الطبايلي

- القاضي الحاج ادريس الورزازي

- الفقيه عبد السلام جبران

مكتبة جامع الشرفاء

عرف المسجد في جميع العهود الاسلامية بأنه كان مجمعا للعلماء ورجال الادب والثقافة والفقه والتشريع مع ما يستلزم ذلك كله من تخصيص بعض أقسامه وأروقته ليكون مكتبة تضم في رفوفها المراجع والمصادر والمصنفات التي تساعد أولئك العلماء على الدراسة والبحث والتحقيق، وتكون عونا وسندا للطلبة والمتعطشين للعلم .

ومن هنا دأب أمراء المغرب وسلاطينه على بناء مكتبات بجانب المساجد التي أسسوها، اسوة بمن سبقوهم من الامم السابقة، ولم يخرج السعديون عن هذه السنة الحميدة، وبناء مكتبات بجانب كل مسجد شيدوه، وهذا ما فعله عبد الله الغالب حيث أسس حوالي 965 هـ / 1558 م مكتبة بجوار جامع المواسين، واوقف عليها من نفائس الكتب الشيء الكثير، وظل الأمراء والمحسنون يوقفون عليها من أمهات الكتب ما جعلها في الجنوب قرينة مكتبة القرويين في الشمال . وهذه المكتبة عبارة عن قاعة مربعة الأركان، واسعة الأرجاء، واقعة وراء جدار القبلة من جانبه الشرقي .

وقد استفاد أحمد بابا السوداني من هذه المكتبة استفادة كبرى في تأليف كتبه الشهيرة في التراجم، يقول أحمد بابا في ترجمة إبراهيم بن قايد بن موسى : (رأيت في خزانة جامع الشرفاء بمراكش السفر الأول من شرح آخر له على خليل قدر الثلث إلى الجهاد سماه : (تحفة المشتاق في شرح مختصر خليل بن اسحق) مجلد ضخم) [32] .

---

[32] نيل الابتهاج 53 .

وكان القيم على المكتبة يختار من بين العلماء المشهورين بالجد والنزاهة، وما دمنا لم نقف على وثائق ومعلومات عن نوعية الكتب، وعن المستفيدين منها وعن القيمين عليها، في غياب هذه المعلومات ارتأيت أن أدعم هذا الفصل بوثيقة من إنشاء العلامة سيدي عبد الله اكنوس [33] يقول :

الحمد لله وحده

الحمد لله الذي أوقف جميع الخيرات على من وقف صادقا ببابه وحبس رضاه الأكبر في كل الأوقات على من تعلق واصلا باسبابه، والصلاة والسلام على بذرة المبدأ، ولبنة التمام، وبعد :

فلما كانت همة مولانا أمير المؤمنين [34] أدام الله وجوده، و ظفر جنوده تواقة لابتناء المعالي على مرور الأيام والليالي، تواقة لتشييد المفاخر في الأول والآخر، انتخب نصره الله خزانة كتب جامعة مانعة مجدية نافعة حاوية من كل فن أنفعه، ومن كل علم أرفعه، مشحونة بالنفائس المستغربة، منتقاة من كل الذخائر المنتخبة، كفيلة بكل ما يتوقف عليه طلاب العلم، كافية شافية لكل ذي فهم، وجلب ايده الله جلها من الآفاق المشرقية، وحشد شيئا كثيرا منها من الديار المصرية، انافت على الالف، واحتوت على كل نوع وصنف، وصير عليها أموالا طائلة لا تسمح بها النفوس إلا نفس كنفسه الشريفة الابية، وهمة كهمته النزيهة العالية، حتى صارت من أفخر المفاخر تنشد : كم ترك الاول والاخر :

هكـــذا هكـــذا وإلافـــلالا طـرق الجد غيــر طـــرق المـزاح

فخرج نصره الله عنها الله، ووهبها في سبيل الله، وحبسها لوجه الله، ابتغاء مرضاته، وتخليدا لذخرها في ديوان كبرى حسناته، ورجاء الاجور الأخروية، واغتناما

---

33 امدني بهذه الوثيقة الاخ الاستاذ محمد المهدي الكنوسي فله مني وافر الشكر.
34 يعني المولى الحسن الأول .

للسعادة الأبدية، واستمطارا لما ورد في فضل من حبس الاحباس وأوقف الأوقاف من الناس، وأمر ايده الله بكتب هذا التحبيس على ظهر المجلد الأول من تأليف كذا في كذا، تحبيسا مؤبدا، وتأسيسا صرمدا، على القانون الذي قنه، والضابط الذي اخترعه وأتقنه فهنيئا لسيدنا أيده الله بالثواب الجسيم، وطوبى لمولانا نصره الله بالفوز بالنعيم المقيم، نفع الله سيدنا بخالص نيته، وأطال نصره، وأطاب عصره، وبارك الاسلام والمسلمين في ميمون غرته وأسعده وأسعد به، وخلد الملك والخلافة فيه وفي شريف طاهر ذريته وجعلها كلمة باقية في عنقه ما تعاقب الملوان، وتوال الاوان، أمين واخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

فصل : في المحل :

هو خزانة المواسين بعد إصلاحها، صدر به الامر العالي بالله في كذا وكذا، وتجديد جدرانها، وتجليد سائرها بالخشب، نعم يجب التنبه لنكتة وهي يجب إبعاد محل الكتب عن أرضها بمقدار شبر ونحوه، وإبعاد الحائل الخشبي عن الحائط بما يقرب من ذلك كذلك وإنما اخترنا المواسين لوجوه متعددة كل واحد يوجب أوليته : منها اختصاصها واختيارها، ومنها مأوى الكتب من قديم، وفي الدولة السعدية كان لها صيت عال، وسوم غال ألخ.

ومنها صونها ولاكتنافها بالدور والعمارى من جميع الجهات، وليس هذا لغيرها من الخزائن، بل جلها موالية للفضاء، ومجاورة للخلاء إن لم يكن في الكل ففي الجل.

ومنها امر اسلاف سيدنا نصره الله، وقد سهم الله بنقل بقايا الكتب من خزانة ابن يوسف إليها ونقل خزانة الحرة والدة المنصور من جامع باب دكالة إليها أيضا، ومن خزانة مسجد المنصور وغيرها إليها كذلك ومنها قربها لمحل جلوس النظار بحيث لو شاء الناظر التردد إليها في اليوم مرات لامكنه ذلك لشدة القرب وتمام الاتصال.

فصل : القيم :

يجب أن ينتخب من خيار الناس الاذكياء التقاة الذين لا تتمشى عليهم الحيل، ولاتؤثر فيهم الأطماع، وان يكون من دور المهابات حتى يحتمي حماه ويخشى جانباه، نعم يكون أمره قاصرا على الجناب العالي بالله ومعاملته خاصة بدار المخزن بحيث لاتجد الولادة إلى مد أيديهم في الكتب سبيلا لأنفسهم ولا لغيرهم بوساطتهم حتى أن سيم ذلك شيء يعلم دار المخزن فيجاب بما يات وما يدر.

وأن تكون له أجرة كافية، ويحبس على القيم ملك اوريع يقوم مستغله بأجرته وأجرة أعوانه، ويكون تعاهده للكتب مرة في الشهر يظل بها يوما كاملا فيستخرجها كلها من الخزانة إلى صحن المسجد أو نحوه من براح تنالها فيه الأهواء والأرواح، ويلقى عليها شعاع الشمس من الشروق إلى قرب الزوال في زمن الاعتدال، وبحسب المقتضى في غيره من الفصول.

ثم تنفض الكتب سفرا سفرا، وتورق ورقة ورقة بحيث يزول الالصاق الذي بين الأوراق، وتستروح الأوراق بالنسيم، وتعد الكتب في الاخراج والادخال، ويكون له أعوان تقاة مامونين بأجورهم الوسعة، ويكون فتحة للخزانة في كل شهر للنفض.

وتفتح أيضا الخزانة كل جمعة بعد الصلاة إلى الغروب ليدفع الطلبة ما كان عندهم من الكتب المحوزة منهم يوم الأربعاء، ويجلس يوم الأربعاء أيضا لحوز ما عند الطلبة النهار كله أيضا، يعني طرفي النهار من الصباح إلى الزوال، ومن العصر إلى الغروب.

ويجب أن يكون القيم من أهل العلم والمعرفة، وله خبرة بأسماء التاليف والمؤلفين حتى لا تتمشى عليه الحيل في تبديل الكتب بغيرها أو تبديل الاحصن بالارذل.

فصل : في كيفية إعارة الكتب :

وذلك أن طالب العلم الطالب للكتاب لا يخلو من أحد ثلاثة أشخاص :

إما فقيها مدرسا، أو طالبا وهم على قسمين :

فأما الفقهاء بقسمين فلا يعطون شيئا من هذه الكتب البتة، لأنها عندهم مكررة وحتى من لم تكن عنده، فعنده ثمنها وهو قادر على تحصيلها من وجوه لغناه وجاهه، فلم يبق وجه لإعطائه منها شيئا أصلا.

وأما طالب من أولاد المدينة وهم قسمان أيضا :

الأول من ذوي أهل البيوتات وذوي المروءات.

والثاني من مطلق أهل المدينة.

وثالث الأشخاص أن يكون الطالب آفاقيا من عمار المدارس، وهم على قسمين أيضا :

مجتهد في القراءة وضده.

واما أبناء المدينة، فالقسم الأول منهم، وهم ذوي البيوتات والثروة، فهم قسمان : مجتهد ومتكامل.

فالأول يعطي بعد الاشهاد واعلام من يقرأ عليه ليعلم القيم اذا تخلف فيحاز منه الكتاب ولايرد له، ويكون ذلك سببا لعدم تمكنه بعد من شيء.

وأما المتكامل منهم فيعطي بعد الاشهاد وما تقدم، ويزاد أنه يرده كل يوم أربعاء، وحوزه كل جمعة، وان غربت شمس الأربعاء ولم يات به يبحث عنه ويجاز منه ولايرد له قطعا.

وأما الافاقيون، فالمجتهد منهم يعطاه كمجتهد أهل المدينة مثلا بمثل. وأما المتكاسل من الأفاقيين فحكمه حكم متكاسل أبناء المدينة، غير أنه ان ظهر عليه الاجتهاد بعد يعطي بخلاف متكاسل اولاد المدينة فإن الغالب عليهم أنهم يتركون القراءة رأسا، ويشتغلون بأسباب المعاش ونحوه، فمن تخلف عن المجالس وتكرر منه ذلك تحاز عنه الكتب ولا ترد له ولو طلب.

المدرسة

توجد بالقرب من جامع المواسين مدرسة لا يطبعها أي طابع فني، ولا يعلم عنها أي شيء مطلقا . كانت تحتوي على 26 غرفة حسب : (لوسيوني JOSEPH LUCCIONI) [35] . أما الآن فهي تحتوي على 92 غرفة بعد إصلاحها من طرف بعض المحسنين.

وقد ورد في كتاب الدرة الجليلة [36] بأن أحمد بن سليمان الرسموكي السوسي الأصل، المراكشي الدار والمدفن نزل بهذه المدرسة.

السقاية .

من التقاليد المستحسنة التي سار عليها أهل المغرب والمشرق جلب الماء لشرب الناس، وورد البهائم، ففي الأثر أن النبي ص : أوصى بالسقاية واعتبرها من أفضل الصدقات وأجلها.

وتعتبر سقاية جامع المواسين من أهم سقايات مراكش الأثرية، سواء من حيث الحجم، أو الزخرفة، وهي النمودج المقتدى به بالنسبة للسقايات المتأخرة.

---

[35] Les Fondations Pienses (HABOUS)

[36] رسالة جامعية تحقيق أحمد عمالك.

ويخبرنا الأفراني : أن هذه السقاية شيدت مع بناء الجامع نفسه، وهي مبنية بنيانا هندسيا رصينا متقنا .

تتألف من أربعة صهاريج : ثلاثة خاصة بالبهائم، و الرابعة خاصة بسكان الحي، وقد أقيم على هذه الأخيرة حاجز من جذع شجرة كبيرة لمنع البهائم من الوصول إليها، وتلويث ماء الشروب ولهذا الغرض أخر المهندسون الصهريج إلى الوراء جانبا، فهو لا يوجد على مستوى الصهاريج الثلاثة المخصصة للبهائم .

وتمتاز السقاية الخاصة بأهل الحي بفنها ورونقها وعظمتها، فالمشاهد لها يرى عمودين يحملان منضدتين مزخرفتين ومخرومتين بالجبص، واجهاتهما العموديان تقابل احداهما الأخرى وتعلوهما قطعة بارزة من خشب الارز الذي تفنن في صنعه الصناع وتستند عليهما قطعة مزدوجة من نفس الخشب .

وتوجد هذه العبارة منقوشة في الأسفل :

(أحسن ما يقال الحمد لله على كل حال) كما كتب في مكان آخر :

أحسن ما صرف فيه المقال الحمد لله على كل حال

بخط أندلسي، تتخلله أشكال زخرفية من نوع (التزويق)، الكل يرجع إلى عهد السلطان عبد الله الغالب السعدي .

وكتب بلون أسود على افريز داخل السقايات البيت التالي :

بشرى فقد أنجز الاقبال ما وعدا وكوكب المجد في العلا صعدا

ويرجع عهد هذه الكتابة الأخيرة إلى زمن السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الرحمان العلوي قبل سنة 1284 هـ/ 1867 م .

الحمام

إن سكان الحضر يومنون إيمانا صادقا بأن الحمام من حسنات المدينة، ومن ضروريات اي تجمع سكني، لان نظافة المسلم جزء من إيمانه، والصلاة من أقوى الأركان التي يقوم عليها هذا الدين ولا تجوز إلا بالوضوء والطهارة.

والقاعات الساخنة في حمام المواسين مقببة، ومغطاة بقبة من الأجور، ذات قاعة متمنة الزوايا على مجرى مربع، ويلج النور إلى الحمام بواسطة ضوايات زجاجية.

الميضاة

تقوم قرابة الجامع ميضاة جميلة مكونة من محل للوضوء ومحل للاستقراغ، وهي في شكل قاعة ضخمة يحمل وسطها صوانا قائما عليها يجعل النور والهواء يدخلان منه إلى القاعة لتهويتها وإضاءتها

هذه نظرة إجمالية عن جامع المواسين ومرافقه، ومما يحز في الصدر ويدمي القلب أن جل هذه الآثار لم تجد العناية، ولا العين الساهرة عن صيانتها والمحافظة على طابعها الغني والزخرفي، فكم من قطعة فنية سقطت ولم يعد إصلاحها وترميمها حتى تبقى الصورة كاملة وغير مشوهة وانني لأهمس في أدن وزارة الأوقاف لتلتفت إلى مثل هذه الجوامع التاريخية وتصونها من الضياع والتلف كما وقع لكثير من الآثار كمنبر الكتبية وسقاية شرب أشوف ... ألخ.

المراجع

1 - الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام.

2 - السعادة الأبدية.

3 - المسجد في الإسلام.

4 - الحركة الفكرية - حجي - .

5 - نيل الإبتهاج.

6 - صفوة من انتشر.

7 - الاستقصا.

8 - الدرة الجليلة.

9 - درة الحجال.

10 - الدر النفيس.

11 - جذوة الاقتباس.

12 - نشر المثاني.

13 - أساس البلاغة.

14 مراكش - دوفردان - .

15 - مجلة البحث العلمي عـ 18 ص 17 .

16 - مجلة كلية الآداب - الرباط - عـ 9 ص 130.

.Les Fondations Pienses - 17

ابن البناء والبحث عن كليات للبلاغة

عباس أرحيلة

1- ابن البناء المؤلف

(أحمد بن البناء، أبو العباس 654 - 721 هـ) اصطرع في تكوينه المعرفي المنقول والمعقول، وجمع في حياته بين التجربة الروحية والمادية. وكشفت عناوين كتبه على امتداد ثقافته وخصوبتها وتنوعها. فعلى مستوى التأليف تميز بالابداع وبالتلخيص والاختصار (تلخيص أعمال الحساب، اختصار الكشاف للزمخشري - واختصار إحياء علوم الدين للغزالي ...) وعلى مستوى المنهج اهتم بالكليات والجزئيات (تفسير الباء من بسم الله الرحمن الرحيم - تفسير الاسم من البسملة - القانون الكلي من المنطق - كليات في العربية). وإن بقيت عناوين كتبه بعيدة عن الاهتمام بالفلسفة فقد بذل جهودا في تقريب المنطق ، فألف القانون الكلي في المنطق - وكليات في المنطق - واللوازم العقلية في مدارك العلوم - ورسالة في الجدل.

2 - بين علم البيان وصناعة البيان

إذا كانت البلاغة العربية في المشرق قد تحددت مجالتها المعرفية، ونضجت مباحثها، وتعددت نماذجها وأمثلتها، فماذا يريد أن يضيف ابن البناء إلى البلاغة العربية ؟

شأن علماء البلاغة العربية مهد لكتابه بالاشارة إلى أهمية البيان للإنسان حين" فضله – الله – بالنطق على سائر الحيوان " (67) [1] وان القرآن " للناس بيان، ولكل شيء تبيان. قصرت دون بلاغته وبراعته الفهوم، وانحصرت تحت كلياته وجزئياته جميع العلوم فقامت به الحجة " (68) .

لم يحدد ابن البناء كليات القرآن وجزئياته، ولكنها تلتمس في الاسس والضوابط التي تقوم عليها العقيدة في أصول الدين، كأن نجعل التوحيد في الكليات ونستحضر ما جاء في كتاب الله من أدلة استدلالية جزئية تثبت كلية التوحيد. والنص القرآني خطاب الهي توسل باللغة ليكون بيانا للناس، وحجة على الخلق. وتأسس علم البيان لتتحقق معرفة البيان الالهي. وما هو علم البيان ؟ يقول ابن البناء : " هو شيء يفيضه الحق من عنده على الاذهان، ويشهد به العقل الصريح لا باستفادة من انسان، إنما يحصل من المخلوقين التنبيه على العلم الذي علمه خلقه (88) ". فالبيان شيء مطلق، يحتوي الكليات، لا يتعلم من مخلوق وإنما " يفيضه الحق من عنده " . (خلق الانسان علمه البيان).

فكيف يتأتى للخلق أن يدرك المطلق وتنكشف له الكليات؟ يتأتى له ذلك بمعرفة صناعة البديع " يقول ابن البناء " والصناعة المتكفلة بذلك هي صناعة البديع. والعلم الذي منه هذه الصناعة هو علم البيان (88) . فصناعة البديع جزء من كل، تتكلف بالكشف عن علم البيان، إذ هو خلفياتها و " مستندها " قد نستعمل في الاصطلاح بدل " صناعة البديع " " صناعة البيان " ولكن إذا كنا نقصد بالبيان القول وحده الذي يكون به التبيان. يقول ابن البناء : "ومتى أطلق البيان على القول وحده الذي به التبيان، فصناعة البديع هي صناعة البيان، وعلم البيان فوقها. فإطلاق علم البيان على الصناعة غير سديد (88 - 89) ".

---

[1] الارقام بين قوسين تشير إلى أرقام الصفحات في الروض.

فما هو الفرق بين علم البيان وصناعة البديع، بعد الذي سبق ؟

الفرق الجوهري عند ابن البناء أن علم البيان لاينحصر، وصناعة البيان (صناعة البديع) قد تنحصر (89) .

والعلم يميز الكليات ويميز الجزئيات، ويميز بين جزئيات كلي، وجزئيات كلي آخر حتى لا يختلط شيء بشيء، ولايشتبه في العلم شيء مما يشتبه في الصناعة.

والصناعة من حيث هي صناعة إنما تعطي القوانين الكلية التي تنضبط بها الجزئيات المندرجة تحتها " (88) .

وهكذا فعلم البيان هو الأصل، يميز الكليات ويميز الجزئيات، اما صناعة البديع فتعطي القوانين الكلية التي تنضبط بها الجزئيات " فصناعة البديع ترجع إلى صناعة القول ودلالته على المعنى المقصود ... وصناعة البديع ... إنما هي من جهة الاستدلال بالالفاظ على معانيها فهي راجعة إلى كيفية العبارة والأساليب في البيان. وعلم البيان إنما هو من جهة وجه الدلالة والدليل، فهو راجع إلى المعاني من حيث هي واضحة فيه... عبر عنها بلفظ أو لم يعبر " (88) .

فالمتلقي للنص القرآني مدعو أن يدرك " كيفية العبارة والأساليب في البيان " والمبدع تقاس مواهبه بكيفية العبارة والأساليب في البيان البشري، والناقد الأدبي تقاس قدراته في الفهم والتمييز بين كيفية العبارة والأساليب في ذلك البيان. والشعريات منذ أرسطو حتى اليوم لازالت طموحاتها تتمثل في البحث عن " كيفية العبارة والأساليب في البيان ".

والخلاصة أن صناعة البديع تحاول أن تستدل بالالفاظ على معانيها، وتتعرف على كيفية العبارة والأساليب. وصعوبة التعرف على الكيفية ان مقاصد المتكلمين لايمكن حصرها. " والأغراض والمقاصد تختلف في الخطاب على الشيء الواحد، فيكون لذلك الشيء الواحد انحاء كثيرة بحسب كل غرض. ولذلك لا يصح الاعتراض على أحد الا بعد الاتفاق على الغرض و النحو الذي نحاه فيه.

والاغراض لاتنحصر، فتقسيم الصناعة حسب الاغراض غير منحصر من جهة المعنى. وقد يمكن الحصر من جهة العبارة باللفظ. فلذلك اهل صناعة البديع حصروها بالاستقراء من جهة عوارض اللفظ إلى أقسام سموها بأسماء وبينهم في ذلك اختلاف " (89 - 90)

3 - غاية ابن البناء تقرير بلاغة القرآن

فكيف تدرك الاغراض والمقاصد التي اشتمل عليها النص القرآني، وهي منحصرة تحت كلياته وجزئياته ؟ وكيف تقوم حجة الله على خلقه إذا لم يدرك كنه خطابه، ولا كيفية العبارة والاساليب في بيانه ؟ فلابد من وجود صناعة تتكلف بهذه المهمة. ولابد من محاصرة مالا ينحصر عن طريق الاستقراء لعوارض اللفظ وتلك مهمة " أهل البديع " وأراد ابن البناء بمشروعه هذا أن يكون من أهل صناعة البديع، إذ لابد من تقريب بلاغة القرآن من عقول الخلق، وهكذا اناط بنفسه هذه المهمة فقال : " وبعد فغرضي أن أقرب في هذا الكتاب من أصول صناعة البديع ومن أساليبها البلاغة ووجوه التفريع تقريبا غير مخل ومنفعة في زيادة المنة وفهم الكتاب والسنة (68) .

ولما كانت العلوم جميعها قد انحصرت تحت كليات النص القرآني و جزئياته، فإن ابن البناء أراد أن يقرب " أصول صناعة البديع ووجوه التفريع " ، أي أنه يطمح أن يحدد الكليات (الأصول) البلاغية وتفريعاتها (جزئياتها)، حتى يتمكن الانسان من خلالها من التعرف على كليات القرآن وجزئياته.

فغاية ابن البناء القريبة هي أن يقرب أصول البلاغة تقريبا، ويبحث في وجوه تفريعها.

وغايته البعيدة تتوخى مقصدين :

أولهما ادبي فني يهيء الاديب للإبداع، ويعد الناقد للفهم والتحليل والتذوق وبذلك تكون منفعة الروض " في زيادة المنة " وثانيهما ديني يراد به فهم النصين المؤسسين للعقيدة الإسلامية (القرآن والحديث).

ويؤكد ابن البناء هذه الغاية في نهاية روضه، حين ذكر أن ما قدمه في شأن البلاغة " هو قدر كاف في فهم ذلك في كتاب الله وسنة نبيه وفي المخاطبات كلها " (174).

4 - تصور ابن البناء لكليات البلاغة

البحث عن الكليات هو منهج استنباطي ، تستنبط بواسطته النتائج الجزئية الخاصة من الكليات العامة. وهو منهج المنطق الارسطي الذي ينتقل من الكليات إلى الجزئيات. وابن البناء تسلح بمعاريفه في المنطق والأصول والبلاغة ليضع القوانين الكلية التي تنضبط بها الصناعة البلاغية، ولاشك ان من أراد أن يضع كليات الأمور من اللجوء إلى المنهج العلمي والاستفادة من أصحاب التنظير في القضايا الكلية التي تسعى ان تحاصر مظاهر المعرفة.

وجد ابن البناء أن صناعة البيان قد تنحصر، وأن أهل صناعة البديع حصروها بالاستقراء من جهة عوارض اللفظ (90) ، واختلفوا في تسمية تلك العوارض فاختلفت مصطلحاتهم، ووجد أن أقسام البديع (البلاغة) " يلتف بعضها ببعض، وتتركب، وتتداخل "، فيختلف أهل البلاغة في الأمثلة الجزئية، ويختلفون في وضعها داخل أقسام البلاغة " كما يختلفون أيضا في أساسي الأقسام وفي عدده وفي تفاصيلها "(173) .

وعندما يتحقق الاتفاق على الصور الجزئية " فلايضر الاختلاف في إدراجها تحت أي كلي كان، ولاتسويقها بأي اسم كان. ولذلك كانت الأقسام الكلية التي فيها توضع بحسب ما يراه كل واحد منهم، ويذهب في اعتباره صفات تلك الصور الجزئية " (173) .

بهذا يبرر ابن البناء اختياره لكليات بلاغية أدرج في طياتها جزئيات، قائلا : "ولأجل ماقلناه هنا ضبطناها نحن في هذا الكتاب على هذا النحو الذي فيه من الضبط " (173).

ومشروع ابن البناء يتشكل في مرحلتين :

في المرحلة الأولى (الباب الأول) يحدد المنطلقات العامة التي يمكن أن تؤسس في ضوئها كليات البلاغة، أو قل ان هذه المنطلقات هي عبارة عن مداخل عامة تتمثل :

- في تقرير علاقة اللفظ بمعناه، وارتباط الأول بالثاني ارتباط دلالة.

- في البحث في المعاني من حيث وجودها في الأعيان أو الأذهان.

- في تصنيف أنواع المخاطبات إلى برهان، جدل، خطابة، شعر، مغالطة.

- في تجاذب اللفظ بين الحقيقة والمجاز.

وإذا كانت البلاغة " هي أن يعبر عن المعنى المطلوب، عبارة يسهل بها حصوله في النفس متمكنا من الغرض المقصود. والفصاحة أن يكون اللفظ مشاكلا للمعنى " (87). فكيف يتأتى للإنسان أن يدرك حقيقة البلاغة، وكيف يتحقق التعبير عن المعنى، ويتشاكل اللفظ مع المعنى، وكيف ... وكيف ؟

وأمام تعدد كيفيات الخطاب " وبحسب أغراض الخطاب المختلفة بحسب الأحوال " 87 ، دعت الضرورة إلى محاصرة الوان الخطابات وأنواع الأساليب. " ولذلك احتيج إلى معرفة الكلام وطبقاته " (87) . وقد تكلفت صناعة البديع بهذه المهمة.

وتأتي المرحلة الثانية في المشروع (الباب الثاني والباب الثالث) لتفصيل :

- أقسام الكلام من جهة مواجهة المعنى نحو الغرض المقصود.

- ومن جهة الدلالة على المعنى.

وسعى ابن البناء من خلال هذين البابين إلى وضع كليات البلاغة في سبعة قوانين كلية تندرج تحتها الجزئيات وقد وضع لكل كلية منها فصلا. وهذه هي كليات ابن البناء :

1 - الخروج من شيء إلى شيء 2 - تشبيه شيء بشيء 3 - تبديل شيء بشيء 4 - تفصيل شيء بشيء	أقسام اللفظ من جهة مواجهة المعنى نحو الغرض المقصود
5 - الايجاز والاختصار 6 - الإكثار 7 - التكرير	أقسام اللفظ من جهة دلالته على المعنى

بهذه الطريقة حاول ابن البناء أن يختزل المباحث البلاغية داخل هذه الفصول. أو قل أن يعيد قراءة المباحث البلاغية القديمة حاصرا إياها في سبع كليات، معتقدا أن بموجبها يتحقق تقريب البيان من الأذهان، فيفهم كتاب الله وتفهم سنة رسوله، والمخاطبات البشرية كلها (174).

فالكلية الأولى أو (الخروج من شيء إلى شيء) يدرج ابن البناء تحتها كل ما يعتري سياق الأسلوب من تغيير، أو انتقال، أو تفاوت. وهكذا تتمثل جزئيات الكلية في : الخروج - الإدماج - التفريع - الاستطراد - التجريد - الاستدراك - الاعتراض - الالتفات.

والكلية الثانية (تشبيه شيء بشيء) يوظف فيها ابن البناء ما قيل في مبحث التشبيه في البلاغة العربية، ويركز على مسألة التناسب بين الأشياء في التصور، ويفرعها إلى أربع صور : المقابلة، رد الاعجاز على الصدور، اللف، المكافأة.

والكلية الثالثة (إبدال شيء بشيء) " وهو مجاز كله " (115) وضمه مبحث الاستعارة والكناية والارداف والتمثيل والتعريض والايماء والمحاجاة واللغز والتورية.

وهكذا حاول في بقية كتابه أن يضع كليات ويجد لها جزئيات تتفرع في تصوره. ومشروع ابن البناء يشبه إلى حد بعيد مشروع السجلماسي، إذ حاول الأول حصر كليات البلاغة في سبعة قوانين ضابطة لأنماط الخطاب، وسعى الثاني إلى حصر تلك الكليات في عشرة أجناس عالية تفرعت في صورة مصطلحات هي الانحاء التعبيرية في ألوان الخطاب الأدبي.

فمشروع كل منهما يهدف إلى إحصاء القوانين الضابطة لعلم (البديع = البلاغة) وتحرير القوانين الكلية، وتجريدها من المواد الجزئية كما يقول السجلماسي. وبتعبير ابن البناء وضع القوانين الكلية التي تنضبط بها الجزئيات المندرجة تحتها (88) .

والملاحظ أن ابن خلدون تغاضى عن بلاغة المغاربة خلال القرنين السابع والثامن، ولاحظ في مقارنته بين المشرق والمغرب في مجال البلاغة أن أهل المغرب اختصوا بعلم البديع " وفرعوا له ألقابا وعددوا أبوابا ونوعوا أنواعا وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب ... وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما وغموض معانيها فتجافوا عنها " (المقدمة : 3 / 1275 - 1276). ولايسع المقام هنا لاعلق على قول ابن خلدون.

خاتمة وخلاصة

حاول ابن البناء أن يعيد صياغة المباحث البلاغية القديمة في صورة مختصرة، تحدد الأصول والفروع وتقرب أساليب البلاغة تقريبا غير مخل، وتأليف غير ممل، يصغر جرمه، ويكثر علمه " (69) .

والحق أن الرجل اجتهد، واختصر، وسعى أن يقرب البيان إلى الأذهان، ولكنه حين أراد الكليات لم يسلم من الوقوع في انحرافات يقع فيها كل من طلب التعميم في مجالات معقدة تعقيد النفس الانسانية، ومحاولة ابن البناء تسهم في تقريب التراث البياني إلى عقول أهل زمانه. وتجتهد في تقريب المسافات بوضع القوانين الكلية

للظاهرة البيانية. وهذه الطريقة قد تفيد المتعلم في تعامله مع مباحث البلاغة العربية وضبطها ، ولكن لا اعتقد أنه وفق في ضبط الجزئيات وإخضاعها للكليات، فقد أكره كثيرا من الجزئيات وحشرها في كليات، بالرغم من أن هذه الكليات جاءت بصيغة الاطلاق والتجريد، وعلى أي حال لايمكن أن نقول مع ابن البناء في نهاية كتابه أن ماذكره يعرف - به - التفاضل في البلاغة والفصاحة، وهو قدر كاف في فهم ذلك في كتاب الله وسنة نبيه وفي المخاطبات كلها (174) .